زياد عبد الله

ديناميت

رواية

مدونة ابو عبدو

دینامیت

رواية

المؤلف: زياد عبد الله
عنوان الكتاب: ديناميت
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
جميع الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية: دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٨٣٦٦ ـ تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ ـ ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box.: 8272 or 7366 - Tel: 2322275 - 232226, Fax: 2322289
www.almadahouse.com Email: al-madahouse@net.sy

بيروت ـ الحمراء ـ شارع ليون ـ بناية منصور ـ الطابق الأول ـ تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ ـ ٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email: info@daralmada.com

بغداد ـ أبو نواس ـ محلة ١٠٢ ـ زقاق ١٣ ـ بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الإسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت «الكترونية» أو «ميكانيكية»، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-2-84306-080-9

زياد عبدالله

ديناميت

رواية

الخيال حاسم في هذه الرواية، وأي شبه بين أشخاصها وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية يأتي من باب المصادفة.

سيتم استبدال العدالة بالشفقة كونها فضيلة إنسانية أصيلة، وكل مخاوف القصاص ستتلاشى. كل فتى من فتيان ناصية الشارع سيهنئ نفسه: "أنا ذلك الخاطئ الذي كان على الله أن يهبط على هيئة شخص ليخلصه. عليّ أن أكون فهلوياً". كل محتال سيجادل:"أحب ارتكاب الجرائم. الرب يحب غفرانها. والعالم حقاً سيكون متسقاً." وطموح كل شرطي شاب سيكون توفير الأمن لتوبة محتضر. ستكون الارستقراطية الجديدة مؤلفةً حصراً من النساك، الشحاذين، والعاجزين. الأجلاف طيبي القلب، العاهرة المسلولة، اللص الطيب مع أمه، والفتاة المصابة بالصرع التي تمتلك طريقتها الخاصة للتعامل مع الحيوانات سيكونون أبطال وبطلات التراجيديا الحديثة حيث سيصبح الجنرال والموظف والفيلسوف مصدر السخرية في كل مهزلة وهجاء.

"مجزرة الأبرياء" – ويستان هيو أودن

إلى عبدالله أدهم عبدالله وابنته سوسن سلامة

أيقنت سلمى تحت شجرة شارعٍ ينتهي بالبحر بأنها لن تراه، ولن تقول له أي شيء، وراحت بفرحٍ طارئ تتخلص من كل ما رزحت تحته، وتطردُ عن روحها المبللة غرباناً حامت حولها طويلاً.

رفعت رأسها، تلقت بعينيها اللوزيتين المفتوحتين على اتساعهما القطرات التي تهجر الأغصان وما تبقى من أوراقٍ مصفرة، بدا لها أن دموعاً هبطت عليها من دون بكاء حين استقرت قطرة كبيرة في بؤبؤ عينها اليمنى تماماً، لحقتها قطرات متفرقة تلقت إحداها بفمها لتتذوق طعم مطرٍ لم يفارق أسبوع حيرتها المتوحشة، ولم يرحم رغبتها بتجفيف كل شيء، وإلقائه بعيداً عنها كالخبز اليابس.

تحسست ساعتها الرجالية فوجدتها بعيدة عن معصمها، بذلت جهداً في استخراجها من تحت صوف كنزتها ومعطفها المطري، وما أن استقرّت على معصمها حتى ثبتت نظرها بترقبٍ على عقرب الثواني، تتعقبه مشيّعة الدقيقة التي شارف على اكمالها، ومع دخوله دقيقة جديدة قرأت الوقت الذي كانت فيه:

إنها السادسة وعشرون دقيقة!

دقت ساعة الهرب، أدارت ظهرها للبحر ومضت في طريقها اليومي، وعبارة واحدة تتردد في رأسها: **بكرا بحكيلو كل شي**.. كانت تكررها وتؤكد عليها لتطمئن من أنها ستفعل ولن تكون كما هي اليوم.

كانت السماء ما زالت متجهمةً ومستعدةً تماماً لمواصلة أمطارها، وعلى أطراف شارع "بورسعيد" تكوَّنت سيول صغيرة متدفقة لم تُبقِ شيئاً إلا وجرفته. كان المارة في تزايد، طلاب وعمال وجنود وموظفون، حافلات وسيارات، وشاحنات تعلَّق بها عمال المرفأ وهم على صهوة دراجاتهم بيد تمسك بهيكل الشاحنة والأخرى مثبتة على المقود، بينما الأرجل ثابتة ومستسلمة للراحة، وسلمى على ثبات وجهها الرقيق وقد علته حمرة من صفعات رياح باردة كانت تقاوم صعودها المعاكس لكل من تصادفهم وهي لا تلوي على شيء.

بخطوات متسارعة وإصرار على ملاصقة الجدران والاحتماء بالشرفات وواقيات المحلات من مطر متوقف، واصلت سلمى مشيها واجتازت بقفزات رقيقة البحيرات الصغيرة المتجمعة عند مفترق الشارع الذي يتقاطع مع شارع "بورسعيد"، وفي اللحظة التي اختفت فيها الجدران والشرفات وانكشفت السماء من فوقها، عاودت الأمطار هطولها بغزارة مؤلمة، ما دفعها لنزول درجات حجرية متلعثمة كانت على يسارها والاحتماء بقوس النصر الروماني بكل جلاله ووحشته وقد استقرت في جوفه الرطب تحاصرها الأمطار.. امرأة وحيدة تقف في منتصفه تماماً، تتلاعب الريح بشعرها، يداها في جيوب معطفها وجذعها منحنٍ قليلاً للأمام، تتلقى رائحة الخبز القادمة من مخبز قريب ممزوجةً برائحة تربة حمراء هجرها العشب، لتملأ جسدها وتجتاح روحها الصغيرة.

تفقدت ساعتها، غرقت مجدداً في دوامة عقرب الثواني وهو يجهز على دقيقة ويمرر أخرى، وكلما رفعت بصرها عنه شعرت بأنها تحت

الأرض، في بقعة تخصها وحدها، في بيت تمر به يومياً ولا تدرك أنه بيتها، وها هي تزوره للمرة الأولى، بيت بأربعة أبواب هائلة، مفتوحة على الجهات الأربع، سقفه سماء حجرية لا يعكر صفوها إلا الطحالب، والأعمدة متوَّجة ومزخرفة ومتآكلة، إنه بيتها الآن ولا ينقصه إلا رغيف، رغيف لا يفصلها عنه إلا أمتار، أمتار قطعتها بالقفزات نفسها وهي تعبر البحيرات.. نار الفرن، سخونة رغيف تتلقفه وترمي بليرة وتمضي، والفران يصرخ:

- وين رايحة خدي البائي؟

البائي.. البائي.. الباقي ظلت الكلمة تتردد خلفها محيطة إياها بصدى من اختراعها وهي تقفز مجدداً في لجة قوس النصر لتلتهم رغيفاً، وتخرج منه، ومطر خفيف يرافقها، تمشي كما لو أنها تركض، وشيء معتم يلاحقها، أكثر من ظل وأقل من غيمة، شيء له قامة غموضها، وبأضعاف مقاساتها، وله إن وقع عليها أن يفتتها، أن يحيلها إلى الوحل الذي يغمر الشوارع التي عبرتها.

لم يكن في حوزتها هذا الصباح المبلل إلا الدهشة كبديل عن الحيرة والحزن والطيبة، واستقبال ما تراه يومياً كما لو أنها المرة الأولى. كانت امرأة أخرى من التهمت الرغيف، وقوس النصر كان مشدوداً بسهم أصاب قلباً جديداً لإمرأة ولدت للتو من خطواتها المسرعة، لا بل إن الأعمدة الرومانية مقابل مدرسة "عدنان المالكي" بدت أعجوبة صباحية لم تر مثيلا لها، دفعتها لتتخيل ما كانت عليه اللاذقية منذ أكثر من ألف عام، وهي تصل بين قوس النصر والأعمدة بأبنية تشبهها وقناطر ونباتات متسلقة وشرفات لا تطل منها إلا أصص ورود متفتحة، وأزمنة

غامضة تجهلها ولا تملك حيالها إلا تقليد ما أمامها، وما تمر به يومياً في طريقها إلى عملها. لقد كانت على مقربة من جنةٍ طارئة، ومدينة خالية من البشر، وممرات حجرية لها وحدها، وكل ذلك في مهلة هشة أحست أنها سرعان ما تنقضي وتهاجمها الغربان من جديد.

صخب الطلاب وهم يتوافدون إلى المدرسة أخرجها من شرودها، سارع من خطواتها التي تباطأت مع أشعة شمس فاترة وجدت طريقها من بين الغيوم وبدأت بتشتيتها. وقبل أن تدخل محطة القطار توقفت عند بوابتها ونظرت خلفها إلى المقبرة المقابلة، خطت خطوتين للأمام ثم التفتت وتوقفت تحدق بعيداً محاولةً تحديد قبر والدها من دون أن تنجح، ولم يكن لمرور المسافرين المسرعين من أمامها أن يعيقها إلا أنه دفعها للاستعجال بحسم أمرها بين أن تركب القطار أو تمضي إلى المقبرة وتزور والدها.

كانت لحظة شديدة الوطأة عليها، عميقة الحزن، كفيلة بأن تختصر حياتها، أن تضع والدها بين الحياة والموت، بين سكة قطارٍ فارقها إلى القبر وضرورة هربها المؤقت، وقد بدا لها أن هذا ما كان يفعله والدها دائماً، هارب أبدي، هارب بري على عاتقه ابنة وحيدة ينوء بها، يهرب ولا يتناسل، هرب ينقصه الكثير، تصفر فيه القطارات وليس له اتساع البحر الذي هرب إليه زوجها، ما من أمواج، ما من أمل باليابسة ما دام لا يفارقها، هرب أقرب للتنقل الآمن، وعلى خط ثابت لا يقوى على تسلق الجبال وهبوط الوديان، هرب تبنى له الجسور وتشق له أنفاق يدخلها ويخرج منها القطار، بضع دقائق في العتمة بعدئذٍ ضوء، تدريب على القبر سرعان ما يتبدى فشله وخداعه عندما تحل عتمة لا نهاية لها.

سلمى تستجمع ما بقي منها الآن، تكنس حاضرها وتشمِّس ماضياً صار أمامها، وكلها أمل ألا يشاركها مقصورتها أحد، أن تبقى كما في يومها اليوم، لا تتبادل كلمة واحدة مع أحد، لا تسأل ولا تجيب، تريد أن تشبع صمتاً، أن تكون برتابة القطار، تكرر صور حياتها المبعثرة مثل قاطراته، بانتظام وواحدة تلو الأخرى، وتمضي على سكة لا تنقطع ولا تحيد عن كل الزوايا النائية عنها والحقول الشاسعة التي ركضت فيها.

كل ذلك تراجع وانكمش داخلها بمجرد أن فتحت عليها الباب امرأة خمسينية، ووجدت مشقة كبيرة بألا تجيبها بـ"صباح النور" عندما قالت لها "صباح الخير"، ولم تجد نفسها إلا وهي تساعدها في وضع حقيبتها على الرف، وقد اجتاحت وجهها ابتسامة كبيرة دائماً ما كانت تغافلها، وتتسرب إليها من حيث لا تدري، عاجزة عن التقاطها، عن ضبطها، تقنينها، التحكم بمقاديرها الزائدة عن الحاجة وجعلها على الأقل متناسبة مع من أمامها. كان وجهها وحركاتها المهذبة والمضطربة يقول للمرأة التي جلست أمامها: أنا بانتظارك سيدتي، رهن إشارتك، وأرجو من الله أن يساعدني على أن أكون عند حسن ظنك بي.

عادت سلمى في لحظات إلى نفسها المناصرة دائماً للآخرين ضدها، موقنة كما في كل مرة بأن حريتها في وحدتها، وأن كل ما اجتاحها قبل صعودها القطار لم يكن إلا فسحة كانت ستضيق بها لو صادفت أحداً ما يعرفها، لو فكرت لدقيقة أن هناك من يراقبها. كان صباحها من أفعال المطر وسطوته على الشمس التي لا تعرف إلا إضاءة كل شيء بوقاحة، وكل ما نجحت في فعله هو تأخير لقائها السيد أدهم سراج، وقد وصلت البارحة فقط إلى حقيقة أنه وحده من يملك مساعدتها، وأنه لن يكون إلا نبيلاً معها كما عرفته دائماً.

- طلعت الشمس، راح المطر!

قالت السيدة الغامضة بعينين استقرتا على عيني سلمى، بعد أن تجولتا طويلاً في كل أرجائها وتفقدتا كل ما هي عليه، لتتركاها بعد أن عجزت عن تصنيفها، وربط تصرفاتها المهذبة والخرقاء مع قوة ملامحها الجامحة.

- راح المطر!

رددت سلمى العبارة نفسها بابتسامة مرتبكة، أوحت بسعادتها العارمة بسطوع الشمس.

- أنتِ حلبية؟

ونظرت إلى حذائها الموحل المتناقض تماماً مع ساقيها اللتين لم تخفيا جمالهما تحت جوربي النايلون، وثيابها التي كانت تخمد ما يضج تحتها.

- لأ من اللاذئية.

أجابتها سلمى في الحال.

- شو اسمك؟

- سلمى!

سلمى! ما هذا الاسم؟ قالت لنفسها، وجدته يشبه فقط تصرفاتها وتعابير وجهها وهي تجيبها، **تعابيرها شيء وملامحها شيء آخر**، ومضت تواصل حديثها لتتأكد من صحة استنتاجها.

- من وين باللاذئية؟

- من الصليبة، شارع بورسعيد.

- عرفت عرفت! الشارع الطالع من المينا!

- تمام.. أنا بالزاروب ادام موئف الباص.

الزاروب شيء والشارع شيء آخر على الأغلب، كانت ملامح السيدة تقول وهي تعاين أي شيء قد فاتها معاينته في سلمى.

- لهجتك ما بتشبه لهجة أهل اللاذئية؟

- امم (ابتسمت)

- بنتي عايشة مع زوجها باللاذئية، بمارتقلا، زرتها كم يوم وراجعة، مل قلبي من المطر وما -

قطعت حديثها فجأة مانعة نفسها من مواصلة ما شعرت بأنه ليس من الصواب مشاركته مع هذا الكائن الغريب، وأخرجت من حقيبتها علبة سجائر، قدمت واحدة كما لو أنها تختبرها، أخذتها سلمى بتردد وراحت تدخنها بتروٍ وبأقل قدر ممكن من الدخان الذي كانت تنفثه بعيداً عن السيدة.

- أنا بشتغل بالريجي*!

- لهيك بدّخني! أصلاً الدخان الوطني بِمَرِّض!

أومأت سلمى برأسها موافقة، وسحبت نفساً طويلاً من سيجارة "المالبورو" أبقته طويلاً في رئتها من دون أن تستشعر طعمها، ولا أن تشفي رغبتها العارمة بالتدخين، بينما كانت السيدة تنبشها مجدداً بنظرات لا رحمة فيها.

ماذا تفعل هكذا امرأة في الريجي ربما هذا مكانها المثالي، راحت السيدة تحاور نفسها وهي تراقب طريقتها بالتدخين.

---

* المؤسسة العامة للتبغ .

سلمى صالحة للّوحات، معدة لأن تكون موديلاً لا تأتي بحركة ولا تتلفظ بكلمة. سلمى وهي صامتة نمرة رابضة، كائن غامض يصعب ترويضه، جسد ينهش، شفتان ممتلئتان نعمة، أنف كله تقوى وشبق، بالحجم المتأهب دائماً لأن يتنشق كل ما قُطِف للتو.. عينان لوزيتان تصرخان بعسلهما ولا تقعان إلا على ما يليق بهما من مشاهد، أذنان رقيقتان بشحمتين لأقراط ملونة فقط، للهمس الطويل، للغزل. ما أن تأتي بحركة حتى يغيب كل ذلك، ما أن تمشي حتى تبدو متلعثمة، لا طاقة لقدميها على حملها، وربما على شيء من خيانة الخطوات لها، مع الإيحاء الدائم بأنها غير موجودة، متلاشية وجمالها لإمرأة أخرى تفشل أن تكون عند حسن ظنها.. وحده أحمد البطم قال لها: "جميلة لدرجة تقررين فيها متى تكونين كذلك".

سألتها السيدة أن تسدل الستارة، لتقيها الشمس التي ملأت المقصورة، واستقرت بكميات كبيرة عليها، وقد ارتدت في مواجهتها نظارة سوداء كبيرة احتلت ثلاثة أرباع وجهها، وأخفت عينيها الخضراوين النضرتين، المليئتين غروراً وفضولاً وثقة، وحولهما تجاعيد بادية بوضوح شكلت مع بضعة خطوط أخرى على جانبي فمها الصغير كل ما تركه الزمن من آثار على وجهها.

خيَّم الصمت على السيدة، لم تبادر سلمى إلى الحديث، صارت محاصرة بين نافذة ممنوع عليها النظر فيها، وسيدة هبط عليها النوم فجأة وأسدلت الستارة أيضاً على حديثها معها، من دون أن تتجرأ على تدخين واحدة من سجائر "الحمرا" الطويلة لئلا تمرض السيدة.

خرجت سلمى من مقصورتها التي صارت سجناً صغيراً، وجدت في

كافتيريا القطار جرعة فرح جديدة. طلبت كوب شاي، شربته بتلذذ مع سيجارة لم تفلت رئتها ذرة دخان منها، وراحت تلاحق المشاهد وهي تمضي مسرعة أمامها على نافذة خالية من الشمس.

رأت نفسها في كل الغابات التي مرت من أمامها، والمروج المغسولة فاقعة الخضرة، استعادت نفسها وهي تنشر الغسيل في يوم مشمس، تتفقد جسدها المأخوذ تماماً بصقيع الهواء ودفء الشمس، القشعريرة تلك، طرب القلب ذاك، وتوزيعه بنهمٍ على سماء تلتصق بالأرض ليصعدها ويتناثر فرحاً قلبها، تأخذ من الزرقة نتفةً تستحم بها وتطيل من أزرقها ليلتصق ببحر اللاذقية، الأمواج تضربها، وكلما ابتعدت عن الشاطئ أكثر كلما وهنت الأمواج وصارت تهدهدها، تمضي بها جيئة وذهاباً وهي معلقة بغسان البراني، كما لو أنه تزوجها ليملِّحها في البحر، ليجعلها تتعلق برقبته ويسبح بها طويلاً إلى ما لا نهاية، ويتركها في منتصفه تتخبط ولا تغرق.

فارقت سلمى الأخضر والأزرق، وانغمست في الأسود مع دخول القطار نفقاً طويلاً. ألصقت وجهها بالزجاج وأحاطته من جانبيه بيديها لترى جدران النفق والتجاويف التي تتخلله. تخلت عن النافذة واستوت في جلستها من دون أن تكمل تعقب الجدران حتى نهاية النفق، لتجد ثلاثة ضباط إلى الطاولة الموازية جاؤوا من حيث لا تدري ليحدقوا بها وعلى وجوههم ابتسامات متفاوتة.

- ضايعلك شي؟

قال أحدهم وأضاف آخر بنجمتين على كتفيه:

- مصيرك تلاقيه، ما إلك إلا النفق.

وصار ثلاثتهم يضحكون.

هربت مسرعة من كل ما كانت عليه، ولم تجد نفسها إلا خارج "الكافتيريا" وكلماتهم تلاحقها "وين رايحة؟ بكير..."

في الفسحة الصغيرة التي تفصل بين قاطرتين، استجمعت نفسها قليلاً وبدأت تستوعب ما خرج بها إلى هنا. طالعتها وجوه الضباط الممتلئة فرحاً، استعادت ما كانوا يقولونه، وقالت لنفسها بصوت عال "والله مظبوط حكيون"، وضحكت مواصلة ملاحقة المشاهد من زجاج الباب، ساهمة عنها بشرود خال ومنهك.

لم تواصل رحلتها إلى حلب، نزلت من القطار بمجرد توقفه في محطة "خان شيخون"، في النقطة التي تتشابك فيها سكة الحديد مع حياة والدها التي انطوت كاملة وما من أثر يدل عليها الآن، ولا شيء يعيده إليها وهو يستحثها لأن تمضي بعيداً عنه مع زوج يزيح عن كاهله عبء شعوره الدائم بالعذاب تجاهها.

تزوجت سلمى غسان البراني في شتاء اصطكت فيه أسنان الكائنات جميعاً، وغرقت ما أن لامست سريره بجسده البحري وموجه المتلاطم الذي كان يضربها برقة وحنان مالحين، وكل ما حولها يعينها على زمهرير وحدتها وهي تتوقد وتستسلم لحريق اندلع في ملتقى أطرافها الأربعة، وقد صار وردةً نارية، عش عصافير مهاجرة، صندوق بريد، علبة موسيقى، معبراً دائماً لغسان المأهول بها، الذي ما أن ينزل برقه ورعده فيها حتى تتكاثف غيومه بما يبشر بالمزيد، ليتحول إلى الصواعق التي سرعان ما تجدها تقصف جسدها، توقدها وتقلبها، لصق السرير كملاءة، على أريكة البيت الوحيدة وصريرها المعدني المتواصل،

في المطبخ الذي بالكاد يتسع لها، بين مرطبانات الزيتون، قرب طنجرة، في الحمام وصابونتها ما زالت في يدها تضغط عليها إلى أن تتسرب من قبضتها.

جسد غسان كان صيفياً في عز الشتاء، يصرخ بسلمى عارياً طيلة الوقت، لا يطيق الملابس، لا يريد لعضلاته المفتولة أن تغيب عن ناظرها، وكلما حدقت فيه أكثر كلما وجدت بشرته البحرية محمَّلة بشمسٍ أودعت كل أشعتها فيها. كان مالحاً، رشيقاً، بالخفة الموهوبة للقفز، للفرح الذي أحست به مع غسان من اللحظة الأولى.. **لا للخجل**، قال لها كل شيء فيه، وأمست من دون عناء مشغولة بنبشه مساماتها، واستقبال ذاك الذي ينغرز فيها كقرن حيوان أسطوري.

كان شهرها الأول مع غسان شهر لذة كامل، لا يخرج من البيت إلا ليعود إليها محملاً بشبقٍ حارقٍ ولهفةٍ جامحة، وهي تستقبله بكل ما زرعه فيها من توقٍ إليه، تستزيده، وكلها تصرخ أكثر، بينما باب البيت لا يفتح في وجه أحد، يرد كل من يقرعه خائباً، وأحياناً يسألها بينما أحدهم واقف بالباب أن تحبس أنفاسها ويحبس هو ضحكته التي سرعان ما ينفجر بها وتتبعه سلمى، ولتسمع من في الباب يتمتم بشيء لا يخلو من شتيمة لغسان، الأمر الذي يتزايد ليلاً، لكن على هيئة صرخات تأتي بعد منتصفه، وأحياناً عند مشارف الفجر، في البداية صفرات متقطعة، ومن ثم سيل من العبارات:

- يا طوربيد تخبا منيح اجاك الريح.
- شايفك.
- وينك ولاه، صحيح إنك عديم وئع بسلة تين.

وخلف الباب غسان غارق بالضحك وهو يقول لها "هادا أنا الطوربيد"، وسلمى تضحك لأنه يضحك، وكل ما يحيط بغسان يذكّرها بوالدها الذي كان يستعين بالضحك لتشتيت أي شيء آخر قد يخرج عنه.

مع انقضاء ذلك الشهر، تحرك هواء الشبق المعشش في زوايا بيت سلمى الجديد، وصارت تهويته مشرعة تماماً وهي لا تتوقف عن استقبال ضيوف زوجها الكثر، بشر من كل المقاسات والحجوم والأعمار، عمال وصيادون وعاطلون عن العمل، أشخاص يفشل غسان أحياناً في تذكر أسمائهم، لكنه يستقبلهم كما لو أنهم أصدقاء عمر، يكفي أن يتعرف على أحدهم في "البطرني" ليدعوه إلى البيت، أو يصطاد سمكاً كثيراً فيدعو كل من يقف على "مكسر" الميناء إلى حفلة شواء وسكر حتى الفجر، ويمضي إلى أقرب برية أو فسحة تظللها الأشجار، وفي أحيان كثيرة يدعوهم إلى البيت، ليكون على سلمى أن تشوي على السطح، وتمضي صعوداً وهبوطاً درج البناية، من دون أن يفوت غسان في كل مرة يجتمع لديه فيها ثلاثة أشخاص فرصة لعب الورق الذي يعبده.

في البداية كان القلق يسكن سلمى طيلة لعبه الهستيري، وهي تتأكد من أن ربحه أو خسارته مسألة حياة أو موت بالنسبة إليه، وإن ارتكب شريكه خطأ فإن بركاناً من الغضب والسباب سيحل بمن أمامه، وخسارته ستحوله في ثوان إلى مجنون وعلى جاهزية تامة لارتكاب كل أشكال الحماقات، قد يقلب الطاولة، أو يضرب من أمامه، أو يقوم بطرد كل من في البيت، لكنه ومن المرة الأولى التي وقعت فيها سلمى على جنونه بدد مخاوفها، وتأكدت مع تكراره نوبات غضبه بأنه ينأى عنها،

حريصاً كل الحرص على ألا يصيبها شيء من زبده الهستيري، وفي أحيان كثيرة كان يرتمي عليها ويضاجعها من دون مقدمات.

لم يتوقف غسان البراني عن إدهاش سلمى، كان يسبح بقوة وسرعة طوربيد كما يقول عنه أهل حارته، ويعيش تحت رحمة مزاج لا يرأف به، وفي قفزات عجيبة من عمل إلى آخر، يعمل لعشرة أيام في معمل مشروبات غازية صغير، أو في فرن "شيخ الجرابيع" الذي هجره من دون عودة عندما سأله صاحب الفرن مساعدته في إطعام الفئران والجرابيع نتف خبز مبلل بالزيت.

يواظب على المرفأ شهراً ويعمل عتّالاً، كاتب تعدادٍ، مهرِّباً، مصرّف عملات، أو أي شيء تضعه أمامه السفن الراسية، ثم يهجر المرفأ ويعود إلى ورشة "البيازيد" ليرسم على الزجاج، حينها تمتلئ جدران البيت بلوحاته الخاصة ويتحول إلى حديقة طواويس ملونة، وعصافير عجيبة تحمل أحجار نرد في مناقيرها، ومناظر طبيعية بألوان صارخة ودائماً البحر، وصورة لسلمى لا تشبهها أبداً إلا بشعرها الطويل، وعبارات بخطوط عجيبة كانت تجد سلمى صعوبة كبيرة في لفظها لدرجة تتحول فيها إلى لغز يبقى يؤرقها إلى أن تتمكن من حله وقراءة شيء مثل "بحبك يا بحر" مكتوبة كما لو أنها موجة، و"كاس وشوية ناس" بأحرف متفرقة مصبوبة من كأس متدلٍ، ولتتوسط أعماله الفنية آية الكرسي التي كانت سلمى تشاهد غسان في كل يوم يقرأها بصوت عال وبتركيز شديد، وليقول لها بعد انتهائه "مستحيل انو احفظها".

كل شيء في غسان كان عرضة للتغير، إلا عطفه الشديد على سلمى، معاهداً نفسه بألا يطالها بسوء مهما كان عليه مزاجه، متخذاً

من اقتصاده في أحاديثه معها أولى خطواته في صون عهده، ولتكون أفعاله لا كلماته أفعال حنان، فمع قدوم الصيف واكتشافه أنها لا تعرف السباحة، ظل يعلمها إلى أن جعلها تفعل، وقال لها "هلأ صرت مرتي، الله يسامحك يا أبو سلمى"، كما أنه كان كلما احتكم على مبلغ من المال يحضر لها ثوباً جديداً، معطفاً، حذاء، وكانت جميعها بألوان زاهية وبعيدة كل البعد عن ما اعتادت ارتداءه، وصار بعد ذلك يأخذها إلى "البالة"* ويريها كيف أن الألبسة المستعملة أحلى من الجديدة، باستثناء وحيد يتعلق بالجينز ماركة "لويز" الذي لا يساوم عليه، يزوده به البحارة ويدفع مقابله أي سعر يسألونه إياه.

هوس "البالة" نقله غسان البراني إلى سلمى التي اقتنعت أن بإمكانها الحصول على أجمل الثياب من هناك، وأن عليها فقط التحلي بالصبر والقدرة على معاينة كل قطعة ملابس، وإن كانت أحياناً تشتري ثياباً مستعملة أغلى من الجديدة، مع عجزها التام عن المساومة، مكتسبة كل عادات غسان عدا مواهبه في التعامل مع البشر، وقدرته العجيبة على إضحاك من أمامه وفرض هيبته عليه في الوقت نفسه، هو المعروف بسرعة غضبه، وقبضته الموجعة التي لن يتردد في استعمالها لأتفه الأسباب، واللجوء إن استدعت الحاجة إلى سكينه "الكبّاس ست طقات"، هو ذائع الصيت بمهارته باستخدامها ومعها "الشنتيانة"** التي كان يلفها على خصره متى ذهب إلى المرفأ، وكله شوق لأي مشكلة تتطلب تدخله، مع تجنب جميع من حوله اللجوء إليه وإبعاد كل ما يثير

---

* مسمى أهل اللاذقية لسوق الثياب المستعملة .

** سكين ذات نصل طويل وشديد المرونة .

غضبه من أمامه، بمن فيهم سلمى التي اكتشفت حلاً عاجلاً للغش الذي تتعرض إليه من قبل الباعة، بتعريفها عن نفسها لدى شرائها أي شيء من أحد لا يعرفها، "أنا مرتو للطوربيد" كانت تقول قبل إلقائها التحية، مجنبة البائع غضب غسان وقبضته إن باعها شيئاً بأغلى من ثمنه، ولتكون غالباً إجابة الباعة "بلا حقو إذا للطوربيد".

كان هذا أفضل حل خرجت به بعد عجزها تماماً عن إخفاء ما تنفقه، وبعد أن جعلها تشهد بأم عينها قيامه بضرب أبو خليل الدكنجي وتغسيله بسطل اللبن عندما عرف بأنه باعها كيلو اللبن أكثر بفرنكين عن سعره، ولم تتوقف ثورة غضبه إلا لدى رؤيتها تبكي، وليتكرر ذلك مع بائع خضراوات ادلبي لم يكن يعرف لا الطوربيد ولا الباخرة، قلب له غسان عربته أمام جامع "كريم" ودفع بالشيخ برهان الجولي إلى قطع صلاة الظهر حين اختلط سباب غسان بالآيات التي يتلوها، صارخاً به:

- الله لا يوفقك يا طوربيد.

وأمام لحية الشيخ البيضاء وجد غسان نفسه يتوضأ وينضم إلى المصلين، سائلاً الشيخ أن يسامحه وهو يقبّل أمامه بائع الخضراوات ويلملم ما تناثر من عربته، لا بل إنه صار مواظباً على الصلاة ليومين، كانا كافيين ليعود الشيخ برهان إلى سابق عهده معه، يتبادل معه النكات، وحكايا غسان العجيبة التي كان يستمتع بها وإن كان نصفها من نسج مخيلته العجيبة، المخصصة لأمكنة لم يطأها بقدم، واجداً في اليونان أبعدها على الإطلاق، والشيخ برهان يضحك ويردد "الله يهديك" حين يحدثه عن نساء شقراوات ومغامرات اعتاد الشيخ سماعها بأساليب مختلفة من كثيرين كانوا مصابين "بداء الخرط" كما يسميه، وعلى شيء

من حصار جامح مضروب حوله من قبل الصيادين والبحارة وعمال المرفأ أصحاب المخيلة الخصبة، وغير ذلك من أسئلة عجيبة تنهال عليه، لا يقصد أصحابها الجامع إلا لإيجاد إجابات لها عنده، والتأكد من أن حوريات البحر لسن من الجان، بل هن جنسٌ قائمٌ بذاته، والسمكات الطيَّارة ليست ملائكة، مع تهيؤات يقف حيالها الشيخ برهان مكتوف اليدين، مكتفياً بسماعها والدعاء لصاحبها أن يجنبه الله رؤية الغرقى كعمالقة منتفخة، وأن الخاتم الذي عثر عليه الصياد في بطن سمكة ليس خاتم سليمان، وماء البحر مالح ولا يمكن أن يتحول إلى الحلاوة عند خلطه بـ "شوية عرق"، و"العرق حرام"، و"التلصص على بنات الناس أحرم"، ومحرمات بلا نهاية يسمعها من أمامه وهو شارد عنه، والشيخ على ثقة بأنه لن يراه ثانية متى خرجت منه كلمة "حرام".

حرام وحلال الشيخ برهان كان يجد بعضا من الصدى في شهر رمضان، حين يتفرغ عدد لا بأس به من أهالي شارع "بورسعيد" و"الزاروب" وحارة "الأواهر" للتوبة والمواظبة على الصلاة وقراءة القرآن، وفي باقي أشهر السنة فإنه بالكاد يقع على عشرة مصلين في الصلوات الخمس، مع ارتفاع إلى عشرة أضعاف في صلاة الجمعة، يكون أغلبهم من زوار الجامع في يوم الجمعة فقط، وهم على معرفة تامة بالخطبة التي سيلقيها الشيخ برهان الذي يحتفظ بدفتر يحتوي على ٤٨ خطبة على عدد أسابيع السنة، خاضعة للتقديم والتأخير حسب المناسبات والغزوات، والتغيرات التي تمليها تحركات التقويم القمري.

رواد جامع الشيخ برهان الجولي المقتصرون على أيام الجمعة، قلَّ عددهم أكثر، مع ظهور منافس قوي له في مسجد صغير في المرفأ،

وتحديداً بعد وفاة الشيخ جمال السناوي وحلول ابنه صدّيق محله، وإجماع أهل اللاذقية على تسميته بـ "جامع رجال الأعمال" نظراً لسرعته في أداء الصلوات وخطبة الجمعة التي لا يتجاوز فيها الشيخ صدّيق الخمس دقائق، تنتهي غالباً بالدعاء لنادي "الساحل"* الرياضي إن كان سيخوض غمار لعبة كرة قدم، وإطالة هذا الدعاء إن كانت المباراة مع نادي "الجلاء"، الفريق المنافس وابن اللاذقية الذي يتقاسم سكان المدينة مع نادي "الساحل"، ويمكن لفوز أحدهما على الآخر أن يتحول إلى نصر تاريخي لا يمحى من الذاكرة اللاذقانية، هذا إن انتهى الأمر عند ذلك، ولم تتحول خسارة أحدهما إلى أحداث شغب مجنونة.

الشيخ برهان وأمام ندرة المصلين في صلاة الفجر توقف عن صلاتها في جامعه، صار يؤديها في بيته، فقد كان في مرات كثيرة لا يقع على أحد من المصلين سوى المؤذن ابراهيم الشريقي و خادم الجامع عيسى البعدول.

مواظبة غسان البراني على الصلاة ليومين، منحته صفة الشاهد على عودة الشيخ برهان إلى صلاة الفجر، وصار معينه لتخليصه من تندر أهل الحارة عليه.. "شيخ صح النوم".. "شيخ الشخير".. "ما إلنا إلا البعدول" ، فما أن رآه الشيخ برهان يدخل الجامع فجراً، حتى انقض عليه قائلاً له:

- شهاد ولاه طوربيد إني بالجامع.

---

* تأسس نادي الساحل في اللاذقية عام ١٩٢٥ ورغم تغيّر اسمه إلى نادي حطين عام ١٩٧٢ فإن الشيخ صديق السناوي احتفظ باسمه القديم كما هي حاله مع نادي الجلاء(تأسس عام ١٩٤٦) الذي أصبح نادي النهضة السوري عام ١٩٧١ ومن ثم نادي تشرين اعتبارا من عام ١٩٧٧ .

- بشهد، ليكك إدامي!

وأضاف الشيخ برهان:

- احلف على القرآن أنو مين ما بتشوف بتئلو أنو الشيخ برهان رجع يصلي الفجر بالجامع.

- بحلف.. شو يعني! والله لأصرع الدنيا إذا بدك.

- طول عمري بعرفك أبضاي.

وهذا ما فعله غسان البراني مبعداً عن الشيخ من دون أن يدري فضيحة أذانٍ أصمّ كل من سمعه، خرج من مئذنة جامع "كريم" بصوت البعدول في تمام الخامسة إلا عشرين دقيقة فجراً، وقد حل محل ابراهيم الشريقي الذي لم يأت في فجر حاصرته فيه حمى مروِّعة، لدرجة ظن فيها أن ما يسمعه قادماً من المئذنة واحدة من هلوساته الكثيرة التي صاحبته طيلة حرارته الليلية المرتفعة، بينما خرج الشيخ برهان الجولي تحت ضربات صوت البعدول الناشزة من سريره وهو يرتطم بنفسه، ليصل الجامع بعد أن كان البعدول قد أجهز على الفجر بأذانٍ مهلوس وأحرف متآكلة وصوت خشن كفيل بكسر زجاج النوافذ وتحطيم الأواني.

انتظره الشيخ برهان لينهي صلاته التي كان يؤديها وحيداً، وصرخ به:

- ولاه بعدول، شايف هادا الميكروفون، ما تدئرو بحياتك.

من دون أن ينتبه الشيخ برهان أن "الميكروفون" ما زال مفتوحاً، وأن ما قاله تردد صداه في جميع أرجاء المناطق المحيطة بالجامع.

كان هذا كافياً ليلغي عيسى البعدول "الميكروفون" من حياته، ولا يقترب منه حتى لتنظيفه، فما يقوله الشيخ برهان مطاع بمجرد أن ينطق

به، من دون أن ينبس بكلمة واحدة متى أمره بشيء، فهو من يطعمه ويعطف عليه، ويعامله كواحد من أبنائه، ويرد عنه كل سوء، هو مخلصه من لعنة "شحاطته"، والمزيح عنه ما علّقه على رقبته كرسن وقد كتب على قطعة ورق مقوى "يا سارق الشحاطة، إذا عيسى البعدول ما شايفك، الله شايفك"، بعد أن صار تسلية أهل حارته صغاراً وكباراً، وهم يخفون عنه "شحاطته" في كل مرة يخلعها على عتبة الجامع.

هو أيضاً من خصص له خطبة كاملة في يوم جمعة غائم، خارجاً عن دفتره وهو يحدث المصلين عن حرمة تعذيب اليتيم وسرقة "شحاطته" سائلاً كل من في الجامع أن يحضوا كل من يعذب البعدول على التوقف عن ذلك، وأن "شحاطته" ليست تسلية بل تعذيباً لمؤمنٍ حصيف.

نجحت خطبة الشيخ برهان حينها في إيقاف عذابات البعدول، وبقيت راسخة في أذهان الحاضرين الذين أطلقوا عليها اسم "خطبة الشحاطة"، ملحقة بالبعدول لعنة الهوس بتنسيق أحذية المصلين واحاطتها بعنايته المفرطة، ووضع كل حذاء أو "شحاطة" متى خلعها المصلي في خزانة من خزانات الجامع الكثيرة، كما لو أنها صنعت من ماس أو عاج، وعلى شيء من ذاكرة عجيبة تدفعه لتذكر حذاء المصلي من وجهه الذي ينطبع بذاكرته ومعه لونه وموديله وقياسه، من دون أن يخل ذلك بتنظيمه لعربات الباعة المتجمعين خارج الجامع عند كل صلاة جمعة، مصراً في كل شهر على رسم خطوط بيضاء جديدة تحدد مواقف تلك العربات، وانبعاث صرخاته المهلوسة متى شاهد عجلات عربة واحد من الباعة قد تجاوزت المساحة المخصصة لها أو لامست الخط الأبيض.

كانت طاعة غسان البراني للشيخ برهان مغايرة تماماً للبعدول،

وأقرب لتنفيذ كل ما يسأله إياه إن كان شيئاً آنياً أو كان الشيخ شاهداً عليه، وكانت كل تصرفاته معه تحكمها محبته واحترامه له ولا شيء آخر، حتى حين يضطر للصلاة في الجامع فإنه لا يفعل شيئاً إلا تقليد من على جانبيه من المصلين، يركع حين يركعان، يسجد حين يسجدان، وقد يردد أحياناً الفاتحة أثناء وقوفه..السورة الوحيدة التي يحفظها.

مفاتيح غسان البراني لم تكن في يد الشيخ برهان التي كان يقبِّلها أحياناً، ولا مع سلمى التي لم تعرف أن له مفاتيح، بل كانت تماماً في يد أحمد البطم يضغط عليها متى يشاء، وإن كان لا يفعل إلا نادراً، ولا يراه إلا صدفة قد تمر عليها أشهر من دون أن تتكرر، واثقاً في كل مرة بأنه أحجية، أعجوبة على قدمين، يبغض ما يكرهه، ويعشق ما يحبه، مع جهله بما يحب وما يكره، واختلاط الحقيقة مع الخيال في كل ما ينسج حوله، وبالقدر الكافي لتحويله إلى أسطورة قابلة للمزيد من الابتكارات والمبالغات التي يبدعها أهالي "الزاروب" وشارع "بورسعيد"، وبما يرضي شغف غسان البراني بمجهول يعبده.

سلمى ومع زيارة أحمد البطم الأولى لبيتها، انتقلت إليها كل مشاعر زوجها اتجاهه، ووجدت في باقة الورود التي قدمها إليها مع كلمة "مبروك" شيئاً قرّبها من سقف بيتها الواطئ، أخذها إلى مساحات يصعب التنفس فيها من كثرة الهواء، ولاحظت أن أريكتها لم يصدر عنها أي صوت لدى جلوسه عليها، وأحست بأن هدوءه وكلماته القليلة تملؤها هي وحدها، بينما بدت أحاديث زوجها المتدفقة والمحفوفة بفرح صاخب ضجيجاً يأتيها من مكان بعيد لا يمت بصلة لما أحيطت به من ورع.

كان أحمد البطم شيئاً جديداً تماماً على سلمى، رغم أن زيارته لم تدم لأكثر من ثلاثين دقيقة أمضاها وهو يطمئن على حياتها مع غسان البراني، ويوجه حديثه إليها كما لم يفعل أحد من قبل، ويمنحها وجوداً خاصاً، ويسألها أن تتكلم بغير عباراتها الجاهزة، كما لو أنه مكلف بحراستها وإحاطتها برعاية تهدهدها ثم تهزها هزاً عنيفاً، لتسقط عنها أشياء وتلتصق فيها ثمار لا تعرف أنها شجرتها.

يرتشف قهوته وهو ساهم تماماً. يقدم سيجارة لها بعد أن ينهض ويواجهها حاجباً عنها رؤية أي شيء ومنحنياً بولاعته المضيئة، يعود إلى الأريكة التي تتلقاه مجدداً خامدة كل أصواتها، يلتفت إلى غسان ويقول له:

- شو عم تعمل هالأيام؟

ويعود بنظره إلى سلمى ليقول لها وأنتِ أيضاً، ليسمع إجابة غسان وينظر إلى ما علقه على الجدار وابتسامة خفيفة على وجهه، فيعود بعد ذلك إلى صمته، الذي سرعان ما يخرقه غسان في مواصلة حديثه عن رسمه على الزجاج، وليقطع هذا الحديث في توقيت يختاره بدقة وتهذيب ليقول موجهاً كلامه إلى سلمى:

- وسلمى شو عم تعمل؟

ينتظر إجابتها وسلمى غارقة بسعادة تلفظه باسمها، واجدة في ابتسامة خفيفة أفضل إجابة، وفي داخلها ما يقول: **وشو بدي اعمل؟** وليجيبه غسان:

- بالبيت!

يغير أحمد البطم حديثه، يدير دفته بخفة إلى شيء آخر كما لو أنه ألغى أشياء كثيرة يود قولها ولم يجد توقيتها مناسباً. يسأل غسان عن

البحر والصيد، معقباً بجملة في كل مرة يلتقط فيها غسان أنفاسه، جملة لا يقصد بها إلا دفع غسان إلى المزيد، ولينهض من دون مقدمات مودعاً سلمى بمصافحتها برقة مفرطة، مربتاً على كتف غسان ورأسه، خارجاً من باب البيت بالسرعة التي دخل بها.

وجيزاً كان عبور أحمد البطم في حياة سلمى بعد ثلاثة أشهر على زواجها، عاصفاً ومدوخاً وهو يأخذ حيرتها إلى غابات عذراء تركض فيها خلفه وقد اختفى تماماً، بحيث أمسى انتظارها رؤيته مجدداً ملاذها الوحيد أمام انحسار غسان البراني عنها وغيابه المتعاظم والمتواتر، وانخفاض منسوب شبقه إلى درجة وصلت حد الزهد بها في شتاء زواجها الثاني، حين صار يمضي أغلب وقته خارج البيت، وأحيانا كانت تمر ثلاثة أيام لا تراه، يعود إلى البيت للنوم فقط الذي لا يستيقظ منه إلا ليأكل ومن ثم يعود إلى السرير، ليخرج بعد ذلك إلى غياب جديد وكل ما فيه يقول لها: إياكِ أن تسأليني عن شيء، وهذا ما كانت تفعله، محاصرة بين أربعة جدران ومدفأة لا تقيها برداً يأتيها من الأعماق، وأسئلة كثيرة يتردد صداها من دون إجابات: **شو صار لغسان؟ وينو؟ ليش عم يبعد عني؟**

لم تكن سلمى متسلحة بأية غواية تقيها ما حلَّ بها، كانت جاهلة تماماً بشؤون الغرام، وكل ما أحست في البداية بأنه لا لزوم له ولا حاجة لغسان به. كانت يتيمة لا تحمل أياً من تعاليم الأم التي لم تقع عليها ببصر ولم ترها حتى في صورة، وكانت كلما سألت والدها عنها ينصحها بالنظر إلى المرآة لتراها، وكل ما تعرفه عن طفولتها مجهول، مسكون بأطياف وأمكنة كثيرة عاشت فيها مع والدها، وذاكرتها مليئة بالجنود والعربات والدبابات ومن ثم القطارات، متأكدة دائماً من أن أمها أبعد ما تكون عن نساءٍ كن حولها، شيء منسي تماماً، ولدتها وماتت.

وفي زيارات والدها المتقطعة لها كانت تنشغل به أكثر من نفسها الضائعة، وهي ترى علائم الزمن متكاثفة على وجهه تكاد تنهشه، وكلها قلق عليه وهو يطمئن عليها وحياتها الزوجية، ليترك كل ذلك جانباً بمجرد مجيء غسان البراني، ويمضي معه في أحاديث ممتزجة بالضحك المجلجل، وقنينة عرق سرعان ما يجهزان عليها، ولتكون ذروة سعادة والدها ماثلة في لعبه ورق مع ثلة من رفاق غسان، حينها ينسى كل شيء ويظل يثني على غسان مردداً "لعيب يا أخو اللايأه"، وليذهب من دون أن يقبل المبيت في بيتها مهما كان الوقت متأخراً.

"القطار ناطرني" كان يقول لها رغم أنه لم يكن لقطار اللاذقية من وجود حينها، وليعود بعد شهر أو شهرين يتفقدها ويختفي، **كلهون هيك** كانت تقول لنفسها، إلى أن جاءها يوم ١٩٧٥/١١/١٦ بطقم بني وربطة عنق ليقول لها ما أن فتحت له الباب:

- شو رأيك؟

فاجأها حقاً، هي التي لم تره يوماً بهكذا ثياب، ولم تجد نفسها إلا وهي تعانقه:

- شو المناسبة؟ شو القصة؟

- اليوم بدن يدشنو قطار اللادئية حلب!

- يلا بدي آخدك معي، وينو العرص غسان؟

- ما بعرف!

- يلا بكرا بدنا ناخدو اجباري عنو.

لم تنس سلمى يوماً ذلك اليوم، ظل تاريخه محفوراً في أعماقها وهي تسمع والدها إلى جانبها يردد النشيد السوري بصوت عالٍ كاد أن

يتخطى موسيقى الفرقة العسكرية، ويسبق جميع من احتشدوا في تلك المناسبة بالتصفيق والتهليل، ليأخذها بعد انتهاء مراسم التدشين والكلمات الكثيرة التي ألقيت إلى سينما "أوغاريت" ويشاهدا معاً "زوجتي من الهبيز" مع أن والد سلمى شاهده "من زمان" كما قال لها، إلا أن ذلك لم يمنعه من الضحك عالياً من مقالب غوار المندوب السياحي وهو يُفشل زواج حسني البورظان، ويغرق في حب نانا الهبية.. وليخرجا من السينما إلى "مجنون ليلى" للتحلية بالكنافة أو تقديم "حلوان القطار".

أوصلها إلى البيت وقال لها:

- بكرا بدنا نروح على حلب.. هي أول رحلة للقطار.

لم يعد والدها ذلك اليوم إلا في الرابعة فجراً ومعه غسان البراني، وكلاهما في حالة سكر شديد جعلتهما يغطان في نوم عميق لم يستيقظ منه أبو سلمى إلا في الثانية عشرة ظهراً. انتفض كالمجنون وهو يصرخ "راح علي القطار"، سبَّ ولعن غسان وسلمى والعرق والسهر وحظه العاثر، والسنوات التي أضاعها في مد سكة الحديد، وكل الجبال التي فُجِّرت، والأنفاق التي اخترقتها، والجسور التي هزمت الوديان، ونصر السوفييت والبلغاريين الساحق على الطبيعة، ومعهم الخبراء والعمال والمهندسون، والجيش الذي أمضى كل عمره فيه مساعداً لا أمل له بأي رتبة غيرها، ونقل منه إجبارياً عام ١٩٧١ إلى مؤسسة السكك الحديدية في حلب، وكيف مرت عليه حرب تشرين ومعاركها تجري في دمه وشرايينه، قابعاً في مكتب تافه، في محطة قطار نائية، محروماً من إطلاق رصاصة واحدة.

حياة كاملة تلامحت في رأسه، حوّلت فرحه بالأمس إلى قنوط مرعب وأسى سوّد كل الطرق الترابية التي مرّ عليها، مستعيداً ضابطاً كان في شبابه يرى فيه كل إشراق الدنيا والغد الأفضل والمثال الذي يحتذى، وكيف كان يقلده في كل شيء، وليخلص في النهاية إلى أنه كان نسخة مشوهة عنه. لم ينجح في الشهادة الثانوية ليدخل الكلية الحربية، انضم إلى الجيش كصف ضابط، وبقي نصيراً في حزب البعث العربي الاشتراكي، ولم يحصل على العضوية العاملة.

بدد حياته في الملذات والكحول، كانت عنده ليلة حمراء أو مشاهدة فيلم في السينما ما يعادل مجد البشرية جمعاء، وحين تزوج أحس بأنه اقترف أغبى فعل على الإطلاق، وحين ماتت زوجته تركت له سلمى وصار ينوء بحملها معه أينما ذهب، يبقيها لدى أخته لشهر فيقتله الاشتياق والذنب والأسى، فيعود ليأخذها فيقتله حزنه عليها وهو بالكاد يراها، وتتناوب على رعايتها زوجات المجندين وصف الضباط، وأحياناً في لفتة عطف كريمة زوجة قائد كتيبته المحرومة من الأولاد.

لم يحتفظ والد سلمى في حياته إلا بقدرته العجيبة على التهكم، والاستسلام المطلق للضحك واجداً فيه أعظم انتصار بمقدوره تحقيقه على حياة وعرة، وليخونه الضحك لدى استيقاظه في بيت سلمى محاصراً بكل ما يدفعه إلى بكاء مرّ، هرب منه بأن خرج من بيت ابنته وطيف الضابط نفسه يرافقه وقد صار خلف القبضان، قابعاً في سجنه وحيداً ولم يكن بالأمس إلا صاحب أعلى سلطة في سورية، وكل ما في حياته يصرخ بأنه يخونه مجدداً وهو عاجز عن اللحاق بقطار كان آخر ما ينتظره.

غرقت سلمى بعد رحيل والدها المروع بنوبة بكاء صامت، مبعدة عنها شهقات عالية أتيح لها أن تخرجها كاملة بعد خروج غسان من البيت وهو يقول لها "بكرا بنروح لعندو"، وهذا ما فعله بحرص وإصرار، بدا واضحاً من عودته إلى البيت في الخامسة فجراً، وشربه رطلاً من القهوة لئلا يسرقه النوم، وليكون هو وسلمى في القطار قبل انطلاقه بربع ساعة، وليغط غسان في النوم والقطار لم يتحرك بعد في انتصار ساحق لنعاسه على سعادته بركوبه للمرة الأولى في حياته.

تفقدت سلمى والدها بكل جوارحها ووجدته يتظاهر بأنه كما تعودت عليه، وأحست للمرة الأولى بفشله في مواراة ما يسكنه حقاً، حيث بدا ضحكه الذي تركز على تفويته رحلة القطار الأولى بين اللاذقية وحلب شكلاً من التعذيب وأقرب لما يحز القلب، وأثناء الغداء الذي كان مصراً على إعداده بنفسه في بيته القريب من مبنى محطة "خان شيخون" غرق في الصمت تماماً، ولم تخرج منه لا ضحكة ولا كلمة، حتى أن غسان أحس بشيء من الملل يتسرب إليه مع طعم "مفركة البيض" الرديئة والسلطة الخالية من الملح والحامض، مفضلاً النوم على أي شيء آخر ريثما يصل القطار ويهرب من أبو سلمى الذي لم يعرفه يوماً هكذا، ولتجد سلمى والدها يفارقها ما أن دخل غسان ملكوت النوم متذرعاً بشيء عليه القيام به في المحطة وهو ينأى بنفسه عن أن يبقى وحيداً معها.

قبل أن تصعد القطار عانقت سلمى والدها وراحت تعتصره وتبكي، ليفلت منها مشيحاً بوجهه، مطرقاً في الأرض، واجدا في فك ساعته عن معصمه ووضعها في يدها شيئاً يبقيه بعيدا عن مرمى نظراتها المبللة

بالدموع، قائلاً لها "إن الساعة آتية لا ريب فيها" وربما شيئاً يشبه ذلك، كون سلمى ما زالت عاجزة عن فهم لمَ قال لها ذلك؟ ولمَ أتبعها بواحدة من ضحكاته المجلجلة مربتاً على كتفها؟ صارخاً بغسان:

- دير بالك عليها يا عرص!

كانت هذه آخر مرة ترى سلمى فيها والدها، مات في صباح مشمس بعد سبعة أيام على مفارقتها له، وحيداً على كرسي انتظار المسافرين، ببذة رمادية مكتوب عليها "خ.ح.س"*، وقبعة سوداء كانت مرميةً قربه.

عاد إلى مدينته اللاذقية في تابوت أودع قاطرة البريد، وحُمل على الأكتاف في جنازة صغيرة من المحطة إلى المقبرة المقابلة لها بعد أن صلي عليه في جامع "المغربي"، وظل بكاء سلمى عليه يخرجه أمامها من القبر ضاحكاً، وبكامل صخبه حين كان يتذكر ملاكي الموت مردداً بصوت يجعله مرتجفاً ومخيفاً "إذا جاءك الملكان منكر ونكير قل لهما ربي الله وديني الاسلام ونبيي محمد"، ليقول إنه سيتلعثم وينسى وتحل عليه الملائكة السوداء بدل البيضاء ويصبح كفنه ناراً وتأتيه أنتن ريح في الدنيا، واسترساله في مرات كثيرة بأنه لن ينام نومة العروس التي يوعد بها المؤمن، ولن يوقظ بأحب الأشخاص، ولن يأتيه شيء من ريح وريحان الجنة، مؤكداً أن جهنم بانتظاره وبالدرك الأسفل منها، مواصلاً إلى أنه لن يمنح فرصة في البرزخ لتدخين سيجارة واحدة ولو كانت أمنية أخيرة في مرحلة مفصلية عصيبة، وهو لا يجد إلا الضحك ومزيداً من الضحك من أن سوءاً لن يمسّه، ما دام يعرف أنها جهنم وبئس المصير، وأنه قادر

---

* رمز الخطوط الحديدية السورية .

على التخلص من العتمة بملونات حياته التي مزجها بكلتا يديه وخرجت منهما لائقة بتدرجات روحه وظلالها الآثمة واختلاطها الوحشي بحواسه التي كانت بواباته إلى كل شيء.

عجزت سلمى عن لملمة حياته، عثرت على رقته المتناثرة في خلاياها، وجدته صامتاً عنها، منكباً عليها من البعيد دائماً، وهي تستعيد تلك التفاصيل الصغيرة، وكل ما يوهم بأنه لا يستقر بذاكرة، وبدا لها ضحكه في لحظة حالكة السواد على هيئة بكاء، تتقلص عضلات وجهه وتضيّق عينيه وتعتصر دموعه إلى داخله وقد كان بئراً سحيقة لا تشرب ماءها من شدة ملوحتها.

ثلاثة أيام استغرقها العزاء وحزن غسان على أبو سلمى. ثلاثة أيام كان فيها غسان مصاباً بلوثة الموت، بعد أن رأى كيف أهيل التراب على أبو سلمى، والحجر الثقيل الذي أوصد عليه، شاعراً بالاختناق وهو يشيح بوجهه عن تلك الصورة المتكررة الملتصقة به، مستجيباً لها بشعور عارم بالفناء والزهد والخوف، واللجوء إلى الصلاة التي بالكاد يعرف عنها شيئاً، محاولاً أن يقرأ بعد الفاتحة آيات من سورة آل عمران حفظها من كثرة ما تكررت في المأتم "كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور".

عندما جاء أحمد البطم إلى العزاء، رأى غسان فيه مخلصه، وراح يسأله عن عدد ركعات كل فريضة، وأحمد يجيبه وابتسامة ماكرة على وجهه لم يلحظها غسان، منشغلاً عنها بانصاته المأخوذ بكل ما يتلفظ به أحمد، وحفظه لما يقال في الركوع والسجود، وإضافات أخرى يستبق فيها أحمد ما سيسأله إياه.

وبعد أن أشبع أحمد فضوله تماماً، قال له:

- شو خايف من الموت؟

- ليش أنت ما بتخاف؟

- أبداً، ولا بفكر فيه؟

- القبر هو المشكلة!

- القبر عتمة بعتمة، نايم بعد التعب، بلا أحلام ولا كوابيس، ولا شي تتذكرو أو تنساه.

- والحساب؟

- لا حساب ولا شي! يعني مفكر حالك كتير مهم.. كل القصة أنك بتنام بالقبر فرحان أو زعلان، وما في داعي لتتنفس أو تختنق...

- الخنأة أصعب، والله لما سكروا على أبو سلمى ما شفت ولا ذرة هوا..

- ليك المقبرة أحلى محل للسكر، أنا كل ما بتسكر معي بحمل حالي وبروح لعند المفلوش..

- المفلوش ما غيرو تبع مقبرة الفرنسيين.

- تمام، بتركوا يحكيلي أصص عن الجثث، ويفرشلي المازاوات وعدة العرق على شي قبر، أف شو حلوة، اليوم بدنا نروح.

- لك هادا خريط كبير، عندو بجنينة البيت ست سبع قبور لعسكر فرنسيين، وهو بعمرو ما دفن حدا.

- شو بدك من هالحكي، ما في أحلى من أنك تشرب العرق وطاولتك قبر، وتحتو فرنسي كمان، لازم نشرب نبيت أحسن..

- بنروح اليوم؟

- هلأ.

وليقول أحمد البطم بصوت عال وجدية مفرطة:

- الله يرحمك يا أبو سلمى.. الفاتحة يا أخوان.

قرأ الفاتحة وربت على فخذ غسان وخرجا سوية إلى مقبرة الفرنسيين القريبة، وليتخلى غسان في الحال عن ورعه الطارئ، وهو يرى أحمد البطم يتعامل مع المفلوش كما لو أنه سيده، وهو لا تسعه الفرحة بقدومه إلى بيته الخربة، ومقبرته البائدة، يذهب ويعود بالكؤوس والأطباق وهو يردد "بعد زمان يا أستاذ أحمد"، "إلك وحشة"، "طولتها هالمرة"، وحين انتهى من إحضار لوازم السهرة، قال له أحمد البطم:

- اليوم بدي إسكر على قبر برنار!

- وين ما بدك!

ليقوم بنقل كل الأطباق والكؤوس إلى قبر تظلله الأشجار، بعد أن كانت مفروشة على قبر يتوسط المقبرة، وليقول له أحمد البطم من دون مقدمات:

- حكيلنا عن آخر واحد دفنتو؟

ليقاطع المفلوش الذي مضى بسرد قصة لا تنتهي قائلاً له:

- هي اديمه! حكيلنا شي جديد؟

لينتقل المفلوش مباشرة إلى قصة أخرى، وليقاطعه أحمد البطم بنهوضه، وصبه ما في القنينة من عرق على القبر كما لو أنه يسقيه، وتركه غسان البراني والمفلوش مشدوهين وهو يغادر المقبرة من دون أن يقول كلمة واحدة.

اختفاء أحمد البطم مجددا من حياة غسان البراني لم يدم طويلاً هذه المرة، استيقظ غسان بعد أربعة أيام من غيابه الصامت على سلمى تهزه

وتقول له "أحمد البطم عنا"، لينهض من السرير وهو يقول لسلمى "كان عم يسمعني".

سمعت سلمى للمرة الأولى قرار غسان العمل بحاراً في واحدة من السفن الراسية في المرفأ، وعزمه على السفر بعد ستة أيام، الأمر الذي تحول إلى يقين لا تردد فيه عندما لقي التشجيع من أحمد، والثناء على صواب ما يفعله، وسلمى تنظر في وجه البطم وهي ترجوه صامتة أن يتوقف عن سيل مديحه المفرط للسفر، ولذة اكتشاف العالم، وعنفوان البحر وجبروته، وكيف للإنسان أن يصارعه ليعرف ما هو القدر وما هي الحياة.

كان وجه أحمد البطم يزداد إشراقاً وتوقداً مع ازدياد مديحه البحر، بينما غسان البراني يطرب لما يسمعه ويرى فيه تجسيداً لما يرتطم بكيانه منذ الأزل، هو الموجة التي لا يليق بها المكوث طويلاً على الشاطئ والسمكة التي تخترق كل الشباك، ليسأله أحمد البطم أن يحضر أي مشروب لديه ليشرب نخبه:

- كاسك يا بحار.

وظلا يشربان وأحمد البطم يزداد حزناً وتشوشاً، ويمضي بعيداً عما كانه بدايةً، ملاحقاً عبارات ساهمة وغير مترابطة، لم تجد لا سلمى ولا غسان تفسيرات لها، وقد بدت لهما قادمة من أماكن مجهولة بلغة أشبه بالألغاز، وهو يوصي غسان أن يأخذ حذره من النوارس لأنها ملائكة، وأن الشواطئ واليابسة مسكونة بالملائكة الخانعة، بينما للبحر ملاك أزرق وحيد هو الشيطان، بكل زبده يسأل غسان الاستسلام له تماماً. يكز على أسنانه وهو يقول" الأرض تافهة يا غسان"، يسأله المضي خلف

الوهم والسراب، والغيوم التي لا تمطر، والاستعاضة عن المظلة بهالة نور مغسول بملح البحر، وغسل الماء بالماء، والاستسلام للعطش، وقتل الجوع بصيام يأتي من كثرة الانغماس في الخطايا، وأن هناك سفلة كثراً يجب التخلص منهم ولو عادل تعدادهم عدد سكان الكرة الأرضية، ليعلو صوته فجأة: "الموت متل الأرض تافه"، وأنه لا يستحق كل هذا الخوف والورع، وأن الإصرار على الدفن ليس إلا إصراراً على التفاهة: موت وتراب وأرض وحجر وديدان، وجسده لن تتجرأ الديدان على ملامسته لأنه سيكون مراً ومتفسخاً أصلاً من الداخل، وهذا كل ما يعمل عليه، ومتى أحس أنه تفسخ تماماً فإنه سيذهب إلى الموت كنزهة تعده براحة أبدية مطلقة، وعلى الجميع أن يفعلوا ذلك أن يتفسخوا ومتى داهمهم الموت يكونون قد صاروا جثثاً قبل أن يصيّرهم الموت كذلك..

- روح يا غسان .. ما في غير البحر..

قال ذلك محولاً نظره إلى سلمى بعينين تقدحان شرراً وخرج كما لو أنه تلاشى.

سافر غسان بعد ستة أيام كما هو مقرر، ترك سلمى وحيدة تتجرع فقدانها والدها متبوعاً بزوجها. منع نفسه من إظهار عطفه عليها ومللله منها في الوقت نفسه، وكل ما في داخله يصارع تحوله إلى كرهها وقد صارت كتلة سوداء مجبولة بالدموع.

تركها وحيدة تماماً من دون ولد، متأكداً من أنها عاجزة عن الانجاب، من دون أقرباء، وإن وجدوا فإنها تنفر منهم ما أن تتذكرهم، ليس لها إلا بيتها وجيرانها الذين لا تفهمهم ولا تجدهم إلا يتهكمون عليها.

حفنة من النقود كل ما تركه غسان لسلمى، طبع قبلة على جبهتها،

أتبعها بقوله إنه سيرسل لها مالاً كلما أتيح له. لم يقل كلمة وداع واحدة ثم غاب قبل رأس السنة بيوم واحد من دون أمل بعودة وشيكة، وجدران البيت تتداعى عليها تحت ضربات احتفالات اللاذقية الصاخبة بقدوم سنة جديدة، وحصار أغاني السكارى والألعاب النارية التي تضيء عتمتها وتهزأ بها، والتي تداخلت بعنف مع صافرات السفن الراسية في تمام الثانية عشرة.

بشَّرها فجر أول يوم من سنة ١٩٧٦ الذي طلع عليها وهي جالسة على أريكتها بنوبات متوحشة من الأسى، ظلت تتصاعد إلى أن وصلت ثالث يوم على رحيل زوجها، ولم ترفع اصبعا واحدة في وجه اجتياحات نهشتها.

في رابع أيام وحدتها القاحلة، مرّ قطار والدها في رأسها بمجرد أن استيقظت من نوم معكر بالوحشة، ودفعها صفيره إلى الخروج من بيتها والمضي مباشرة إلى المحطة.

وصلت حلب في العاشرة والنصف صباحاً، وأمضت كامل يومها في التسكع من مكان إلى آخر، من "العزيزية" مضت إلى الحديقة واشترت بوشاراً صارت تأكله وتطعم العصافير، لتخرج من الحديقة وتجد نفسها في شارع "السينمات"، تستجمع نفسها وتدخل السينما لتشاهد فيلما بالكاد قرأت عنوانه وقد كان "مهمة رسمية"، شاهدت فيه عبد اللطيف فتحي في زيارة للاذقية كمفتش للمطاعم، **اللادئية لاحقتني وين ما رحت** قالت لنفسها وراحت تضحك على **ياسينو اللي ضل ياسينو بدون تيابو اللي بعرفها وفطوم نفس الشي** وأسعدتها كثيرا أغنية "يسعد لي صباحو" و"حملتك سلامي" لمحمد جمال ورأت ليلى مطر الشقراء أحلى

من رقص وغنى، وتجاهلت تماماً نظرات كانت تأتيها من العتمة، ومخاوف صغيرة بددتها أمام ما كانت تشهده بفرح من يتخلص من أعباء كثيرة، حتى أنها واصلت تسكعها ووصلت ساحة "باب الفرج"، ومن ثم عادت إلى الحديقة لئلا تضيع، ومنها خرجت إلى المحطة ووصلت اللاذقية في السابعة والنصف مساء.

عادت جديدة وقد توصلت إلى شيء يمكن له أن يقتل وحدتها، في اليوم التالي ذهبت إلى "الحرش" واستلقت بين الأشجار النازلة إلى البحر، وهي لا تفعل شيئاً إلا تكرار محاولاتها إصابة جذوع الأشجار بالأحجار، ومع هبوط الخوف عليها من عزلة المكان، عادت إلى البيت الذي صار خروجها منه متكررا ومنتشراً في كل بقعة من اللاذقية، تمشي وتمشي إلى أن يصيبها التعب، وتحرق كل ذرة وحدة صارت تتحول إلى خوف يحاصرها في بيتها، يجعلها على هلع دائم من أي صوت أو ضجة قد تندلع فجأة من جيرانها، وترقب دائم لطرقات على الباب تضربها بلا رحمة وتجعل قلبها يقفز من بين أضلاعها، ومن في الباب يسألها إن كانت تحتاج شيئاً، قائلاً إن غسان أوصاه بالسؤال عنها، الأمر الذي صار يتناقص تدريجياً، وهي بالكاد تجيبهم أو تفتح الباب لهم.

في تجوالها المضطرب على أرصفة اللاذقية، كانت سلمى تستغرب كل ما تصادفه، وخوفها يتفاقم إلى أن صار يخرج معها من البيت بعد أن كانت تتركه خلفها، حتى أنها ألغت مرورها من حارة "الأواهر" لئلا تصادف تلك الفتاة التي يضعها أهلها على عتبة الباب لصق جدار ترتد إليه بجذعها جيئةً وذهاباً، وما عادت تمر من أمام مدرسة "الكلية الوطنية" لئلا تقع على وجه عجوز تبقى رابضة في شرفتها الواطئة

تراقب المارة بوجهها المليء بالتجاعيد والملطخ بطبقات هائلة من البودرة والمكياج، ولم يعد وارداً مرورها من "سوق البلدية" مبتعدةً عن الأخوة الخرسان وهمهماتهم العجيبة وحركاتهم غير المتوقعة، ونأت بنفسها عن سوق "البالة" عند الجامع الكبير وقد احتله باعة العصافير بأقفاص صغيرة وفي داخلها آلاف العصافير بأنواع وألوان ومقاسات لا حصر لها.

صارت خريطة قدميها مقتصرة على شارع "بورسعيد" الذي تمضي به نزولاً، ومن ثم تنعطف يميناً لمواصلة مشيها وعبورها من أمام إدارة المرفأ ومن ثم كنيسة "اللاتين" وشارع بغداد وصولاً إلى ساحة "الشيخ ضاهر" التي سرعان ما عادت تقصدها، خوفاً من ازدحامها الشديد وضجيجها المؤلم ومقاهيها المكدسة بالبشر و"بسطاتها" المليئة بالنظارات والألعاب والسجائر، مع صرخات لا تتوقف لسائقي التاكسي: "شام شام شام"، "طرابلس طرابلس طرابلس"، "بيروت بيروت بيروت"، "حلب حلب حلب" ورائحة بول نفَّاذة وفتَّاكة قادمة من الملاجئ التي تتوسطها وقد تحولت إلى ملاذ للمتبولين، حالها حال الملاجئ في ساحة "أوغاريت" حيث السينما التي ما أن تجرأت ودخلتها وحيدة لمشاهدة فيلم "حسناء وأربع عيون" حتى صار خوفها من العتمة قاتلاً، وهي ترى أمامها التعري على أشده والقبلات المحمومة مندلعة أمامها، وكل ما حولها يصرخ أنها هي العارية، هي من تتلقى القبلات، وجميع من في الصالة يشاهدونها في أحضان أديب قدورة.

ظلت رحلات سلمى إلى حلب متنفسها الوحيد، معبرها إلى ما يخالف ما صارت إليه، كان القطار وحده كفيلاً بانتزاعها من تدافع

الوحدة والهلع في حياتها، وصعودهما المدوي في شرايينها، تتعقب كل ما يمر على نافذتها، تتفقد نقطة وداعها الأخير لوالدها، وتستسلم في أحيان كثيرة لنوم عميق تستيقظ منه في حلب، مستكينة لهدهدة القطار، ولطمأنينة فارقتها وأخذت معها النوم الهانئ.

أبقت سلمى على مساحة تحركها في مدينة بالكاد تعرفها محددة بأمكنة قليلة، أحدثت عليها تعديلات طفيفة دفعتها للذهاب في إحدى المرات إلى "الجميلية" مديرة ظهرها لفندق "السياحي" الذي اعتادت المرور به في طريقها إلى شارع طويل يمتد إلى ساحة "باب الفرج"، مع احتفاظ "الحديقة العامة" بصفة نقطة الإنطلاق والمكان الأول الذي تقصده، بعد اكتشافها لأقفاص الطواويس والأرانب، وحرصها على إطعامها بفرح.

أصبحت سلمى بين ليلة وضحاها حديث "الزاروب"، ولم تتوقف الأعين عن تعقبها بفضول كان حاضراً منذ أول يوم سافر فيه غسان البراني، وأدرجت على الفور في خانة الأشخاص الغامضين الصالحين تماماً لمخيلة المحيطين بها، إلا أن القصص الأولية التي نسجت حولها سرعان ما تهاوت، ولم يلحظ على تحركاتها إلا الوحدة والغرابة، وانعدام اتصالها بأحد، وعندما تطوع البعض لتعقبها، لم يجدوا شيئاً من خيانات زوجية كانت في سلم أولياتهم، بل تكراراً لمشاوير محددة ومتكررة، الأمر الذي لم يبعد تماماً شبح الخيانة عنها، وخاصة مع ذهابها في القطار كل سبت، وعليه فإن عشيقها لابد أن يكون حلبياً، وتداولت الأفواه لفترة تسميتها بـ "أم حلب"، لكن انعطافاً طرأ على مسار التوجهات مع تزايد غرابة سلمى، ومشاهدة إحدى جاراتها لها تنفض

سجادتها بحذاء أسود بدل العصا، وتأكيد أخرى أنها رأتها في منور البناية تجلس القرفصاء وتدخن سيجارة وإلى جانبها قطة ميتة، وأنها تقلم أظافرها بالسكين التي تقطع فيها البصل، وظلت تتواصل تلك القصص مع الإجماع على أنها مجنونة، هرب غسان البراني منها إلى البحر، وأنها أجهضت ثلاث مرات من دون علم غسان، دفنت اثنين من الأجنة في الحرش، وأودعت الثالث في مستودعات المرفأ في "شارع بورسعيد" لتتغذى عليه الجرذان بدل سمنة "بيبيه" التي تستعملها في كل شيء وتأكلها مع مربى المشمش بدل الزبدة، وتشمّس كل الخضراوات وتطحنها مع لحم الجمل الذي تأتي به من حلب، وتطبخها جميعاً في قدر كبير تُتبِّله ببهارات عجيبة، وتمضي شهراً لا تأكل فيه إلا منها، طبخة لها رائحة الخرنوب، تغطي عليها بحرق أوراق الكينا وأعواد بخور رديء لتمتزج جميعاً وتعبق برائحة لا مثيل لها، بينما رائحتها هي أقرب للعجل لأنها تستحم مرة كل ثلاثة أشهر، خوفاً من اضمحلال وشم الوردة الذي شهدت كثيرات على أنهن شاهدنه فوق منكب سلمى الأيسر وهي تسبح مع غسان البراني، وأن والدها من وشمها به، والذي سرح من الجيش لأنه كان يعيش مع القرباط، ويسرق الأسلحة من كتيبته ويهديها لعشيقاته القرباطيات مقابل شرب حليب الماعز أو حليب الأمهات المرضعات، وتقديمه طلباً لقائده يطلب فيه ضرورة تحويل الخيم العسكرية إلى خيم من جلود الحيوانات وشعر الماعز لقدرتها المؤكدة على الحماية من قذائف العدو.

سلمى من رأسها إلى أخمص قدميها وما تحت أظافرها وما يحوم في رأسها وجسدها ويتحرك في سابع أرواحها كان تحت مجهر يخرج

بحكايات لا نهاية لها، اجتمعت جميعاً على تعزيز صورتها كمجنونة، أمها قرباطية، جمالها الذي كان مثار إعجاب الجميع أول ما جاءت مع غسان لم يمنع تحولها إلى كائن ينصح بتجنبه، لأنها كالجرب سرعان ما تنقل العدوى.

حدث وحيد أخرج سلمى من أنشطة عزلتها المطبقة، عطل طارئ ألمّ بقطار سبتها الحزين قلب حياتها رأساً على عقب، منعها من العودة إليه، وانشغلت عنه بمضيها في سكة ورود جامحة سوّرت بيتها الصغير، وقطار رغبات متوحشة يعبر إليها وحدها.

في الرابع من آذار عام ١٩٧٦، تعطّل القطار العائد بسلمى من حلب عند جسر "الشغور"، ولم تصل بيتها إلا بعد منتصف الليل، بعد أن قطعت شوارع خالية إلا ممن كانوا عائدين معها في القطار، ما منحها طمأنينة غمرت إحساسها بفضيحة تتعقبها، وشعور بأن هناك من سينجدها من الكلاب الشاردة التي مرت من أمامها وبادلتها خوفاً يتخطى خوفها بكثير، لكن عند وصولها شارع "بورسعيد" أصبحت وحيدة بعد أن تفرق من كانوا يرافقونها كل إلى وجهته، ومع انعطافها نحو "الزاروب" أحست بأن هناك من يتبعها، سارعت من خطواتها ولم تلتفت خلفها، وما أن عبرت مدخل البناية الضيق والمعتم حتى تأكد لها أن هناك من يصعد الدرج خلفها، فتجرأت ونظرت خلفها من دون أن ترى أحداً قبل أن تفتح باب بيتها بهدوء شديد، حريصة على ألا يصدر عنه أي صوت، وما أن دخلت وهمّت بإيصاد الباب خلفها بالحرص نفسه، حتى تعرض الباب لدفعة قوية، رمت بها على الأرض وفوقها رجل لم تتبين ملامحه يطبق بيده على فمها.

تصلبت شرايين سلمى وانعقدت أعضاؤها، بينما الرجل فوقها لا ينطق بحرف واحد، وكل ما تسمعه خفقان قلبه وقلبها وقد تمازجا، غير قادرة على الإتيان بحركة، مستسلمة تماماً للخوف واليأس والمجهول، إلى أن اقترب الرجل من أذنها وهمس لها بحنان متقطع:

- هسسس هسسس!

عرفت الصوت في الحال، تراخى كل ما في داخلها، استسلمت تماماً لكلمات أخرى صبها في أذنها مباشرة:

- ما حدا شايفنا!

وراح لسانه يتجول في أذنها برقة، يعض برقة على شحمتها ويلتقط أنفاسه من تجويفها، وسلمى تحس بها عاصفة مدوية استقرت في سمعها، تسربت إلى دمها الذي راح يتدفق متخبطاً في شراينها، ملقياً بها في دوامة فرح يأتي من الندى الذي لفظته وردتها، بينما يده تنبشها، تخرجها من ثيابها، وفمه الرابض على فمها يلتهمها كما لو أنه يلقنها ما في جوفه، يتداخلان ويتمازجان، وينغرز فيها بغصنه الصلب، يطيل ويواصل، يدخل وردتها ويأخذ من رحيقها، يطيل ويواصل، ويداه لا تتوقفان عن ملاحقة ما أضاعه في جسدها، في عريها التام ومعالم وجهه تتضح من انعكاسه عليه، يطيل ويواصل، كما لو أنه لا يعرف نهايةً، وهي تقفز من ذروةٍ إلى أخرى، وفي لحظة انفلتت من الزمن ضم خليج سلمى كل أمواجه، وأضيء بألعابه النارية، وأنّات خفيضة أقرب للبكاء، تهدم بعدها عليها، معانقاً لها يكاد يفتتها، مطيلاً هذا العناق لدقائق قصيرة وطويلة كأنها الأبد، ولينهض عنها مفارقاً من دون أن ينبس بكلمة.

استيقظت سلمى في اليوم التالي كما تركها أحمد البطم، عاريةً وممدةً على سجادة صالونها الصغير، وجسدها عابق برائحة تبغٍ وعطرٍ رجالي خفيف، تتأرجح بين الحيرة والفرح والشبق، مكتفية بالالتصاق بأريكتها تستعيد مئات المرات ما هبط عليها وأطلقها عالياً في اللذة، وفيها من الشبق ما يجعلها تترقب ظهور أحمد البطم من جديد ومعاودة ملامستها السماء.

انغمست سلمى تماماً بانتظاره فقط، برغبتها المجنونة أن تبقى عارية دائماً في توق متوحش إليه، بترقبها المتزايد كلما اقتربت الساعة من الليل ومنتصفه، وهي تتنشقه مجدداً من على جسدها، وتستعيده بحذافيره المغيبة في ظلام دامس.

بقيت كذلك طيلة ليلها المضيء بترقب مجيئه في أية لحظة، ولم تجد نفسها إلا في صباح اليوم الثاني تستيقظ من نومها وأول ما يهبط عليها تجدد أملها بمجيئه من جديد، إلى أن صارت حياتها انتظاراً تفوق على ما حولها، بدد الخوف، شتت الوحدة، وأخرجها من حصارٍ آثمٍ مضروبٍ حولها، بقيت كذلك لستة أيام صارت تتنقل فيها بفرح في بيتها الصغير، تطبخ وتأكل بشهية كبيرة، على أمل أن يأتي ويتذوق طبخها، ويتذوقها هي المحتشدة بالنكهات.

لم يكن اليأس من عودته مجدداً وارداً إلى ذهنها، كانت متأكدة من أنه سيأتي لا محالة، وهذا ما فعله في سابع أيام انتظارها له، لكن في الظهيرة، وهو يقرع الباب بطرقات قوية، ويخاطبها وقد وقف بعيداً عنها بصوت عال سمعه كل من في البناية و"الزاروب":

- كيفك يا سلمى، أمورك تمام؟

وليدخل البيت وسلمى معطلة تماماً، متخبطة بين أن تقفز عليه وتخنقه بالعناق والقبلات، أو الاستجابة لنظراته المحايدة ومعالم وجهه الرصينة، مانعاً لها من إغلاق الباب، ومواصلاً حديثه معها بالصوت العالي نفسه، وليقطعه بقول شيء واحد بصوت أقرب للهمس:

- اليوم الساعة تلاتة!

ولم يكن إلا في موعده عند سريرها هذه المرة، وباندفاع محموم أشد عنفاً ورقةً وجنوناً، وكل ما حول سلمى ينهمر ويهمي، ومساحات شاسعة أمامها كلما شغل أحمد البطم حيزاً منها كلما اتسعت أكثر وامتدت، وصار التوق لأن يحتلها كاملة أملاً لا أمل بشيء غيره، تتعلق به كحبل نجاة ولذة، وياطر لا يعرف أن يستقر بها، وهي تتخبط به، تتمايل فيأخذ بيدها، ويعيدها إلى صوابها ثم يفقدها إياه.

كان حباً صامتاً في البداية، مشغولاً بالبشرة والمسامات، بتضاريس الجسد، بانحناءاته ومساربه ومراميه البعيدة، بالزغب، بالشعر، بالإشارات وتحديد المواعيد، وملصقات مشروبات المياه الغازية التي أعطى أحمد البطم سلمى منها المئات، وقال لها أن تلصق منها في كل يوم تعجز عن ملاقاته واحدة على صندوق الكهرباء عند نهاية "الزاروب"، الأمر الذي لم تفعله لثلاثة أشهر ظلت تلقاه فيها متقطعاً ومتواصلاً وجنونها وجنونه على توتر يتخطى الكهرباء وصناديقها.

الكلمات لم تتصاعد بينهما إلا رويداً ومن جهة أحمد البطم، وعلى هيئة قصص غامضة تشبهه تماماً ولا علاقة له بها، قصص حدثت قبل مئات بل آلاف السنين، وكلها في اللاذقية، قرب بحرها، على ذرى

الجبال التي تحيط بها، قرب الميناء، عن فتاة اسمها أغافي*، ومعارك وزلازل وحروب، وتواريخ يقول لها أحمد البطم ألا تصدق نصفها، وهو يمسد شعرها ويتركها نائمة ويمضي.

صار مع الوقت يحدثها عن ضرورة أن تعمل، وبحزم لا يقبل النقاش، وهو يجيب عن كل ما يدور في رأسها، فهي لم تكن في حاجة للمال ولا تتقن أي عمل، ولا تجد في إصراره على عملها إلا شيئاً يشبه قصصه الغامضة، وخاصة مع قوله لها شيئاً تجهله تماماً عن الاستقلالية، وأن العمل ليس شيئاً يقصد به المال فقط، لكن عليها أن تجرب، وألا تبقى رهن جدران البيت الأربعة لا تفعل شيئاً إلا انتظاره، مؤكداً مراراً أن غسان لن يمانع وأنه سيتولى أمر إقناعه متى عاد.

إصراره على عملها، دفعها للتساؤل عن عمل أحمد البطم نفسه، ومصدر رزقه الذي يجعله دائماً على قدر خاص من الأناقة، وعطر لا يفارقه. وكعهدها مع كل ما يدور في داخلها، أبقت كل أسئلتها بلا إجابات، وحاولت فقط ثنيه عن قراره الذي لم يكن في وارد فهمها، وكانت محاولاته اقناعها تزيد الأمر تعقيداً، إلى أن قال لها في فجر غرامي إنه سيعود إليها في العاشرة صباحاً، ويأخذها إلى السيد أدهم سراج.

كانت سلمى تعرف هذا الاسم جيداً، ومبنى إدارة المرفأ الكبير الذي دخلته مع أحمد البطم أعادها مباشرة إلى والدها الذي رافقته مرتين في زيارته للسيد أدهم، وكانتا المرتين الوحيدتين اللتين تدخل فيهما سلمى

---

* فتاة حسناء يروى إنها قُدّمت أضحية بشرية للآلهة عندما بنى سلوقس نيكاتور اللاذقية في السنة السادسة من موت الاسكندر .

مبنى مؤسسة حكومية، الأولى كانت في شارع "بغداد" ولم تتجاوز العاشرة من عمرها، مستعيدة وجه السيد أدهم الضاحك وهو يقدم لها قطع حلوى لم تقع على مثلها من قبل، ووالدها يحدثه بجدية مفرطة، وكل ما يجيبه به السيد أدهم مطمئن، وهو يكرر "ولا يهمك، محلولة"، وفي المرة الثانية لم تكن بعيدة زمنياً عن الأولى، وفي مكتب آخر غير الذي في طريقها لدخوله بعد انتظارها وأحمد البطم لخمس دقائق.

كان وجه السيد أدهم على ما رسخ بذاكرتها ضاحكاً وكله ثقة، مثلما هو صوته وكل حركاته، ولم تجده إلا خارجاً من طاولته الشاسعة، يعانق أحمد البطم بمودة مفرطة، ويصافحها قائلاً بحزم محاط بفرح كبير:

- بعرفك صغيرة يا سلمى شو هالحلاوة؟

ليضيف بعد ملاحظته الحمرة التي طفت على وجنتيها:

- يلا سامحيني خجلتك!

اكتفى أحمد البطم بالجلوس على كنبة مجاورة للسيد أدهم، منصتا لحديثه مع سلمى كما لو أنه يعرف كل شيء، بينما أدهم سراج يواصل حديثه ويسأل سلمى عن مؤهلاتها العلمية التي لم تكن تتجاوز الابتدائية الأمر الذي أضفى على وجهه حيرة سرعان ما تخلص منها، وسألها أن تعود إليه بعد أسبوع بدون أحمد البطم قائلاً:

- ما بدك واسطتو، مع أنها تئيلة!

كانت سلمى بعد مرور الأسبوع في موعدها المحدد، فرحة بأنها ستقابل أدهم سراج مجدداً، غير آبهة بالعمل الذي ينتظرها، ولا ما سيقدمه إليها، وقد كان ودوداً مثلما هو دائماً. احتفى بها، طلب لها قهوة واعتذر منها لأنه مشغول بعض الشيء، ومضت تراقبه بإعجاب

وهو يعطي أوامره، يوقع على الأوراق التي تضعها سكرتيرته على طاولته، ويلتفت إليها بين الحين والآخر ليبتسم لها، ويسألها أكثر من مرة "القهوة منيحة" وينشغل عن إجابتها بأوراق أمامه.

لينهض بعد ذلك عن كرسيه محضراً معه فنجان قهوته، ويجلس إلى جانبها قائلاً:

- طيب يا ستي، بدنا نشغلك بالريجي، وهي سيجارة عالسيرة..

قدم إليها واحدة معتذراً من أنه لم يفعل إلا بعد إشعال سيجارته.

- هي أنت بتدخني، هادا أول شرط للعمل، وبعدين بدي منك تاخدي الإعدادية، أول شي بدك تشتغلي بالمعمل، وبس اخدتي الإعدادية بظبطك بالإدارة.. وبتشدي حالك لتاخدي الثانوية، اتفقنا.

- اتفقنا.

- قالت سلمى بفرح غامر.

- الله يرحمو لأبوك، والله كان ما في منو.

- تعيش يا أستاذ!

- الله يرحمو ليش ما علمك غير للابتدائي؟

- والله يا أستاذ هو كان كتير حريص على تعليمي، وأنا وصلت التاسع إعدادي بس وقتها سرحو من الجيش، وأنا تكاسلت ورسبت بالتاسع، وهو صار بدنيا تانية، كل كام شهر ما نشوف حالنا إلا بمحل جديد، ولما بلش مد سكة الحديد بين اللاذقية وحلب كانت أقرب مدرسة إعدادية بجسر الشغور ونحنا عايشين بخان شيخون، وصار يخاف عليي روح لحالي كل يوم.

- هلأ إنت ما عندك عمة باللاذقية... وفي عم عندك كمان.

- صحيح بس أبوي ما بطيق سيرة عمي، وأنا عشت عند عمتي وأنا صغيرة شي كام شهر أو سنة، بعدين ما بعرف كمان ليش صار لا يزورها ولا يجيب سيرتها..

كانت ستسترسل وتخبره كم كانت عمتها قاسية عليها، لكنه سرعان ما قال لها كما لو أنه ينهي لقاءه معها:

- على خير يا سلمى الغالية، هلأ رح ياخدك الشوفير عالريجي، وهي رقم تليفوني، خبريني وقت اللي بدك... تذكرت، لما بيجي غسان خلي يجي لعندي، خبريه أنو أدهم عايزك.

توقفت قطارات سلمى ووحدتها زمناً طويلاً، تعطلت بعملها في "الريجي" وضجيجه العجيب، وصخب الأصوات التي لا تهدأ عن الثرثرة والصراخ. اندمجت خلال فترة قصيرة مع نسوة كثر يحطن بها من كل جانب، وعجزت تماماً عن فهم صمت أحمد البطم حيال عملها، وهو يسمعها تحدثه عنه في شرود تام، ويقاطعها أحياناً طالباً منها أن "تخفض صوتها"، وقد اكتسبت خصلة الحديث بصوت عال من جراء عملها، حيث الجميع لا يتوقفون عن الكلام بطبقة صوت محددة تتيح السمع تحت وطأة صخب الآلات التي لا ترحم.

لم تعرف سلمى ما الذي ستضيفه قدرتها المكتسبة على التميز بين أنواع التبوغ على هوس أحمد البطم بها ، وكيف وجدها بعد أن صارت تتحدث عن البرلي والبصما والبريليب وشك البنت، وتعلمها نبش بالات التبغ وتخليصه من كل الشوائب، أو استعاضتها عن الميزان بيدها التي صارت تزن ٥٠ غراما من التبغ بدقة مفرطة، كما كن يفعلن من حولها.

بقي أحمد البطم بالنسبة إليها غامضاً لا يزيده الزمن إلا غموضاً،

تحاول بكل جسدها أن تكتشفه، ولا تملك إلا غراماً يهبط عليها من دون مواعيد ما دامت لم تضع له واحدة من ملصقات المياه الغازية، وانعدام حاجتها لأحد من حولها وقد عافتها ألسنتهم، واكتفوا بالقول بأن أحمد البطم يرعاها، وأنه بالتأكيد الوحيد القادر على شفائها من الجنون، مبعدين عنه وعنها أية شبهات غرامية، لا لشيء إلا لأن كل من في "الزاروب" يعتبرون أحمد البطم أسطورة تحيطها هالة قداسة، وأن ما يفعله مع سلمى ليس إلا من باب النبل، وتخليصها من وحدتها وجنونها عن طريق العمل.

آخر قطارات سلمى كان في رحلتها التي لم تكملها إلى حلب، ونزولها في "خان شيخون" وعودتها إلى اللاذقية وكلها أمل أن تقابل أدهم سراج في اليوم التالي، لتقاسمه سراً لم ولن تتخلص منه مهما فعلت، حتى وإن تبللت بالأمطار، وغرقت بالسيول، والتهمت رغيفاً ساخناً تحت قوس النصر، ورأت اللاذقية كما لم ترها من قبل. ملجأها الوحيد السيد أدهم، خلاصها، وإن مضت بقطار، فإنه لن يأخذها بعيداً، فليس لها غيره ليخلصها من جنين صارت متأكدة من أنها تحمله في أحشائها.

كان ذلك بعد ثلاثة أشهر من عملها في الريجي، وخمسة أشهر على غرامها المحموم، الذي انقطع لخمسة عشر يوماً عاد فيها زوجها غسان البراني، وكله حيرة وشرود وصمت، ووقع عليها كما لم يعرفها من قبل، لكن بلا مبالاة أو اهتمام، ملامسا لها بشوق، نافثاً في داخلها كل شهواته في البداية، محولاً الجنس مع تكراره معها إلى ما يشبه الانتقام من طيبتها ورتابتها التي حاصرته قبل سفره بوقت طويل،

منتظراً عودته إلى البحر بفارغ الصبر، وهو يوافق على ما يقوله له أحمد البطم، ولا يزور السيد أدهم، غير آبه بأن تعمل سلمى أو لا تعمل، أن تبقى وحيدة أو تشرّع البيت أمام الجميع، ولم يعد شعوره تجاهها يتعدى كونها أمانةً وضعها والدها في رقبته، وقد تخلص من عبئها مع كلمات أحمد البطم ورعايته لها، وهو مشغول عنها بأحمد البطم نفسه، الذي رآه أكثر من أي فترة في حياته، مطمئناً على أنه كما هو، بكامل روعته، ينصت إليه وقصصه البحرية ويثني على تجاربه، والمدن والحانات التي زارها، النساء اللواتي عاشرهن في كل ميناء، وحجم المخاطر التي تعرض لها، والعواصف التي ضربت سفينته قرب مرسيليا.

أحست سلمى بعد ذهاب غسان البراني في رحلة جديدة بأنها تحررت منه تماماً، وما عاد يمت بصلة للطوربيد الذي كان كل فرحها، رغم استقبالها له بكل ما أوتيت من شوق وجدته حاضراً مع مجيئه، شوق خاص ومعزول عن تحرقها لأحمد البطم، الذي انتصر انتصاراً ساحقاً في روحها وجسدها عندمالم تجد في ما يفعله زوجها إلا تبديداً لذلك الشوق وإصراراً على قتل الذكريات، وعدم إضافة أية ذكرى جميلة عليها.

عادت سلمى وأحمد البطم إلى سابق عهدهما وفي اتقاد أشد جنوناً، مع إحداث بعض التغيرات التي صارت تتيح لها أن تزوره وهي عائدة من عملها في عليته العجيبة القريبة من بيتها، أو متى وضع لها على باب بيتها ملصق الشراب الغازي الدائري المماثل للذي عندها، وليكون ملصق أحمد البطم دعوة للقائه على عكس ملصق سلمى، فما أن تراه حتى تتوجه إلى عليته التي تدخلها من مدخل جانبي، وعبر درج خاص بها.

ملصقات أحمد البطم سوداء بينما التي عند سلمى برتقالية.. "أنت مثل البرتقال، وأنا أسود مثل الكولا، لك أن تصديني بها، ولي أن أدعوك بها" كان أحمد البطم يقول لها.

في صباحها الماطر الذي انتظرت فيه السيد أدهم سراج للمرة الأولى، استخدمت ثالث ملصق برتقالي، مكملة بذلك ثلاثة أيام متواصلة من الامتناع عن رؤية أحمد البطم، وفي اليوم التالي لعودتها بالقطار من "خان شيخون" ألصقت في العاشرة صباحاً رابع ملصق على صندوق الكهرباء والمواعيد الغرامية، وتوجهت مباشرة إلى مبنى إدارة المرفأ من دون أن تنتظر خروج السيد أدهم من بيته تحت شجرة لم تمنع عنها مطراً كان على أشده بالأمس، وصارت تفكر طيلة الطريق بأنها إن واصلت امتناعها عن لقاء أحمد البطم فإن الصندوق سرعان ما سيصبح برتقالياً، وبدت لها هذه الإشارة سريعة العطب، عكس ملصق أحمد البطم الذي تنزعه عن بابها في كل مرة تذهب إلى عليته، ليعود ويضع غيره.

كانت سلمى معطلة تماماً تجاه أحمد البطم، وموجات حيرتها قادرة على وضعها في دوامة ليس له أن يخرجها منها، مع غثيان شديد رافقها طيلة الأسبوع، واتساع في قدرتها على التقاط أية رائحة، وإحساس بالطعوم جعل للماء مذاقاً عرفته للمرة الأولى، وعاملات "الريجي" الخبيرات يؤكدن أنها حامل لا محالة، وأن ما تأخر عنها طيلة زواجها من غسان البراني، ها هو يتحقق بزيارته السريعة.."مبروك.. مبروك" كن يقلن لها، وهي ساهمة عنهن بيقينها من أن ما في أحشائها ليس إلا من صنيع أحمد البطم، يقين لن تجد له تفسيراً إلا في أعماقها وحدسها ورغبتها.

تلكأت سلمى مع دخولها صالون إدارة المرفأ الشاسع، ولم تترك لخطواتها أن تقودها إلى مكتب السيد أدهم إلا بعد أن حسمت أمرها بأنها ستزوره على كل الأحوال سواء طلبت مساعدته أم لم تفعل.

مقابلته لها كانت كما توقعتها، الحفاوة نفسها، أناقته المفرطة، ملامح وجهه الرقيقة، شعره السبل وغرة مسدلة على جبهته بدرجة ميلان يحرص على تفقدها بتمرير أصابعه بها وإعادتها مائلة.

انشغل عنها في البداية كما في المرة السابقة، وإن كان انشغاله هذه المرة أطول، متبعاً ذلك بالاعتذار منها بلطافة مفرطة، وسؤالها وقد كست وجهه علامات الاهتمام البالغ:

- شو يا سلمى ..شو هالمفاجأة..

- حبيت زورك واشكرك على الشغل وكل شي عملتو مشاني.

- ما في داعي للشكر ولا شي!

وليتبع ذلك وقد بدا عليه الفضول بعد اكتشافه من طريقة إجابتها، بأن ما قالته لا علاقة له أبدا بزيارتها.

- خبريني شو الأصة، في شي زاعجك؟

وفي انتظار خروجها عن صمتها، نهض وأغلق الباب، وأشعل سيجارة بعد أن قدم لها واحدة، وعاد إلى كنبته محركاً هواء الغرفة لدى جلوسه إلى جانبها، وقد غمرها عطره، عطر أحمد البطم نفسه.

قالت سلمى من دون مقدمات:

- يمكن أنا حامل!

- إيه مبروك، وليش هيك زعلانه، وأنا كمان ناطر ولي العهد..

- لكن مبروك لإلك يا أستاذ..

قالت ذلك بفرح كبير، وانتبهت إلى أنها مع هذا الرجل تشعر بحرية كبيرة، لا تتلعثم، ولا تشعر بأنها مجبرة على الإجابة كما يريد الذي أمامها أن يسمع، بل تخرج منها الجمل على سجيتها، حقيقية ومكتملة.

- فحصت حالك، رحت لعند دكتور..

- لأ، بس أنا متأكدة..

- طيب بس لازم تروحي لعند دكتور، وإذا بدك أنا باخدك، هيدا غسان بيعمل العملة وبيهرب، أزعر كبير، قلتيلو يجي لعندي ما هيك..

لم تجب سلمى بشيء، واحتفظت بصمت استغربه أدهم سراج، وليدرك في الحال أنها للآن لم تفصح عن ما تود قوله له.

وصار فضوله دافعاً له لأن يبقى معها لأكبر وقت، حتى أنه حجز لها موعدا عاجلا عند الطبيب، وأخذها بسيارته، ونظرات سلمى لا تفارقه وهو يستشعر بها تراقبه وفي داخلها ما يتخبط ويلح عليها أن تتلفظ به.

أصر أدهم سراج على أن يوصلها بنفسه إلى بيتها. ولم تنتظر سلمى نتيجة الفحص التي ستظهر في اليوم التالي، قالت له بصوت بالكاد سمعه:

- الولد من أحمد البطم!

تأكد أدهم سراج من أن ما سمعه صحيح بتكرار العبارة في رأسه ثلاث أو أربع مرات، ولم يسأل سلمى أن تعيدها، بقي يقود السيارة ساهماً، إلى أن أوصلها البيت.

قبل أن تنزل من السيارة، أمسك يدها وقال:

- خلي الولد يا سلمى؟

- رح خليه.

- لا تحكي لأحمد البطم اللي حكيتيلي ياه؟

- خلص ما رح..

- سرك معي، وما في شي تخافي منو.

ولم تجد سلمى من شيء تهرب به من عينيه الوادعتين، إلا ساعة والدها تفتلها يميناً ويساراً على معصمها، وصمت كان آخر ما بدر عنها، أجابت به على صمته الذي قال فيه كل شيء.

صعدت درج بيتها برفقة غربانها التي حامت حولها من جديد ، وراحت تزحزح مع خفقات أجنحتها يقينها من أن أحمد البطم أب من في أحشائها، وتصل بيتها وقد استبدلت الأسود الذي حاصرها في ما مضى بحيرةٍ لا لون لها.

ما أن فتح عينيه حتى وجد أغنية تتدلى من سقف عليته، وعرف وهي تتردد في مسامعه بأنها وقعت عليه وأيقظته:

يا حبيبي طال غيابك ليه يا قاسي

ياحبيبي انتا فاكر ولا ناسي

كان موناي تجي وتشوفك عيوني

كان موناي ألتقيك جنبي تواسيني ..

عاد إلى أحمد البطم بعض مما فارقه قبل نومه، وبدت ليلته بالأمس غائمة ومثقلة بأغان كثيرة لفريد الأطرش، وتذكر مع ازدحام رأسه بتلك الأغاني بأنه أمضى سهرته مع الجبار.

قبل نهوضه من فراشه، أتى على الأغنية ضجيج "الزاروب"، واحتلت عليته أصوات طرقات معدنية ناعمة صعدت إليه من ورشة الجنكلي للدراجات، ممتزجة بأصوات أولاد يلعبون، وبكاء طفل رضيع، ومارة يجرجرون أقدامهم وبالكاد يرفعونها ليصير لها وقع.

سمع عبارات لم يتبين كلماتها، متبوعة بضحكات متفرقة لرجال يتبادلون أحاديث لم ينجح بمعرفة عن ماذا تدور، وليجهز على كل ذلك بائع متجول ينادي بصوت جهوري طاغ:

- بصل يا بصل.

تحول البصل إلى الموقظ الأكبر لأحمد البطم، صار صدى صوت البائع يتردّد في عليته المخنوقة بهواء قديم، من دون نجاح يذكر بتحريك ذاك الهواء الراكد رغم احتكام ندائه على قوة مجلجلة، إلى أن توقف لبضع دقائق كان أثناءها أحمد البطم ما زال في سريره الضيق وهو يفتش عن مناماته على خلفية "يا حبيبي طال غيابك" التي صدحت مجدداً في رأسه، بلا أمل بعثوره على شيء يبدّد يقينه بأنه كان نوماً خاوياً إلا من العتمة الحالكة.

عاود البائع نداءه: "بصل يا بصل"، وأصبح الصوت يبتعد رويداً رويداً عن مسامع أحمد البطم، بينما كان يتأكد من أن هدنة الصمت التي منحه إياها البائع لم تكن إلا لانشغاله بالبيع، وأن فروغه منه كان إيذاناً بخروجه من "الزاروب" إلى شارع "بورسعيد".

راح يتابع ابتعاد صراخه عنه وكله انتظار لأن يفرغ منه تماماً، ملتصقاً بسريره أكثر وكله تحفز وترقب لتضاؤله، وحين شعر بأنه صار بالكاد مسموعاً تنبه إلى أنه كان نائماً بكامل ثياب الأمس، بما في ذلك حذاؤه الذي أحس بثقله في قدميه، مبادراً إلى خلعه كأول فعل بدا خروجاً عن رقاده، ليتبعه تحت وطأة حر لا يطاق بجوربيه، ومن ثم كامل ثيابه التي كانت مبللة بعرقه.

بلمح البصر أمسى أحمد البطم عارياً تماماً، يصارع رأسه المحاط بهالة ألم كحولي لها كمّاشات لعينة تطبق على جبهته، ووجد في فتح الكوة الدائرية الممتلئة حتى التخمة بأشعة شمس مغبرة، أولى خطواته ومهامه الشاقة، وانتقل إلى طاولته ليشغل مروحة صغيرة مستقرة عليها، وأمامها ركام من أشياء شكلت حاجزاً في وجهها.

أعجبته فكرة تشغيله المروحة، والصيف لم يأت بعد، واستدعى منه الأمر فتح ممرٍ لهوائها.. تخلص من قنينتين فارغتين رمى بهما في سلة قرب المغسلة، وأبقى على قنينة براندي شرب منها جرعتين كبيرتين على أمل الخلاص من آلام الرأس المتوحشة، أبعد عن مرمى الهواء كتبه وحفنة من أوراق ضاربة للصفرة، وأخرى مليئة بخربشات وكلمات كثيرة متزاحمة لم ينجح بربطها ببعضها البعض لمرور زمن طويل عليها.

حاول تذكر لماذا كتب "نافذة" بصيغة المفرد و"نوافذ" بصيغة الجمع مرات عدة، وعبارات كثيرة صار يتعرف عليها بينما المروحة تزيد من إصرارها على طويها وإرباك قراءته لها. أقحم الأوراق داخل واحد من كتبه وراح يكدسها جميعا إلى يمين المروحة، و معها ثلاث علب سجائر "لاكي ستريك"، وولاعة "رونسون"، وعلبتا كبريت، ومقص أظافر، ناقلا إلى يسار المروحة علبة سكر، وفرشاة أسنان، وقنينة دبس رمان صغيرة، وأربعة فناجين وركوة كحلية اللون تحول العفن المستقر في ثفل القهوة الرابض فيها إلى عفن شديد البياض، ووجد نفسه يغسلها بقسوة، ويصنع القهوة.

كل ما في العلية متنافر، يوحي بأن إعصاراً مرَّ عليها فألقى بما فيها هنا وهناك، ما من قطعة أثاث تشبه الأخرى، والجدران العارية تماماً المتآكلة بالرطوبة لا توحي بهوس أحمد البطم بالصور وتجميع الملصقات، وقص أية صورة تعجبه في مجلة أوصحيفة، لممثل أو ممثلة، لإعلان أو حيوان أو منظر طبيعي، ووضعها جميعاً في صناديق من الورق المقوى، يكتشف بين الحين والآخر تلف بعضها، وهو يعد نفسه بتخطي ما يعيق قيامه بلصقها على الجدران، ونصرة شغفه على كسله الذي يمنعه من

مواصلة أي شيء، والتوقف عند مفترق طرق أبدي، بين أن يقص الصورة وبين أن يلصقها، بين أن يكمل كتاباً يكون كل هوسه، واكتشافه بعد يوم أو يومين بأنه تافه، ولا داعي لكل الدهشة التي استقبله بها في البداية، لتطفو بعد أيام عبارات من الكتاب نفسه تلاحقه ولا تفارقه، وهو يضيف عليها ويحرِّفها، تحت وطأة ذاكرة متوحشة ومحشوة بكل ما يقع عليه، وضرباتها المتكررة التي تملي عليه تغيير ما يسكنه، وهو يستعيد الآن أن "النافذة" التي تكررت في أوراقه كانت نتيجة تأمله حقيقة خلو عليته من النوافذ، وأن تلك الكوة الوحيدة أشبه بنوافذ البواخر أو السجون وراح يردد في داخله العبارة التي قادته إليها الكلمة: **هربت من النافذة إلى غرفة بلا نوافذ**.

ولد أحمد البطم تحت هكذا عبارات، وتوصل منذ سنتين تقريباً إلى إبقاء معظمها شفهياً لا يدونها ولا يعيرها أي انتباه، عدا بعض منها يصنفها لحظة نطقه بها ضمن ما سقوده إلى تغيير العالم، والتي ما أن يعود إليها حتى يجدها أسخف من اليقطين، وأقرب لطعم سيجارة بعد تناوله حز بطيخ أو خيارة.

ومع الوقت صار يحجم عن كتابة حتى العبارات التي توهمه بأنها ستغير العالم، ويخضعها لفحص دقيق وسريع يدفعه للتفريط بها وقتلها وهي مازالت على أطراف شفتيه، وشعور يقيني لا يفارقه بأنه على مشارف فكرة عظيمة لكنه يشيح بوجهه عنها، كأن ينهض من سريره فتطالعه ما أن يفتح عينيه، فيهرب منها بأن يأكل ويلتهم أي شيء يضع حداً لها، أو ترديد أصوات غريبة وعبارات مفككة تغطي على ما يعتمل في رأسه متخذاً منها تشويشاً أو حاجزاً أمام اندلاعها، وإن كان خارج وحدته فإنه يلجأ إلى أقرب شخص إليه ويبادله حديثاً تافهاً يقضي عليها.

لكنه كان دائم الشعور بأنه على تخوم تلك الفكرة العظيمة، التي يريدها أن تأتي كاملة، ودفعة واحدة، فهو يؤمن بأن هبوطها مجتزأة سيعكر ويدمر ويعذب، مثلما كان يحدث معه في السابق حين يستسلم لعبارات توهمه بأنها الفكرة الخالدة، التي ستفسر الكون والله والأديان والأحزاب والعرب والسوريين ورومانية اللاذقية واسلاميتها ومسيحيتها وسنيتها وعلويتها وأرمنيتها وتركمانيتها، وتبشر بمنعطف تاريخي لجميع هؤلاء لن تكون اللاذقية إلا منطلقه بما يعم الكون كله، كأن يخرج بشيء مثل "في البدء كانت الكيمياء، والكيمياء متوسطية بالمطلق" وليمضي أياماً وهو يؤكد أنهم وحدهم من يعيشون على شواطئ البحر المتوسط بمقدورهم فهم التفاعلات التي تؤدي في النهاية إلى صيغة ما، ليدخل ملكوت التفكير بتلك الصيغة التي ستنتجها مدينة تمتلك القدرة على الضحك أولاً رغم الشقاء والفقر، وحين لا يعثر عليها تطرأ عليه عبارة جديدة مفادها " الحلم بالطيران كفيل بتبديد البؤس" تهبط عليه بينما يصادف رجلاً على وجهه ملامح شقاء فاضح وسرب حمام يحوم في السماء.

أفكار أحمد البطم كثيرة ومتدافعة تنتقل من جبهة إلى أخرى، وهو لا يمتلك جبهة لكنه في ساحة معركة تتوسط نيران جبهات كثيرة، مع فتح جبهات أخرى غير معدودة مع نفسه المتوقدة وأعضائه التي كانت مهادنة في ما مضى، ليخلص إلى أن ما ندركه لا حاجة له لأعضاء، والعيون ليست لنرى بها فقط، بل يمكن أن نقبِّل بها بدل الشفاه، وضرورة استبدال اللحم والعظم بالعاج، وإيقاف النفايات التي نلفظها بالتوقف عن الأكل، أو الاحتفاء بها والتخلص تماماً من مفهوم القذارة

الذي سرعان ما توضع أمامه الطهارة وفي اقتسام مؤلم للجسد إلى جزأين: علوي وسفلي، وتقديس الأول وتحقير الثاني، والمصافحة باليد والإهانة بالقدم، والأعضاء التناسلية التي يطالها السواد، ومن ثم التخلص تماماً من الأسود والأبيض، بعقد مصالحة بشرية مع الروث والخراء، وقلب مفاهيم الروائح، وتحديث العطور بإدخال روائح كريهة عليها، والتي سرعان ما ستصير مصدراً للاحتفاء والتعطر، وارتفاع أسعارها وفقاً لنتانتها، وعليه تمسي المرأة على صراع مع جمالها، ولا تبقى "انتصاراً للمادة على العقل" ولا الرجل يبقى "انتصار العقل على الضمير" كما يقول أوسكار وايلد في " صورة دوريان غراي"، ويتخلص الأسود من كونه مصدر الشرور لأن البشرية ستقبل بقلب مفاهيمها اللعينة، وسيبدو الأبيض أحياناً تلطيخاً ناصعاً للأسود، كون الليل حالكاً وكل اللذات كامنة هناك، وأي بياض يطرأ عليها سيحول اللذات إلى أشياء روتينية في وضح النهار، هذا ويجب على الإنسانية الانتصار على العمل وتحديدا العضلي، وتقليل النسل، لا بل إيقافه إن أمكن والدفع به في خطط كونية محسوبة بعناية فائقة، والتعامل مع هذه الأشياء كأولويات أشد فتكاً من الطاعون، ثم يستدرك فكرته عن النسل، ويخرج بأن في ذلك قتلاً للجنس وهو دافع للحياة، وأن البشرية لم تجرب يوماً الجنس بعيداً عن النسل، ثم ينفض عنه ذلك ويتركه معلقاً، وينشغل بالوصول إلى نقطة ثابتة، نقطة اللاعودة، كونها ستمحي كل ما قبلها، وتكون حاملاً للفكرة العظيمة التي يتفق عليها البشر بوصفها الناظم لدفع كل شيء إلى الأمام، نحو مزيد من الاكتشافات التي لا تخل بالشروط الناتجة عن تلك الفكرة التي يعيش مخاضها.

ومع هلع أحمد البطم من تلك الفكرة العظيمة، يمسي هوسه ماثلا بتهيئة الأجواء التي تؤدي إلى نجاحها كشاغل له في ظل غيابها مع إيمانه بحتميتها وقربه منها ودورانه حول تعريفات لمفاهيم كثيرة مثل الجبن، ومدى شجاعته الروحية لتلقي الفكرة حين تهبط عليه، وهل يعوّل على الضمير كون "الجبن والضمير اسمان لمدلول واحد" مستعيداً "دوريان غراي" مجدداً، الرواية التي قلبت حياته رأساً على عقب في عمر مبكر، وهل ستقوده لحظة مجيئها إلى تصفية الأخلاق، متسائلاً لمرات عدة: هل ما أفكر به أخلاقي؟ ينفي ذلك، ومن ثم يفكر بالملكية كما شرحها له الأستاذ الياس سلامة، صديقه ومقلق كل أفكاره، ويستعيد ازدحامه بأفكار كثيرة يرميها في وجهه، فيبدو ما يجول في رأسه تافهاً، لا معنى له، وينقصه كل شيء، من دون أن يقبل توصيف الأستاذ الياس لها بالشعرية، فهو لا يكتب شعراً بل فكراً يزلزل البشرية.

عندما يتعرض أحمد البطم للخذلان والإحباط، وكل مبددات قدوم فكرته الواثق من مجيئها، يبدو له "العالم مجرد خدعة" متخلياً عن إكمال اقتباسه لشوبنهور بـ "والحقيقة الوحيدة هي الإرادة"، وليمضي أيامه مع حشد آخر من الحقائق التي تقول له جميعاً إن ما ينتظره حقيقة ساطعة مهما تضاربت واختلفت حولها الأفكار والهواجس، وليخلص إلى أن كل ما في الكون من أفكار حقيقي، لكن النقص كامن في صياغتها جميعاً، وتخليصها من تأويلاتها وكوارثها عبر تكثيفها في جملة واحدة يتحلق حولها كل شيء غير "أحبوا أعداءكم" أو "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة"، ولا حتى "العدالة الاجتماعية" التي يعتبرها الأستاذ إلياس المطمح الأسمى، مؤكداً له على الدوام أن العدالة شيء والمساواة شيء آخر، العدالة تعني تكافؤ الفرص، والمساواة تعني قتلها.

محرك الأفكار الذي يسكن رأس أحمد البطم لا يتوقف أبداً، يتبع تماماً مبدأ الاحتراق الذي نشأت عليه المحركات، واصفاً له بمثلث نار يتساوى فيه الوقود مع المعرفة، ويغدو التأمل الأوكسجين، بينما تكمن الحرارة في الأفكار التي ينتجها، ومجموع ذلك محرك ضخم بأحصنة مندفعة وجامحة، وسعة كبيرة، لا يهادن في صيانته أيضاً، بالاستسلام لكسل مطبق، تحديداً حين يشعر أن عقله يعمل بوقود معقم خفيف لا يصلح لإحداث قفزات خارقة، وهو كئيب وشاحب من كثرة تطلعه إلى آفاق لا تحد ولا يكف عن لمسها من دون أن يمسكها، وعليه يكون النوم لأيام متواصلة ملاذاً بديعاً، واتباع عادات غريبة كالصيام عن الأكل لأيام متواصلة كتجربة مغايرة للأفكار المتصارعة، أو الاكتفاء بأكل الفاكهة فقط حسب الموسم، التفاح والبرتقال و"التين الفرنجي" شتاءً، والصبار والتين والعنّاب والزعرور والكرز والأكدينيا وكل أنواع اللوزيات التي تحاصر اللاذقية، معتبراً أن الطعوم صيفاً أكثر تطرفاً، وله أن يتحدث طويلاً عن الحامض المتوحش في "الجانرلك" ووصفه بالنسخة النيئة من الخوخ، وانتصار المتهور على الناضج، والحامض القاسي على الحلاوة الهجينة، ماضياً إلى العنّاب الذي يجده سحرياً بحلاوته المغايرة لتلك المتعارف عليها وصلابته المتفوقة على التمر، واستغرابه من كونه مبعداً عن الثمار المباركة، لكن يبقى الزعرور واقعياً أكثر واختلاطا مباركاً للمرارة بالحموضة بالحلاوة كما لو أنه الحياة نفسها.

إبعاد شبح الإنهاك عن محركه يتمثل أيضاً بنقل مثلث النار إلى مستوى آخر، بحيث يمسي الوقود الحياة نفسها والمتاح فيها من متع، والأوكسجين كسراً للعزلة وتنفس البحر والبر والجو والبشر، الأمر الذي

يقوده إلى حرارة ما، وأفكار من نوع آخر، لها أن تكون يومية، خالية من أي تجريد، من لحم ودم، واحتفالية بالحياة، ومليئة في الوقت نفسه بالانفتاح على اهتمامات غريبة، والاستعانة بمجهره الضوئي الذي اشتراه من بحار روسي، ورسم لوحات تحمل الأشكال التي تظهر على عدساته، قطرة دم، ذبابة مقسومة نصفين، بعوضة، جرادة، وأحيانا مزجه أشلاء حشرات متعددة ورسم الخليط الذي تخرج به، وأحياناً بصاق ممزوج باليود وملح الليمون والسماق والبهار ونتف من الشوندر والقرنبيط، حتى أنه أمسى يرسم مكونات الألوان نفسها والمواد الطبيعية التي اشتقت بداية منها، في ما اعتبره حينها تجربة تشكيلية استثنائية.

تلك اللوحات سرعان ما يطالها الإهمال والتلف حين تفقد بريقها في عينيه، مثلما هو الحال مع الطوابع التي كان يحتكم على الآلاف منها، وعملات نادرة صارت مهملة تماماً في علب القصدير، وصور كان يظهِّرها بنفسه بعد أن يلتقطها بكاميرا "زنت" صارت عينه التي يرى فيها كل شيء لخمسة أشهر، منغمساً في عملية أسماها المسح الفوتوغرافي للاذقية، من البحر إلى البحر، من الحرش إلى الكورنيش، مع إيلاء مبولة حارة "القلعة" اهتماماً خاصاً بتصويره لكل أرجائها، وخاصة جدرانها التي بدت في مراحل متعددة لوحات بخلفية بيضاء تراكمت عليها طبقات من الأوساخ بالأسود والبني المتداخل مع أخضر الطحالب، ومخلفات كل ما مر بها، كنوع من التحية للفرنسيين، معتبرا المبولة أهم منجز للاحتلال، كون الحكومات السورية المتعاقبة كانت بنظره عاجزة عن إنجاز حمام عمومي.

وحين رأى كفاً حمراء مطبوعة هنا وهناك على جدرانها تخيل أنها

آثار ذاك الجندي الفرنسي الذي قتل بضربة رفش على وجهه وراح يتخبط بدماء غمرت وجهه وحجبت الرؤية عنه إلى أن وصل المبولة ومات فيها. التقط عشرات الصور لتلك الأكف التي كان يسهل العثور عليها في كل مكان في اللاذقية، وفي أحيان كثيرة كان يجد عبارة "عصابة الكف الأحمر" مكتوبة تحتها، وحين ظهَّر صورها بدت أعجوبة حقيقية، تعامل معها كأسطورة تختصر لاذقية العشرينيات وصولا إلى الأربعينيات، وبدا له أن استعمال عبارة "اللاذقية تحت قبضة الاحتلال" كعنوان لها خطأ فادح، وأن من الأصح القول "اللاذقية تحت كف الاحتلال"، لأن الكف إن كانت ممدودة وصفعت فإنها أشد مهانة من القبضة، والصفعة أشد ألماً وذلاً من اللكمة.

الصور لاقت مصير اللوحات نفسه، وأصبحت الكاميرا مهملة مثل المولدات التي يفتح أحشاءها، ومحركات يشتريها من أغوب "المكنسيان" ليفككها ويتعرف على اسطوانتها وآليات عملها كما لو أنه يشرِّح دماغه، عائداً إلى نظرية المحاكاة لدى أفلاطون، وأن الفن محاكاة المحاكاة، بينما الصناعة محاكاة ما خلق عليه الإنسان مثلما هي السيارة التي تشبه الإنسان تماماً، مع اصرار تام أن المحرك هو الدماغ وليس القلب، وأن البنزين هو الطعام الذي يلفظ كنفاية ويتبخر، بينما تتحلل فضلات الإنسان، ومتى تعطل المحرك فإنه يموت، بينما مبدل السرعات صالح لأن يكون مماثلاً للمراحل العمرية، إقلاع، فسرعة، والسرعات في تزايد برفقة مبدل السرعات أو الأعمار، وصولاً إلى خط ثابت، طريق نمضي بها مباشرة إلى الحتف، السيارة تصير خردة ونحن رميماً.

الهوس ما يحاصر أحمد البطم، الهوس ما يدعه يتلفّت ويتأفّف قبل

أن يفرغ من وضع عينيه في عيني أي من مسببات هذا الهوس، والذي يلفظه إلى آخر، سرعان ما ينفد وليس هناك ما يستدعي حتى نعيه، وفي كل يوم ثمة ما يدفع إلى يوم آخر على هدي نظرياته واكتشافاته اليومية، تماماً في منطقة اشتباك معارفه الكثيرة مع حواسه المتحفزة، إنه المحرك مجدداً سرعان ما يقلع به إلى مساحات عذراء وأخرى يطأها ولا يترك آثار أقدام على أديمها.

حين استيقظ اليوم كان تحت وطأة أغنية أعادته إلى صديقه الجبار، وقد عجز تماماً عن تذكر ما كان اسم الجبار الحقيقي الذي سمعه آخر مرة منذ سنوات بعيدة، وبقي مؤرقاً وهو عارٍ تماماً وممدد مجدداً على سريره يتذكره، تطفو سلمى من مساماته بجسدها المروِّع، وكل مسام من مساماته يتوق إليها، مرددا للمرة الألف عبارته الأثيرة منذ وقع عليها **حين جاءت سلمى أخفق الهواء.**

ارتدى ثيابه ونزل درجات عليته السبع بهلع، ومضى مباشرة إلى صندوق الكهرباء في آخر "الزاروب" من دون أن يسمع أحمد الجنكلي وهو يقول له "صباح الخير" في الساعة الواحدة وأربع وأربعين دقيقة ظهراً، وعاد إلى العلية وفي ناظريه ملصق برتقالي رابع ألصقته سلمى على الصندوق، ألهاه عن سماع أحمد الجنكلي ثانية وهو يستكمل حديثه قائلاً "إن شا الله ما كون زعجتك بالشاكوش"، وكل ما يشغله هذا اللون البرتقالي الذي صار يمقته، وهو يعنون يوماً رابعاً لا وجود لسلمى فيه.

أخفق الهواء مع غيابها أيضاً وصار مجهولاً آخر أجهد لتنفسه

لا تريد..لا تستطيع.. بعيدة..سافرت..في بيتها..أحبت رجلاً آخر.. صارت تكرهني.. انهكتها.. تقول لي أنا أيضاً أغيب ولست أنت

فقط من يهجرني لعشرة أيام من دون أن أسمع كلمة واحدة منك.. مثلي مثلك أنا أيضاً لي عالم آخر.. اللعنة ومزيد من اللعنات والشتائم وتلك البذاءة التي أطلبها الآن لأشتم سلمى من كثرة الحب والصخب الطالع من دمائي المتوهجة بها والورود المنزلية وتلك التي في الحقول والحدائق وهجران ما صرته لأصير شيئاً آخر مع عجزي تماماً عن ذلك

الساعات قريبة كلها تدور حول الملصق المؤلم.. برتقالي يكاد يعتصرني وأنا أصرخ لست برتقالة ولو عصرت لخرجت كل دمائي المتخثرة لأصبحت عاجزا عن الخجل لأن الأحمر سيصير مما أجهله وستكون الطاعة عمياء لأول بهوت ولصفرة تحيطني بالمحتم بالذي يتوق لأن يتحقق.. لمَ فعلت ذلك يا سلمى؟ هل لأني وحيد؟ وشامخ كعمود ومأخوذ بالأعالي من كثرة ما تمرغت بالأرض وتفاهتها.. أنت أختي وأمي وحبيبتي وزوجتي وثيابي التي أرتدي ومعطفي الطويل ومحصول السنة الوافر وذلك القحط الذي سرعان ما يغافله الأخضر ومن ثم القمح الذي يستحيل خبزاً نتقاسمه يا سلمى المعجونة بالقطارات يا سلمى التي أردد اسمك وأتأمله يستجمع أحرفه المتناثرة ويلتصق بجلدي ولحمي وعظامي تلهج بك.

لن أنجح بالتنفس كما كنت قبل أن أعرفك سيكون ظلك طويلاً علي.. سأقصه سأشذبه لن أطرق بابك اليوم سأستجيب لملصقك..لكن كل دفاعاتي قد سقطت صرت مدمنا عليك كل محاولاتي التقنين من جرعات غرامك ذهبت هباء صرتِ وسواساً وذاك الذي يحز روحي.

يعود أحمد إلى قهوته، يشعل أول سيجارة في يومه، تعود آلام الرأس مجدداً، يمضي إلى سيجارة ثانية فيتصاعد الألم أكثر، يسعى

للتشاغل عنه باستعادة سهرته العجيبة مع الجبار، يتذكر اسمه الأصلي، وسرعان ما يتجاهله كما لو أنه لم يفعل، ليصحو معه فريد الأطرش من جديد، الأطرش والجبار، تتردد الأغاني مجدداً في رأسه، تعود صورة الجبار وهو يغني بخشوع وولع "يا حبيبي طال غيابك" وتتردد في داخله "أنساك وافتكرك" ويردد بصوت عال "ما شفت غيرك يشبه بهاك" كما لو أنها كل الأغنية التي لا يتذكر منها إلا هذه العبارة، يطرب لها وتستيقظ معها مشاعر يجهلها تماماً، هو المنغمس في كل شيء إلا الموسيقى.

كانت ليلته مع الجبار إنصاتاً للأغاني التي يسمعه إياها في كل مرة يزوره في خربته مقابل بوابة المرفأ، لكن بإحساس آخر لم يعهده من قبل، وانسياق تام لاحتشاده بحزن شفيف يدفعه للطيران، أو الإقدام على أفعال سعيدة، حزن عذب يمكن الاتكاء عليه والاحتفاء بحضوره، وبمذاق قادم من صوب سلمى، و"عذاب يا دنيا عذاب" و"لا قدرت أنسى حنيني إليه وفرحت أيديا بلمسة ايديه، وفي القرب إليه عذاب، وفي البعد عنو عذاب".

يستعيد الأغاني بصوت الجبار، وصوت فريد الأطرش من الأسطوانات التي كان يرفقها بالأغنية نفسها بعد فروغه منها، وليسمعها أحمد البطم مرتين، وتعود إليه خشخشات "الفونغراف" واحتكاكات الأسطوانة، والنسمات البحرية الباردة التي كانت مثل الحزن الهابط عليه شفافة وعلى تناغم مبهج مع العرق ومدفأة الحطب، ودخول الجبار في ملكوت آخر مع كل أغنية، سعيداً باستقبال أحمد البطم لها بشكل لم يعهده من قبل، ورؤيته له مغمضاً عينيه، هائماً مع الأغنية، تصدر عنه آهات يسمعها للمرة الأولى.

راحت تتصاعد الأغاني ولا راد للجبار لأن يبقى للصباح يغني للأطرش ويبكي من وطأة أغانيه عليه، ويستعيد موته الذي لم يتحرر منه وقد مضى عليه أكثر من سنتين، ويتحدث عن قلبه الرقيق الذي لم يحتمل القسطرة، "قلب بس فينو يحب" قال له للمرة التي لا يعرف كم.

تذكر أحمد البطم كيف دهن الجبار بقرته بالأسود يوم وفاة فريد الأطرش في الرابع والعشرين من كانون الأول ١٩٧٤، وكيف رآه يتهادى على دراجته أمام كنيسة اللاتين يغني واحدة من أغانية وقد تبلل تماماً بالدموع، وعلى وجهه وثيابه لطخات سوداء متفرقة، حينها قفز إليه ملقياً بدراجته، وراح يضمه ويجهش بالبكاء.

كان يوماً عصيباً أمضاه معه وكله يقين بأنه سيلحق به إلى القبر لا محالة، وأن بلوغ الجبار يوم الخامس والعشرين من كانون الأول كان أعجوبة أو عناية إلهية، كونه لم يفعل إلا ما يؤكد جنونه بفريد الأطرش، أخرج صوره وراح يرميها في الغرفة، وأبقى في يده طيلة اليوم واحدة وقّع له عليها حين زاره في القاهرة، ليختلط حزنه على فريد بكل حياته التي راحت تتراقص أمام عينيه، وشعور مؤلم بالوحشة يطغى عليه، متحسساً إصبعي قدمه اليمنى المفقودتين، وقد فقد معهما كل ما يوازن مضيه في هذه الحياة التي تبدلت في ناظريه تماماً بعد حرب تشرين.

تحول موت فريد الأطرش حينها إلى مناسبة ليروي له الجبار تفاصيل ما حدث له أثناء الحرب، وكيف وضع في عربة الموتى إثر إصابته بشظايا متعددة في ساقه وقدمه اليمنيين.

عثروا عليه وحسبوه ميتاً، استعاد وعيه وهو محاط بالقتلى والجثث من كل جانب، أشلاء ودماء وقطع لحم نزفت كل دمائها، عيون معلقة

بالبعيد، وجوه مشوهة وأخرى مغيبة ملامحها من تمازج الدم بالغبار والتراب ولطخ السواد، ورائحة يختلط فيها كل شيء، كل ما على الإنسان أن يلفظه قبل موته بقليل، بعده بقليل، ما يتخثر ويخرج ويبقى ويتوقف، برفقة آلامه التي استيقظت تحت تخبط شاحنة "التاترا" المرمي بها، وصوت محركها الصاخب وهي تمضي مسرعة به والموتى، مع صوت انفجارات ليست ببعيدة.

يومها لم يجد الجبار نفسه إلا قافزا من السيارة، ملقياً بكل ثقله على قدمه اليسرى، والتي صدر عنها بمجرد ملامستها الأرض ألم من نوع آخر، أضيف إلى اليمنى، وهو لا يفكر إلا بالنهوض والركض بعيداً عن الشاحنة، بعيداً عن الموت والحرب والألم، مستجمعاً نفسه من دون جدوى، عاجزاً عن النهوض وهو يستمع لصرير عجلات الشاحنة وزئير محركها المتوحش يبتعد عنه وهو ممدد على الأرض، إلى أن توقفت أو توهم كذلك وقد ملأت عينيه غشاوة غيبت كل شيء. كان ذلك آخر ما تذكره بعد أن استيقظ في المستوصف العسكري في "القطيفة"، وقدمه اليمنى مضمدة وقد بتر منها الإصبعان الصغيران، بينما كانت ساقه اليسرى مجبرة من القدم إلى ما تحت الركبة ومعلقة بحامل رفعها للأعلى.

استعاد أحمد البطم سير ذاكرته وتسلسلها، بحثاً عن كيفية وصوله إلى تذكر ما رواه له الجبار، ووجد في غياب سلمى عنه أول شرارة لها، حيث جعلته يتنقل بين الأغاني وعذوبتها التي صار يتذوقها كعاشق، ليضيف إلى ذلك تغيرات كثيرة طرأت عليه وهو يغرق بجسد سلمى ويقطف ثمارها المتوهجة، أولها كان تخليه عن انتظار فكرته العظيمة

والتفرغ التام لتلقيها، وتركها معلّقة حتى إشعار آخر لا يبذل أي مجهود في استصداره.

على هدي تناوب سلمى والجبار على رأسه، استعاد أحمد البطم منهاجاً فكرياً اعتنقه منذ ما يقرب الأربع سنوات، ووجده ماثلا أمامه بتفاصيله الكثيرة، والتشعبات والتقلّبات التي عصفت به أثناء تتبعه بجنون لم يفض إلى إنجازه، بل إلى إيقافه بلا رحمة أو تردد بعد سنة من اتباعه والعمل عليه، وبآلية بسيطة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمزاجه، إذ إنه استيقظ في صباح يوم ماطر بقرار حاسم بإيقافه، تماما مثلما يسترجعه الآن، واجداً من دون أي مقدمات أن مواصلته أفضل ما يمكن القيام به في ظل غياب سلمى، الأمر الذي لم يتردد أمامه، فسرعان ما نهض من كرسيه بهلع، وراح يبحث عن ملف ضخم يحتوي كل المعلومات التي جمعها.

أمضى أحمد البطم نصف ساعة وهو يبحث عن الملف، وتسرب إليه بأنه ملف حياته الجديدة، وسبب كل ما صار إليه، مقسماً حياته إلى ما قبل الملف وما بعده، ما قبل المنهاج وما بعده، كيف كان منغلقاً ومنطوياً على نفسه، وكيف انفتح بجنون على البشر، على نوع خاص منهم صاروا من دون أن يتوقع كل حياته. تأكد مع تضاؤل عثوره على المصنف من أنه موجود في بيته، ليجد في هذه الحقيقة ما يدفعه للخروج مباشرة من عليته مخلفاً وراءه فوضى أعتى من التي كانت.

كانت الساعة قد تخطت الرابعة، والشوارع شبه خالية من المارة وقد دخلت اللاذقية ملكوت قيلولتها المقدسة، ومع اقترابه من مبنى إدارة المرفأ مواصلاً سيره باتجاه كنيسة "اللاتين" التفت إلى يساره وتفقد الميناء

وقال لنفسه: الميناء أجمل من البحر، وانعطف بعد تجاوزه الكنيسة بأمتار قليلة يميناً باتجاه بيته الذي صارت تفصله عنه بضعة أمتار، وهو يسترسل برأيه المناصر للميناء الضروري لضبط البحر، وكله إيمان أن البحر كريه وعار بوقاحة مالم يروِّضه الميناء، ما لم تمخره البواخر وتتدلى فوقه الرافعات.

صعد درجات بيته ذي الطراز الفرنسي، أو "البيت المسيحي" كما يسميه، وفتح الباب بعجل، ومضى مباشرة في بحثه عن المصنف. بدت غرف البيت الأربع مرتبة بأناقة امرأة لا محالة، ومتسقة على نحو حميم وأخاذ. كانت أصص النباتات يانعة وموزعة بدقة في الصالون، كل شيء في مكانه نظيف وخال من ذرة غبار واحدة، الكتب منسقة بعناية في أرفف المكتبة التي يتوسطها تلفاز أبيض وأسود، وعلى الطاولة الواقعة إلى يمين الباب آلة كاتبة ماركة "أولفيتي"، وإلى يمينها أوراق موضوعة في عناية وفوقها كتابان، إلى يسارها علبة حمراء أسطوانية الشكل احتوت على أربعة أقلام رصاص وقلمي حبر ماركة "تروبن"، وإلى جانب العلبة مصباح كهربائي أحمر اللون مماثل لأحمر الكنبات والأرائك الخامد من جراء عتمة الغرفة وبرودتها، حيث كانت الأباجورات موصدة ومعها النوافذ التي كانت مماثلة لها بكونها مؤلفة من درفتين.

لم يكن تحريك أي شيء من مكانه إلا إخلالاً برهافة كل ما في البيت، ومع فتح أحمد البطم الخزائن أسفل المكتبة، وإخراجه ما في داخلها، بدا البيت كما لو أنه أصيب بجرح بالغ، ومع بعثرته لمحتوياتها هنا وهناك أمسى الأمر أشد إساءة.

سريعاً عثر أحمد على ملفّه، وبدا كل ما حوله من أثاث مرتاحاً

لتوقفه عن إلحاق المزيد من الفوضى، الاحساس الذي عم المطبخ والحمام وجميع الغرف وانتقل إلى أحمد نفسه الذي أعاد كل محتويات الخزانة إلى مكانها، وراح يتصفح الأوراق الكثيرة التي احتواها ملفّه وهو جالس على الأرض ومستند إلى أقرب كنبة من المكتبة.

أول عبارة خرجت من بين الأوراق كانت "نسف الهواء لتنفس جديد" متبوعةً باعتبار الهواء المساوي الأكبر بين البشر مع نفيه أن يكون التراب حاملاً لتلك الصفة، وظل يتعقب ما كان يفكر به بخصوص عناصر التنفس، إلى أن انتقل بانعطافة عجيبة حملتها الأوراق إلى شخصيات اللاذقية الأثيرة، واحساس لا يفارقه بأن ما يقرأه ليس له، وراح يقلب الأوراق وينتقل من شيء إلى آخر من دون أن يستكمله تماماً. وقع على أسماء وأمكنة وتواريخ كثيرة، ومعلومات وجمل لا رابط بينها، ومقاطع طويلة وأخرى مجتزأة من أحاديث سمعها وعبارات التقطها من هنا وهناك مع مزجها بمقتطفات من كتب أو روايات قد تكون غالباً من دون أي رابط مع ما سبقها أو ما جاء بعدها.

استعاد كثيرا مما صنعه على مدار سنة كاملة، وقرأ عبارات مكتوبة بقلم رصاص مثل "المصالحة مع الذات هي الطريق للتقدم الفعلي"، و"كل المقولات الفلسفية ذات أصل شعبي"، و"جرد الواقع"، وعرف من ذاكرته التي لا تخطئ إن تعلق الأمر بأية أفكار لغيره، بأنها للاستاذ إلياس سلامة مشجعه الأكبر حين أخبره عزمه على تجميع الأحاديث العابرة والبناء عليها بما يبقيها بعيدة عن مصيرها المبدد في الهواء، وما اسماه أحمد البطم حينها بـ "خلود العابر" ، ونقل الشفهي إلى الكتابي، والتأسيس لفلسفة البساطة، وتوفير ما له أن يكون ركائز لفهم الماضي والحاضر وربما المستقبل.

تلك كانت بداية منهج أحمد البطم في نبش الواقع اللاذقاني، والذي خاض من خلاله نقاشات لا تنتهي مع الأستاذ إلياس، وكانا في حينها يلتقيان ثلاثة أيام في الأسبوع وفي موعد حدده له الأستاذ في الساعة السابعة مساء، من دون أن تدخل عليه هذه اللقاءات إلا مزيداً من المكتسبات التي كانت تأخذه إلى المزيد من المناطق المجهولة، والإضافات المربكة لما اعتبره حينها بذرة فكرية صلبة.

امتدت مداولات أحمد البطم مع الأستاذ إلياس شهرين، صاغها الأستاذ بحنكة ودراية من دون أن ينقصها إيمانه بأحمد وأن بمقدوره أن يفعل شيئاً إن تحلى بالصبر والمواظبة ولم يستسلم لغوايات أفكار يرتجلها على الدوام، لا بل كان الاستاذ إلياس يضع نصب عينيه أن يفضي ما يود أحمد البطم تحقيقه إلى نتيجة أو ينتهي منه على الأقل، كونه يعرف بأن أول دوافعه هو قتل الملل، وتلوين الحياة، وأن أي فكرة أو هواية أخرى ستطرأ عليه ستكون كفيلة بعدوله عن منهجه.

بناء على معرفة الأستاذ العميقة بأحمد التي لا يعوزها الحب، اتبع معه في البداية سياسة تحطيم الأوهام وقتل الغرور الذي كان يشعر به وهو يعرض عليه تغيرات منهجه بوصفها أشياء لم تقع عليها البشرية من قبل، وليسمي كل ما يتقاسمه معه بمسمياته الفلسفية، مع استحضار أسماء منظّرين وفلاسفة جدد لا يعرف عنهم أحمد البطم أي شيء.

كان الأستاذ يعرف جيداً أن ما يسمعه من أحمد البطم وليد تفكيره الخاص وقدرته على تطوير معارفه ذاتياً، فما يقرأه لا يتلقاه بحرفية أبداً، بل يمضي به إلى ما يتخطاه، أو يربطه بفكرة أخرى، ليخرج

بشيء يعتبره خاصاً به، وليكون هذا بالتحديد ما يشكل مصدر إعجاب الأستاذ الكبير بأحمد البطم، واعتباره دائماً على موهبة استثنائية، وذاكرة تتفوق على ذاكرة الأستاذ نفسها المعروفة بسعتها العجيبة، إذ كان يطالعه بمقاطع كاملة من كتبه أو مما ترجمه عن الفرنسية للينين وجورج لوكاش وأرنست بلوخ، ويصرخ به بأن ما يقوله له غير الذي سمعه منه منذ سنتين أو أكثر.

رغم كل المداولات الشائكة حينها لم يخلص الأستاذ إلى شيء محدد ينوي أحمد البطم فعله، لكنها كانت نبشاً مدهشاً بالنسبة إليه للأفكار، قائلاً له في مرات عدة بأنه حقيقة "محرك أفكار" وأنه يمتلك نظرة طائر حر، ليجد في وصفه هذا أكثر الحقائق سطوعاً بانتظار ما سيفعله.

أكد أحمد البطم انتسابه للطيور، استخدم جناحيه وراح يحلّق في اللاذقية، ووقتها فقط شغل العلية التي كانت مهجورة قبل تاريخ السابع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٧٢، وبدا الترحيب به سمة كل ما اعتبره اقتراباً من الطبقات الكادحة وقد امتلأ رأسه بأفكار ماركسية هبّت عليه من جهة الأستاذ.

كانت خطته تقتضي التعرف على حياة الناس العاديين أولاً، ومعاينة الحياة الحقيقية، لا حياته المعقمة والمرفهة التي لا تتجاوز معارفها الكتب، ولعل المساعد الأكبر له في ذلك كان الجبار الذي وجد له العلية التي استخدمها أحمد البطم كغرفة عمليات لتطبيق منهجه الذي ازداد غموضاً، وما عاد يعرف ما هو، وقد استبدله بالفرح بكل ما يقع عليه.

تعرّف أحمد البطم على مجموعة عجيبة من أصدقاء الجبار، أولهم كان أبو مينة الذي رآه لأول مرة بثياب عسكرية خاكية وقد ملأت صدره النياشين والأوسمة، وفي مرة أخرى كان يرتدي بزة بيضاء كونه أصبح جنرالاً في البحرية، وغيرها من أزياء كان يبدّلها كل يوم أو أسبوع أو شهر، الأمر الذي يطال هيئته، كأن يحلق شواربه مثل هتلر، أو يمرر الموسى على رأسه فيصبح موسوليني، وليتعامل مع كل من حوله كما لو أنه بحق هتلر أو موسوليني أو ضابط كبير لا تفارق يده العصا أو "البستون"، يتكلم بأنفة وغالباً بالفصحى التي تشبه الدبلجة العربية للأفلام السوفياتية عن الحرب العالمية الثانية.

أبو مينة أحضر معه أنبوزة الذي لم يعرفه إلا كحولياً، أنبوزة الذي كفر أثناء طوافه حول الكعبة من وطأة الحر والازدحام، صارخاً "يلعن دينكن حاجة تدفيش"، القصة التي ما أن يُذكر اسمه حتى تحضر لدى جميع أهل اللاذقية، كما هو الحال مع ابراهيم بيبو الملقب بالعنّان لأنه فجّر ضريح العنّان في "الشيخ ضاهر" الذي كان يصدر عنه أنين ليلي، منتقماً بذلك لأمه التي قالت له بأنها إذا ماتت فدمها في رقبة العنّان وهو لا يدعها تذوق طعم النوم، فجّره غير مبال بكل كراماته، لا بل كان يغنّي أثناء وضعه الديناميت نشيد شفاعته "يا عنّان يا منّان تشفي عبيدك العميان".

كانت حادثة واحدة تلخص حياة كل واحد منهم، كما لو أن شيئاً آخر لم يحدث، والحياة رهن بتلك الحادثة التي توقف عندها الزمن، مقطع صغير عنها يكفي ليدون أحمد البطم تلك الشخصيات، وأحياناً يجد في الهوس معبراً موثوقاً إليها، كما هو الحال مع فؤاد الحلاق الذي

ولد على رقعة شطرنج لا يتحرك إلا على مربعاتها البيضاء والسوداء، ولا يفلت زبوناً إلا ويدعوه للعب الشطرنج، ومستعد لتوسل كل من يقصد محله وترك كل شيء كرمى لعيون البيادق والملك والوزير، يحل مسائل مجلة "العربي"، ولا يقرأ إلا عنه، وقد تجد عنده كتباً بالروسية والفرنسية والإسبانية والإنكليزية عن الشطرنج وهو لا يعرف حرفاً واحداً من تلك اللغات.

تطورت تصنيفات أحمد البطم وصارت تشمل الخصائص، فأبو بدر أكبر تنبل في العالم، محله آخر "الزاروب" يتضمن ثلاثة أشياء لا تجعله يضطر للحركة: "فيشة" يضع من سيلعب بها ليرة فتخرج له الطابات، وبذر عباد شمس و"الكازوز" وهم في متناول يده، يمضي كامل يومه على كرسيه وهو يراقب كل ما حوله، يعرف أخبار كل عائلة أو فرد بالتفصيل، وإن عجز عن ذلك فسرعان ما يخترع قصصاً من خياله، وهو مستعد أن يخبرك بلون "كلسون" أية امرأة تمر من أمامه، وإن كانت الفتاة عذراء أم لا من طريقة مشيها، وتفقد غسيل كل بيت للخلوص باستنتاجات قد تفيده يوماً، مناصباً الجميع العداء لكن في الخفاء، مطلقاً تسمية على كل جار من جيرانه: "الطش والفش وأبو خرية"، "الطش" هو أبو خليل الدكنجي لأنه لا يحل ولا يربط، مواظب على مجلة "طبيبك" ويقرأ كل عدد كما لو أنه لا ينتهي إلا بعدد جديد، و"الفش" أبو نعيم الكهربجي لأنه مثل الخشب لا يتأثر بصعقات الكهرباء وأسلاك التوتر العالي، ويشرب دائماً براندي "أشقر" في فنجان القهوة، وأبو خرية هو أحمد الجنكلي اللقب الذي يعتبره أبو بدر اجتهاداً خاصاً كونه يجد في "المرقوع" دقة أكبر لأنه يرقع إطارات الدراجات،

لكن "أبو خرية" بالنسبة إليه أحلى ويليق أكثر بالجنكلي الذي يهاب حضوره.

وتحت تفسيرات أبو بدر العجيبة للألقاب، أصبح أحمد البطم يتعقبها كونها مفتاحاً جديداً لتصنيفاته، ليكتب أن "شنّيكو" بائع الفلافل الشهير في الصليبة لقبه كذلك لأن شعره واقف دائماً "من حماوة زيت القلي" يُجمع أهل الصليبة، ويفسر له كثيرون لقب "أبو مخطة" الذي يحمله جمعة السريعي موظف جمعية دفن الموتى بأنه على علاقة بقدرته العجيبة على البكاء كلما دفن جثة، وسيلان مخاطه بغزارة مماثلة لدموعه.

تعرف أحمد البطم على "ملك الغلاظة" خالد العياني ووجد أن ثقل دمه حقيقةً لا يحتمل، وهو المعروف منذ مراهقته بوقوفه تحت بيت أهله ومناداة أمه بالفصحى قائلاً "هل نضج الطعام يا أماه". أمضى أياماً مع "الطرح" وهو يفكر كيف له أن يكون طرحاً وله قوة عشرين ثوراً، حتى أن أبو خليل الدكنجي قال له مرة "الطرح ولد ومعه كاتولوغ.. نزل على دفعات وبعدين تم تركيبو".

عاش أحمد البطم مع رفاقه الجدد حياة جديدة لا يفارقها الصخب، ومنوعات الفرح والقصف واللهو، شهد حفلات سكر شديدة، وعراكات صاخبة لأسباب تافهة، وتحول إلى محكّم في نزاعات لم يعرف أنها موجودة أصلاً، حتى أن أبو بدر لقّبه بالحكم، وليكون هذا أول لقب إيجابي يطلقه في حياته، لأنه ساعده مراراً بمبالغ مالية سخية، وتمكن من إقناع أكبر زعران الصليبة سليمان عكرة الملقب بأبو زنيبة بعدم قطع أسلاك الكهرباء كلما شعر بالضيق أو الغضب، واستعاد من كشاش

الحمام غياث الجيني فرخي حمام سرقهما من المفلوش مانعاً حدوث جريمة أو مجزرة بينهما.

وهكذا أصبح أحمد البطم محكّماً حقيقياً يحظى باحترام الجميع بمن فيهم أبو علي الشتا الشهير بأنه "أكبر قبضاي بالبلد" فيكفي أن يمر بدراجته "المشنص"* في شارع حتى يهتز الحجر والشجر والبشر من صخبها العجيب، حتى أنه دعاه إلى سهرة خاصة في "الرمل الفلسطيني" لم يكن للكحول من وجود فيها، بل "الحشيش" ومعه صناديق من "كازوز خزنة" أحمر اللون، شارحاً لأحمد البطم أن الكحول حرام بينما الحشيش حلال زلال، وراح يلف له سيجارة تلو أخرى وهو يقول له "شرفتنا يا أستاذ" ويخرج من البيت ويطلق عيارين ناريين ترحيبا به ويعود.

وضع أحمد البطم الملف جانباً، وأغلقه على الأوراق الكثيرة التي خرجت منه وبرفقتها حياته التي راحت تمر من أمامه وهي تنعطف تحت إملاءات هذا الملف، ليجدها بعيدة وقريبة منه في آن، وأحس بضرورة عودته إلى إكمال ما هجره منذ أربع سنوات لا لشيء إلا لأن كل ما عاشه في أثنائها كان من صنيع منهاجه الواقعي المرمي إلى جانبه الآن.

الحقيقة الصارخة التي خلص إليها، تمثلت بيقينه من نجاحه في شيء واحد، ألا وهو تجميع أشياء قد تبدو عابرة لكنها خالدة، وليتأكد من أن الشرارة الأولى لمنهاجه بقيت المهيمن على كل ما كتبه.. **خلود العابر** وكل ما عدا ذلك من نقاشات وتنظيرات تقاسمها مع الأستاذ إلياس لم تزحزحه عن بداية فكرته، ولتبدو له **عابرة دون خلود، خالدة دون عبور.**

---

* مسمى أهل اللاذقية للدراجة النارية الانكليزية Machless (1899 - 1966) وقد كانت متوفرة بكثرة في المدينة حتى تسعينيات القرن العشرين وكانت تستخدم للنقل المأجور (تاكسي).

كانت الساعة قد قاربت السابعة مساء، وفي اللحظة التي تذكر فيها أنه لم يأكل شيئاً منذ استيقاظه، شعر بجوع قاتل دفعه إلى المطبخ، حيث وجد في الثلاجة طنجرة صغيرة مليئة بالملوخية وإلى جانبها طنجرة بالحجم نفسه مليئة بالرز وطبق سلطة، كانت جميعاً في رف واحد، بينما شغلت الأرفف الأخرى أنواع مختلفة من الجبنة واللبنة والبيض، وكل ما يمكن أن تتسع له الدروج من الفاكهة والخضراوات المغسولة والمرتبة بعناية.

أغلق الثلاجة ولم يخرج منها شيئاً، ووقف مستنداً إليها ساهماً يفكر بأمه التي لم تكف عن عادتها اليومية في المجيء إلى بيته لترتبه وتنظفه وتطبخ له وتمضي، من دون أن تعثر عليه، ولتعود في اليوم التالي وتجد كل شيء على حاله فتعاود تنظيف البيت مجدداً رغم نظافته المفرطة وإعداد طبخة جديدة، وليتذكر بأن عشرة أيام مرت عليه لم يأت فيها إلى هذا البيت، **صارت تعرف أنني أمضي أوقاتي في العلية** قال لنفسه.

عاود فتح الثلاجة وأخرج طبخ أمه وراح يأكل بسرعة وشرود إلى أن توقف وفي فمه لقمة كبيرة أشعرته بغصة مؤلمة ورغبة عارمة بالبكاء، اختلط فيها سعاله بدموعه، معيداً ما في فمه إلى الطنجرة، مستسلماً للبكاء تماماً وأمه سعاد المرتجى تتلامح في روحه، وقد اجتاحه اشتياق حارق إليها.

خرجت عليه بكامل حنانها الجارف، كائناً يتوق إليه دائماً، على حافة الجنون به، ترافقه صغيراً إلى المدرسة لا تترك يدها يده، ليراها في مرات كثيرة تتلصص عليه من خلف باب الصف، وتتعلل بأي شيء

لتراه، وحين ينتهي دوامه يجدها بانتظاره وحيدة تحت شجرة يختلط ظلها بظل لهفتها عليه.

تذكر كيف اقتحمت صفه حين كان في الثاني الابتدائي وأخرجته منه وهي تصرخ بمعلمه "هيك بتعلمو الأطفال"، لا لشي إلا لإحساسها بأن صوت المعلم العالي مؤذ ومؤلم وقاس، وأن مدرسة "الأرض المقدسة" أقرب للسجن، مقررة حينها إبقاءه في البيت بعيداً عن وحوش التعليم الكاسرة، ولولا تدخل عمه ابراهيم البطم، لمضت في إحضار معلم خاص به إلى البيت تختاره بعناية ويبقى تحت رقابتها.

لم يساعده استحمامه على التخلص من موجة الذكريات التي راحت تضربه، صارت المياه التي يصبها على جسده موقظاً لها، لوحدته وانطوائه في طفولته وهلع أمه الدائم من أن يصيبه أي مكروه، ومعها أخته هدى التي تكبره بتسع سنوات، وسناء التي تصغر هدى بثلاث سنوات، وفيهما من الأمومة ما يجعله تحت أجنحة ثلاث أمهات، ترفرفن فوقه كما لو أنه في المهد، وعلى جميع أفعالهن أن تكون أفعال هدهدة.

حلق ذقنه والأسى لا يفارقه مع تفكيره بأمه وهي تعود في كل يوم لتجد طبختها على حالها. بدّل ملابسه بأخرى نظيفة ومكوية. أفرغ كل محتويات الطنجرتين في كيس، وخرج ليرمي به في حاوية الزبالة، متوجهاً لزيارة أمه في بيتها الشاسع في حارة القلعة.

نسمات باردة رافقته طيلة طريقه الذي مضى فيه باتجاه تقاطع شارع "القوتلي" مع الصليبة حولت حزنه إلى رقة مفرطة واستيقاظ مفرح في حواسه التي راحت تلتقط كل ما تراه، ولينعطف يميناً عند التقاطع ماضياً في شارع "القوتلي".

تبادل التحية عشرات المرات مع مارة يصادفونه يعرفهم ولا يعرفهم، وأصحاب محلات يخرجون منها صارخين "تفضل أستاذ"، وآخرون جالسون أمامها يشربون الشاي والقهوة مع رفاقهم ليخرج سلامهم عليه جماعياً "أهلاً استاذ أحمد .. تفضل"، مكتفياً بالسلام وشكرهم على دعوتهم.

لم يستوقفه إلا فؤاد الحلاق، الذي خرج من محله راكضاً خلفه يدعوه إلى دق شطرنج، مواجهاً لهفته ورجاءه بالضحك، ليقول له فؤاد وهو يبادله الضحك "ما عندي ضحايا، ما في غيرك اجيتني من السما"، وليجيبه أحمد البطم بحزم "يلا مرة تانية بصير ضحيتك"، وواصل أحمد طريقه وهو يضحك على تسمية فؤاد لاعبي الشطرنج بالضحايا، كونه ينقض عليهم ولا يفلتهم مالم يلعبوا معه.

ما أن بدأ بيت أمه أمامه حتى عاودته موجة ذكريات جديدة وارتطمت به، مستحضراً وجهه الملتصق بزجاج سيارة عمه الخلفي المغبش بدموعه وأنفاسه المتلاحقة، بينما أمه تركض خلف السيارة، وتضرب على هيكلها بكل ما أوتيت من قوة وهي تصرخ "وقف يا إبراهيم".

عادت إليه لحظة انتشالها له من السيارة وعناقها الطويل له وهي تنجيه من عذاب لم يعرف إن كان في طاقته إحتماله لو مضت سيارة عمه به إلى لبنان، ودرس في مدرسة "برمانا الداخلية".

ما الذي كانت ستصير إليه حياتي لو درست هناك؟ هل كانت أمي ستتزوج عمي؟ ولم يكن من عائق أمامها إلا أنا.. نعم وافقته في البداية أن أدرس في برمانا ثم تراجعت في آخر لحظة.. أتذكر سعادتي بذلك وشعوري بالنصر على عمي الذي صرت أبغضه ولا أطيق وجوده عندنا.. عمي نفسه الذي حافظ على أموال أبي الذي لا أعرفه.. مات أبي وأنا في الرابعة من عمري مات من فرحته بي كانت تقول لي أمي..

أنا فرحته التي قتلته.. كيف للفرح أن يقتل؟ وربما كنت في طريقي لأقتل عمي من الكمد لكنه هرب إلى بيروت وهو الآن في باريس.. هرب من التأميم والإصلاح الزراعي أبقانا أغنياء تقول أمي دائماً.. هرب بأموال أبي باع أراضي كثيرة صفّى أعماله وقاسمنا إياها.

قرع باب البيت، فتحت له شفيقة خادمة البيت منذ أكثر من ثلاثين سنة، **امرأة رابعة خنقتني بالحنان**، عانقها بقوة جعلت من كلماتها تخرج متقطعة وهي تقول "والله مشتائتلك كتير"، **أمي تنظف بيتي بنفسها وهي لم تعتد احضار كوب ماء.**

دخل البيت، تفقده سريعاً وهو ساهٍ عن ما كانت تقوله له شفيقة من خلفه، وجد أمه جالسة في الحديقة تشرب قهوتها وتدخن سيجارة اعتاد رؤيتها تدخنها عصراً، قال لها:

- شو مدام مغيرا عاداتك؟

- يا أهلين بحبيبي.

قالت ذلك بصوت متهدج، أتبعته بعناق خرج منه أحمد البطم ومعه رائحتها القديمة التي صارت تنحسر منذ سنوات أمام طغيان رائحة شيخوخة مرة.

جلس إلى جانبها، راح يرمقها خلسة ويتفقد إن كان من تجاعيد جديدة قد طالت وجهها، نظر إلى يدها التي ترفعها بسيجارتها فرأى شامات شيخوختها التي أحزنته كثيراً حين رآها أول مرة تطفو على يديها.

التزمت سعاد المرتجى بصمتها خارج عبارات ترحيبها به، وسؤالها عن أحواله وصحته، وظلت منتظرة ابنها أن يبادر بالحديث الذي يختاره،

خوفاً من أن تزعجه بحديث لا يحب سماعه، أو سؤال يعتبره تدخلاً بما لا يعنيها.

أقلقتها ملامح التعب البادية على وجهه، لم تكن مرتاحة لما يمكن أن تكون عليه حياته وغيابه الطويل عنها، وإصراره على الوحدة وعدم الزواج، الأمران اللذان يشكلان قلقها الدائم عليه. شغلت نفسها بتفقده كاملاً، وتمرير يدها على وجهه، مستعيدة إياه طفلاً تحتفي بكل ذرة تتغير في جسده، تصارع حنينها إلى ما كان عليه منذ اللحظة الأولى التي خرج فيها من رحمها، من دون أن تغفل أدنى تفصيل في نموه وتغيراته ومراحله العمرية.

كان يكبر فتحن إليه رضيعاً. يذهب إلى المدرسة فتستعيده طفلاً يحبو مع خطواته الأولى المتلعثمة. تحزن كثيراً على استحالة استعادته مرتمياً عليها وقدماه لا تتخطيان صدرها، تضعه في حضنها فتجد أن قدميه صارتا تلامسان الأرض. يبدأ بلفظ الكلمات بدقة فتتذكر كيف كان يقولها بتلعثم، تحن إلى أخطائه، تردد في داخلها "ضعدع" بدل "ضفدع"، و"سيسة" بدل "قطة"، يرتجف قلبها وهي تتذكره صغيراً يكتشف الأشياء، ويداه الصغيرتان تقبِّلهما وقد صارتا أكبر فأكبر.

الآن صار كبيراً وبعيداً كانت تقول لنفسها، لكن قلقها عليه لم يتغير بل ازداد أكثر، ولم يخف عليها أن في زيارته اليوم شيئاً مغايراً عن زياراته السابقة، كل ما فيه يصرخ بذلك.

لم تجد سعاد المرتجى بداً من أن تبادر هي بالحديث، قالت له بينما تصب له القهوة:

- كنت جبلي معك شي جريدة وقرالي ياها متل ما كنت تعمل من زمان؟

- ليش ضل جرايد!
- ما بقى تطلع ولا جريدة باللادئية!
- ولا شي!
- كانوا يسلوني كتير جرايد اللادئية.
- بتذكّر..
- ليك جرايد أبوك وجرايدك بعدهن بالصناديق بغرفتك، يا لطيف كيف صرت تنبش فيهون، والله خفت عليك ولعنت الساعة اللي خلتك تشوفهون.
- ذكرتيني.. بدي شوفهن؟
- هنين بغرفتك، يلا هلأ بتغرق فيون وبتنساني..
- لأ أبداً ما أنا نايم عندك اليوم.

لم ير أحمد البطم مقدار الفرح الذي طفا على وجهها بمعرفتها أنه باق، دخل غرفته وكله شوق لمعاينة الصحف، ليعود بمجرد وقوعه على الصناديق إلى مراهقته **لم أفعل شيئاً في مراهقتي إلا القراءة**، وتذكر قناعته بأن الكتب أبقى من الإنسان معتبراً حينها هكذا اكتشاف أمراً خارقاً، وأن بحثه عن كلب "روبنسون كروزو" الذي يظهر ويختفي في الرواية محرض لكلاب حارة "القلعة" على النباح ليلاً، وكله خوف من أن يوقظ نهيق الحمير سؤاله عن حمار سانشو الذي يموت في فصل ويعود إلى ركوبه في فصل آخر في "دون كيخوتة".

كان أحمد البطم مشغولاً بملاحقة الفرسان على صهوات خيولهم يقفزون من صفحة إلى أخرى في كتبه صارخين "الله أكبر"، ويهرب في الوقت نفسه من تعلم ركوب الخيل، ويرجو أمه ألا تأخذه كلما كانت

الشمس ساطعة إلى البرية وأرضها التي تتفقدها بفرح والأزهار المندلعة في مساحتها الشاسعة، معيداً على مسامعها في كل مرة "أكره زهر الليمون" فتضحك وتملأ رئتيها بأريجه، وكذلك تفعل هدى وسناء وكل ما يفكر به العودة إلى البيت، إلى رطوبته وحنانه، وقسوة تلك الرطوبة عليه لأنه خرج وتأخر في طبيعة بلهاء، والصيف أعتى وأصعب، والبحر لا يطيقه، تأخذه أمه رغماً عنه إلى مسبح "أندراوس" وهو مؤرق بخروجه من البحر وعذابه.. يلتصق الرمل في رجليه وتضربه الشمس بلا رحمة.. **الخريف أجمل الفصول.. لا منافس له إلا الشتاء.. رائحة الحطب.. كائنات المدفأة تتراكض على الجدران ممتزجة بظلال مصباح ينازع البرد والرائحة المتاخمة لثياب صوفية والمزيد من كتب أسمع فيها ضربات قلب خالد بن الوليد وهو يلتف من خلف جبل أحد وتتشابك خيوط العنكبوت أمامي وتضع الحمامة بيضها على مدخل غار ثور.. أوصد كتب السيرة وصرخات عمار بن ياسر تأتيني كما لو أنني من وضع الصخرة على صدره أرى لحية صقر قريش مبللة بماء الفرات بينما جسده جاف تماماً ويسكنني ما يقوله حين تضرب عنق أخيه أردد معه "ومضيت إلى وجهي: أحسب أني طائر وأنا ساعٍ على قدمي" يا الله وأقفز مع الزير وأقول معه "ونبكي حين نذكركم عليكم ونقتلكم كأنا لا نبالي" يا الله مجدداً خريف وشتاء يتناوبان علي وأنا أقرأ كل ما في مكتبة أبي وكل ما فيَّ يقول الفرح خريف.. البهجة شتاء و"كأن الجو قاسى ما أقاسي فصار سواده فيه شحوبا" في هكذا بيت فرحتي آتي مع المتنبي من فوق الزمان وتحته وأصبح مثل أبو نواس "تغطيت من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني".**

أخرج أحمد البطم الصحف من الصناديق وراح يقلبها وذاكرته

تستعيد كل ما أمامه بمجرد قراءته لعنوان أو عبارة. وجدها مرتبة في تسلسل زمني: أعداد "اللاذقية" المتآكلة وقد تخطى عمرها الستين سنة، جريدة "الحمارة" بشعارها الماثل بذهنه كما رآه آخر مرة حماراً يرتدي في قوائمه الأربعة أحذية، وإشاعة منشورة فيها وجدها كما توقع في العدد الرابع عن امتلاء بحر اللاذقية بالأرانب وضرورة تزود الصيادين بالجزر، ولتأتي بعدها أعداد "أبو نواس" وترويستها التي تصفها بـ "جريدة عربية هزلية جدية انتقادية" وإلى جانبها صحف أخرى تشبهها تماماً "عكاز أبو نواس" و"أبو نواس الجديد"، وجريدة أخرى لصاحب تلك الصحف اسمها "أبو فراس"، وكلها سخرية مبطنة من العثمانيين، وليستعيد فرحته باكتشافه أن ترقيم تلك الصحف متصل، فـ"أبو نواس" الأولى تنتهي مع الرقم ٢٥ والعدد الأول من "عكاز أبو نواس" يبدأ بـ ٢٦ وهكذا حال "أبونواس الجديدة" التي تبدأ بالرقم ٤٠ بينما "أبو فراس" تبدأ من ٤٦، وليجد نفسه يردد قصيدة لصاحب تلك الصحف يهجو فيها مدعي الثقافة، فيقع عليها كما حفظها "إذا هبت رياح الخرطبيل، وملّ الناس من قال وقيل، تمسّك إن ظفرت بذيل فيل، تكون يداه كالباع الطويل، وخذ عنه المعارف والفوائد...".

وعندما أحس بأنه صار غارقاً تماماً بالصحف، حاول مقاومة استرساله من دون نجاح يذكر، وهو يقرأ أخبار أعيان اللاذقية، وإشاعة عن زواج أحدهم من فرنسية، ورداً ممن طالته الإشاعة ينفي ذلك من دون أن يفوته التأكيد على أن من يتزوجون من فرنسيات هم أشرف الناس، ولا يزيدهم شرفاً إلا المتزوجين من ألمانيات.

بدا له أن كل ما يقرأه يعرفه ولا جديد فيه، صار يسعى لأن يحزم

أمره ويتوقف، ليعود إلى أمه، إلا أن ما أيقظته هذه الصحف من ذكريات مرتبطة بفترة قراءته لها جعله يستغرق وقتاً طويلا في إعادتها إلى صناديقها، فهنا خبر يستوقفه، وهناك وعيد لمن يتقاعس عن الاشتراك في جريدة لا يكمله. تستوقفه مجلة "المنار" ويقرأ للمطران أرسانيوس، ويجد في الصفحة الأولى من جريدة لعناً لاستقلال اللاذقية ودولتها المستقلة عن سورية، وليعيد معها إلى الصندوق نفسه جريدة "دولة العلويين"، و من ثم مجلة "القيثارة" من دون أن يتفقد فيها قصائد علي أحمد سعيد الذي عرف مؤخراً أنه أدونيس نفسه.

يخرج من غرفته وفي يديه بضع صحف ويقول لأمه:

- بدي اقرالك كام شغلة؟

- اقرالي لشوف!

يقرأ لها إعلاناً في جريدة عن حفلة لبلبل مصر وسورية وجميع البلدان العربية الآنسة أم كلثوم التي ستغرد في سماء اللاذقية مساء ٢٢ حزيران ١٩٣٣ في مسرح "شناتا" الكبير على البحر.

- الله يرحمو أبوك حضر الحفلة.. والله يرحمها لأم كلثوم!

- طيب سمعي: "كنافة رقة معجوقة أدبا/ ومن حلاوة حسن الصوت أعطاك. يا حاضراً أم كلثوم وحفلتها/كل واشكر الجاك إن الفضل للجاك".

- أيه تذكرتها!

وصارت تضحك بفرح وحنين.

- ما هادي قصيدة ابن خالتي ملحم اللي قلها ياها لأم كلثوم، ما في أخف من دمو.

- تمام.. هلأ عرفت منين ذاكرتي عظيمة!

- ليك من كان هادا الجاك؟

- متعهد حفلات أم كلثوم في سورية ولبنان.. هيك كاتبين..

عادت إلى الضحك مجدداً

- لأ وابن خالتك يعني وقف فجأة ادام أم كلثوم وقلها القصيدة وما خلى نوع حلو باللادئية إلا وشبهها فيه.

وصارت تضحك أكثر، وأحمد البطم يضحك معها

ولم يتوقفا إلا وشفيقة تقول لهما "العشا جاهز"، ليعاودا الضحك مجدداً كما لو أنها قالت لهما نكتة، فصارت تضحك من دون أن تعرف السبب.

أكل أحمد البطم بشهية كبيرة، وسألها بعد العشاء أن تتوقف عن تنظيف بيته..

- طيب بعتي شفيقة.

أتبع بعد أن طفت على وجهها علامات استياء.

الأمر الذي رفضته، قائلة له إن صحتها على أحسن ما يرام، وإن مشوارها اليومي إلى بيته صار عادة يومية لا تستطيع التخلي عنها، ولتقبل في النهاية باصطحاب شفيقة معها لتساعدها، مع أنه كان واثقاً من أنها لن تفعل.

تركت أمه نظراتها ومعالم وجهها المحتشد بالفضول ماثلة أمام أحمد، ومضت إلى غرفتها لتنام، وتكبد أحمد البطم جهداً كبيراً في منع نفسه من اللحاق بها وتسكين كل مخاوفها وقلقها عليه.

رغب بشدة أن يحدثها عن سلمى، متوهماً بأنها ستطمئن عليه بمجرد أنه واقع في الغرام، وستشعر بأن هناك امرأة تعينه في حياته،

مهما كانت تلك المرأة، زوجة أو عشيقة أو أي شيء.. **المهم امرأة وإن لم تخترها ولا نالت مباركتها ولن تنالها أبداً.. أنا مجنون أفكر بسلمى كما لو أنها زوجتي وأنا اتسلل إلى بيتها كلص.. أريد أن أخبر أمي بذلك يا لفرحتها سليلة الحسب والنسب.. ماذا أفعل إن كانت كل النساء الأخريات لم يثرن فضولي ولم يوقظن أي شيء فيّ.. تعرفت على جسدي معها تعرفت على نفسي لقد كنت راهباً قبلها وأنا الآن كليٌّ المجون كامل الانغماس بلذتها**

بقيت سعاد المرتجى مؤرقة في سريرها، تنصت إلى أدنى حركة قد تصدر عن ابنها، تلاحق احساسها بأن شيئاً حزيناً وغريباً في داخله، شيئاً تجهله له رائحة امرأة. كانت سعيدة بذلك وقلقة في الوقت نفسه، لم تمتلك الجرأة أن تسأله، خافت أن يهرب، أن يتوارى عنها، وهي لا تريد ذلك، لا تريد أن تمر عشرة أيام أخرى ليعود ويزورها، ليفعل ما يريد كانت تقول لنفسها، تطمئن عليه، تسمع أخباره من هنا وهناك، وإن كانت هناك امرأة فستعرف لا محالة، سيقول لها، لن يستطيع، هي متأكدة من أنه غير قادر على إخفاء شيء عنها، حتى أن قراره العيش لوحده في "البيت المسيحي" ليس إلا هرباً من هذه الحقيقة، إنه لها وحدها، تعرف ويعرف، وكلها يقين.

استيقظ أحمد البطم في التاسعة صباحاً، ووجد أمه كما لو أنها لم تغادر مقعد حديقتها، ومضى يتمشى معها وهي تتفقد نباتاتها وتقول له:

- زهّر الزفير يلا بكرا بعملك منها ماء زهر.

وراحت تمرر يدها على شجرة النارنج وتربت عليها. بينما يستعيد أحمد البطم طعم ماء الزهر الذي كانت أمه تعتبره الدواء الشافي لكل شيء، **طفولتي طفولة ماء الزهر.**

- ليك ما أحلاها حديقتي؟

قالت له ومضى خلفها وهي تنتقل من نبتة إلى أخرى، وكله فرح بالنسمات التي راحت تداعب وجهه وهسيس أوراق الشجر، وغرقه مع أمه في حديقة تتأهب لاستقبال الربيع وقد كانت غارقة بالأمطار منذ أيام.

أول دواعي فرحه كان استيقاظه صباحاً الأمر الذي لم يفعله منذ أشهر، فقد كان ينام مع أول خيوط الفجر ويستيقظ في الظهيرة، وليشعر بأنه كان يفوت عليه وقتاً جميلاً.

لم تنجح سعاد المرتجى بإقناعه أن يفطر، أو ألا يدخن قبل أن يأكل، أحضرت له شفيقة قهوته ووجد أمامه على الطاولة أعداداً من صحف كان سيقرأها على أمه بالأمس.

قلّبها أحمد وانشغل بها عن ما يعتمل في داخله وينازعه لئلا يلقي به كاملاً على أمه. قرأ عنواناً يقول "بدنا المرفأ بدنا البور/حاجة ظلم وحاجة جور" فتذكر في الحال أن ما كتب تحته هو عن إضراب ١٩٤٧ احتجاجاً على إبطاء بناء الميناء، ثم رفع أمام أمه عددين من جريدة "القبس" والتي وجدت بدورها صعوبةً في تبيان ما أمامها لو لم يقل لها:

- هي "القبس" اللي كنتي تحبيها.

- أيه والله هي كان ينتظرها أبوك تجي من الشام.

أخذت العددين وراحت تقلّبهما بشرود، بينما انشغل أحمد بعدد من جريدة "الشاطئ" وهو يستعيد كم أدهشه ما تحمله عن الماسونيين أبناء العشيرة الحرة، وكم كانت تأسره مراتبها: "القطب الأعظم صاحب

الشوكة" و"الأستاذ الأعظم الكلي الاحترام "، واختلاف مسميات المراتب في المحافل السورية بين "المنبه الأول" و"مدير التشريفات" و"أمين الحسنات"، وقد كان العدد الذي أمامه عن قضية اكتشاف "مركز الجاسوسية الإنكليزية في قلب المحفل الإسكوتلاندي في الاسكندرية" وأشياء كثيرة قرأها فيها منقولة عن الصحف المصرية تتحدث عن الخرائط والأجهزة الضوئية لإرشاد الطائرات الإنكليزية، وكيف قارب ذلك بخوف وغموض غير آبه بالبيانات والدعوات التي حملتها "الشاطئ" للمنتسبين إلى محافل أجنبية أن يستقيلوا منها، وينسجموا مع كيانهم الوطني وكرامتهم القومية.

ذاكرتي عجيبة رأسي مليء بما أحب ولا أحب بما يفيد ولا يفيد أتذكر حتى تعليقات أمي على أي خبر كنت أقرأه عليها وأنا متأكد من أني إن قرأته مجدداً فسيكون لديها التعليق نفسه تماماً كما قالته من عشرين سنة "بدهون يجيبو المصريين لعنا" يوم كانت الصحف لا تتكلم إلا عن الوحدة مع تأكيدها الدائم أن "شكري بك ما في منو" ومع كل خبر عن إنقلاب كانت تقول "العسكر بهدلو سورية".

لم يفارق أحمد البطم أمه حتى السادسة مساء، ووجد نفسه يمشي في الطرقات على غير هدى، ومع وصوله قرب محل فؤاد الحلاق لم يجد نفسه إلا ويلعب معه الشطرنج، وكان قلقه واضطرابه دافعاً له لأن يستجمع كل تركيزه للهرب من سلمى التي راحت تتقاذفه، وكل مساماته مفتوحة عليها بعد أن خطا خارج حضن أمه الذي أحاطه مؤقتاً بما يروض سلمى في دمه، بما يجعلها تمشي في شرايينه بدل أن تركض وتتخبط كما تفعل الآن.

فؤاد الحلاق قال له: "دق لئيم"، ووافقه أحمد على ذلك، لأنه لم يتردد أمام حركة، وانهى المباراة بسرعة مقارنة بالساعات التي كانا يمضيانها في جولة واحدة، واضطرار فؤاد إلى إغلاق محله لئلا يعكر صفوهما أي زبون.

لم يرضِ الدق تعطش فؤاد الشطرنجي، صارحه بأنه لن ينام إن لم يلعب معه مرة ثانية، ليفعل ويهزمه مجددا وفؤاد مشدوه يكاد لا يصدق. خرج من محل فؤاد وهو متأكد من أن فؤاد الحلاق لن يذوق اليوم طعم النوم، وسيمضي أيامه المقبلة في استعادة كل حركاته ودراستها.

بحث أحمد البطم مجدداً عن ما يشتت سلمى، توارد إلى ذهنه أشخاص كثر يمكنه زيارتهم، هجم عليه أدهم سراج والأستاذ إلياس وغيرهما، لكن خطواته لم تمض به إلا إلى بيته، وهناك حاول تزجية الوقت الذي طالما كان يطوعه حسب مشيئته، خالصاً إلى أنه عاجز عن إيقاف هجوم سلمى الكاسح عليه، وليجد في خروجه مجدداً هروباً منها إليها، وبالخطوات التائهة نفسها وهي تتسق باتجاهها.

لم يمر أحمد بصندوق الكهرباء، وتنبه فجأة واستفاق من تسرنمه بسلمى بمجرد تبادله التحية مع سكان "الزاروب"، بحيث جاءت الكلمات التي تبادلها معهم مانعاً له من مضيه مباشرة إلى بيتها غير مبال بأن الوقت باكر جداً على غرامه السري، وأنه إن خطا إلى بيتها الآن والساعة لم تتجاوز العاشرة بعد، فإن غرامه سيمسي علنياً على الفور.

انتصر منطقه الذي يدهشه بصرامته على ترنحه كعاشق، صعد إلى عليته التي رأى فيها زنزانة انتظار مشوهة، خربة لتزجية الوقت وهو يشعر بمروره كما لو أنه في ساعة رملية أمامه، يمشي ذرة ذرة، ثانية ثانية، إلى أن تحين اللحظة المناسبة.

كان محاصراً بفوضى عارمة في عليته، جعلته يطفئ الضوء المتدلي من لمبة عارية في السقف، لئلا يرى فداحتها. جلس على حافة سريره، ثم عاد بجذعه إلى الخلف ممدداً له وقد لامس رأسه الجدار وبقيت قدماه على الأرض، شبك يديه فوق بطنه وصار يراقب خيالات وظلال المارة على السقف، ويسمع أحاديثهم العابرة يتردد صداها في عليته.

لم يعرف كم من الوقت مضى وهو على جلسته هذه، ومتى أخذه النوم كرحمة هبطت عليه وانتشلته من تحرُّقٍ تسرب إلى حلم رأى نفسه فيه وهو صغير يكاد لا يتجاوز العاشرة من عمره جالساً في مقعد من مقاعد مدرسة "الأرض المقدسة" وأمامه لوح مكتوب عليه بالطباشير عبارات يحاول قراءتها من دون جدوى، فإذا بمقعده يصير سريراً، وعلى يمينه أمه نائمة بعمق على ظهرها، ينقلب إلى اليسار فيرى سلمى جالسة في مقعد بعيد، تلكزه أمه، يلتفت إليها، فتفتح عينيها وتبتسم له ثم تعود إلى النوم، يخرج إلى الباحة الشاسعة للمدرسة ليجد في نهايتها جبلاً شاهقاً وامرأة تتسلقه وهو يحاول اللحاق بها، وكلما ركض خلفها صارت بعيدة أكثر، تلتفت إليه وتواصل صعودها وهو لا يعرف من تكون لكنه يصرخ: يا أمي يا أمي، فتتوقف عن الإلتفات وتزيد من سرعتها وتغيب أكثر، وفجأة يصير الجبل مليئاً بالقبور كما لو أنه مقبرة جامع "المغربي"، تغيب أرض باحة المدرسة تصبح مغطاة بالريحان، وحين يحاول المشي يغوص به، ويواصل المشي، وشيخ لحيته بيضاء يقول له "هذا هو زهر الآس" وليخرج من بين قدميه خروف منحور يتخبط بينهما.

استيقظ مذعوراً، صعدت إلى أنفه رائحة الريحان ممتزجة برائحة خرفان العيد المذعورة، لدرجة التبس الأمر عليه، وظن أنه في موسم

عودة الحجاج إلى اللاذقية حين تزين بيوتهم بأقواس خشبية مغطاة بالريحان وتختلط رائحته برائحة دم حار تلفظه الخرفان المنحورة.

توقفت تبعات حلمه وعيناه معلقتان في السقف الذي ما عاد يمرر خيالات المارة، نظر إلى ساعته فوجدها استقرت على الثالثة والربع بعد منتصف الليل، كان الصمت ما زال يتردد في عليته، الهدوء الذي يصارع قلبه الصاخب.

بخفة، بخطوات لا وقع لها انتصرت على تدافع كل ما فيه وتخبطه، مضى أحمد البطم من عليته إلى بيت سلمى، صعد الدرج **أحسب أني طائر وأنا ساعٍ على قدمي**، وصل باب بيتها، تردد لثوان..**عليه أن يكون مفتوحاً**، دفعه بيده مغمضاً عينيه، فإذا به يفتح، تمالك نفسه، ساندها أمام هجوم فرح متداخل مع حزن واشتياق ومغفرة ودهشة وارتباك، خطا إلى الداخل فإذا بها أمامه على بعد خمس خطوات، بثوب كحلي مطعم بزهور صغيرة بدت تضوع بعطر جسدها، متكبداً عناء قاتلاً في احتمال اللحظات التي استغرقها في إيصاد الباب ومنعه من إصدار أي صوت.

حل الصمت لهنيهة، اندلع في أحمد ما يحرق ويذيب، غرق في ورود سلمى الكثيرة، تفتّتت تلك الورود، تفتحت أخرى، وجد في وريقاتها ريشاً يكسوه، يستحثه على الطيران، إنها شاسعة كانت خلاياه تصرخ، **لن ينفعني المضي مشياً على الأقدام فوق بشرتها..الأسمى أن أتحلى بأجنحة منها وأطير بما تلفظه بما يخرج إلي من دمها وريقها وسوائل شهوتها بما يصيبني بالبلل من دون أن أعجز عن الطيران.. إنها سباحة أيضاً في الأعماق والأعالي.. طيران وغوص وإن كان من مشي ليكن نحو مغارتها.. في عتمتها أتلمّس طريقي لا أضيع.**

اتسقت خلاياه، عادت تلتئم وتتبادل الحياة التي صار مفعماً بها، تمدد إلى جانبها، لم يكونا قد تبادلا كلمة. بدت سلمى على يمينه كما أمه في المنام لكن بعينين مفتوحتين على اتساعهما، كما لو أن كائناً مروعاً يهبط عليها من السقف، غائبة عن توقها الذي بادلته إياه، مأخوذة عنه إلى جحيم طارئ، وبدايات أسى إن أمسك بها فلن يفلتها.

لم يعرف ما الذي يقوله، تلعثمت الكلمات، بدا حديثه عن ملصقاتها البرتقالية أمراً تافهاً، **ما معنى أن تمضي خمسة أيام على آخر لقاء بيننا.. كنت أمضي عشرين يوماً بعيداً عنها أنا من تغيّر أنا من صار لا يريد الابتعاد عنها**، ليقول لها:

- بدي ضل للصبح

نظرت إليه نظرة لم يفهمها، وبقيت محدقة به شاردة بالبعيد، كما لو أنها نسيته أمام إلحاح أمر آخر. لم يفهم رد فعلها الغريب، وبدت للمرة الأولى غامضة بالنسبة إليه، غريبة، معلّقة بمجهول لم يلامسها يوماً، وليتضح كل شيء وهي تقول له:

- أنا حامل!

امتدت الأيام، تطاولت، ازدحمت، تدافعت بالمناكب، ثم مضت رغماً عنها، ولم يكن أحمد البطم بدايةً إلا مخدراً بنذر القادم، عاجزاً عن إقناع سلمى بالتخلص من الجنين، أو حتى مواجهتها بهكذا طلب، وقد احتلت وجهها رقة أم جاهزة لأن تتطاير شرراً إن أحست بشيء يطال وليدها المنتظر ولو بكلمة، وهي تقول له "حملي من غسان البراني"، وأحمد البطم لا يصدق، وهي تعيد وتؤكد له ذلك، وأنه زرعه في أحشائها عندما جاءها من بحار ومحيطات سرعان ما لبى نداءها من جديد، معيدة عليه ذلك بإصرار أكبر كلما صار أحمد منغلقاً على نفسه أكثر، غير مبال بما تحمله، " المهم هو ابنك وبدي حبو" كان يقول لها من دون بهجة أو حزن.

خرج أحمد البطم مع حمل سلمى عن الألوان والفراشات، ضاق العالم بحيث صار لا يتعدى ما يطاله بيده، لم تعد سرقته اللذة إلا ألماً يتراكم، خيانة طوَّع بدايةً كل شيء في خدمتها، خطط لها من اللحظة الأولى التي وقع فيها على سلمى، وكله هوس بالاستئثار بها.

ما عاد نافعاً اعتباره الخيانة "البوابة الكبرى إلى عمق الحياة"، وتصنيفه جمال سلمى بما "يتخطى احتكار رجل واحد"، وأن على وثيقة الزواج أن تضيق بها، أن تلفظها إلى أحضانه.

صار خاضعاً لجلد ذاته، يحوم فوقه ظل غسان البراني، ليجده دائماً ينعته بالخائن، وكله إدانة له.

أمام هذا الأسى المؤرق لم يكن أمام أحمد البطم إلا الهرب، وفي اليوم الذي ولّدت فيه سلمى أظلمت الدنيا تماماً في عينيه، ولم يقو على زيارتها إلا مرغماً وبعد مرور أكثر من شهر، وحين وضعت الوليد بين يديه، أعاده إليها، هرباً من أحاسيس متضاربة كانت ستدفعه إلى هرسه، أو الإقدام على أي فعل قاس أو وحشي يضع حداً لصغره وهشاشته، ملقياً نظرة خاطفة على وجهه الذي بدا له بلا ملامح أو معان.

أكره الأطفال وكل ما هو صغير نداء للانتقام من مشاعر مجنونة فالرقة المفرطة تستدعي الوحشية.. لم أعد أريد سلمى ما عدت مسكوناً بها إنها مع عصفورها الصغير في القفص نفسه وحين رأيتها ترضعه تأكدت من أني صرت أمقتها صارت مليئة بالحليب.. بقرة يشرب منها عصفور وعلى وجهها استسلام وسكينة وفرح مروّض

اللعنة لا أريدها قديسة ولا شيطانة ولا ملاكاً ولا أعرف ما صارت إليه أريدها كما هي مجنونة ولا تعرف.. شبقة تخمش وليس لها أظافر وأنياب أريدها أن تنظر إليّ فأعرف أنني بريء وخائن معاً.

هجر أحمد البطم عليته، أصبح لا يأتي إليها إلا نادراً، انغمس في منهاجه بطريقة مختلفة هذه المرة، استدعت منه الانسحاب من الحياة التي عاشها وأفضت به إلى سلمى، ورأى أن عليه الآن تنظيم ما غنمه بعد خمس سنوات من العيش في العلية ليكون قريباً من بشر كان يجهلهم تماماً في ما مضى، وإحداث ما له أن يكون استثماراً لمعاشرته عمال المرفأ، والباعة بشتى الأشكال والأنواع، وأصحاب المهن الخفيفة، وسائقي دراجات "المشنص" ، وقاطعي تذاكر الباصات والسينمات،

ومشرفي المسابح أصحاب العضلات المفتولة، والصيادين، وقتلة الوقت الهائمين على وجهوهم في شوارع اللاذقية، وغريبي الأطوار، والمجانين الذين يتناسلون من حيث لا يدري، وقصصهم التي كانوا يحكونها له، وتلك التي كان شاهداً عليها، خيالاتهم، هذياناتهم، ممنياً نفسه ربط كل ذلك بتاريخ اللاذقية الموغل في القدم وإيجاد منابع لنمط عيشهم الفريد، وانحيازهم إلى حياة لا يبالون بواقعها، بل ينتصرون فيها للخيال والمبالغة في كل شيء.

ولأن الانغماس سمة راسخة في كل ما يقوم به، جاء غرقه مجدداً في أوراق مصنفه عاجلاً ونبشه ذاكرته متطرفاً، واجداً في ذلك المرحلة الثانية التي تتبع تطبيقه المنهاج وليأتي الآن وقت استخلاص الأفكار والخروج منه بمجموعة حقائق لها أن تكون جوهرية، وليعود مع هذه المرحلة إلى حياته السابقة، فصار يزور أمه بانتظام ويمضي أياماً عدة في حضنها متنعماً بحنانها، وكذلك الحال مع أختيه في مسعى دائم منه لاختيار أوقات لا يصادف فيها زوجيهما، وهو بالكاد يحتمل أولادهما، وأصبح "البيت المسيحي" مستقره.

استيقظت ذاكرته أمام غياب الخيط الناظم بين ما جمّعه في مصنَّف أوراقه، صار يبحث عن الدافع إلى الغوص في كل هذه الحياة التي لا تشبه أي شيء كان عليه، لم يجد حدثاً محدداً قاده إلى نفض التصاقه بعزلته، فالأمر كان أعمق وأعقد من ذلك كما خلص وهو يقارن بين ما كانه وما صار إليه.

عاد إلى طفولته، رآها استسلاماً كاملاً لحنان أمه المرضي، وكيف أنه لم يكن يريد أي بديل عنه، أو مفارقته إلى ما يقع خلف جدار بيته

وحديقته في حارة القلعة. كان يعيش حياته بفرح غامر ممزوج بأمان مطلق، من دون أية معوقات، أو حتى منافسات لم يجد نفسه يوماً مضطراً لخوضها، ولتعني له المنافسة فعلاً تقوم به أختاه نحوه، وهما تتسابقان على تفريغ مخزون أمومة كل واحدة منهما نحوه، الأمر الذي بقي ملازماً لهما حتى بعد زواجهما، كما أن منافسته رفاقه علمياً في مدرسة "الأرض المقدسة" التي بقي فيها حتى انهائه الثانوية، كان شيئاً لا يرد إلى ذهنه بالمطلق، كونه الأول دائماً، من دون أن ينقصه حب رفاقه له، والتعامل معه بشكل خاص تمليه عليهم قدرته الفطرية على اجتراح حب الآخرين له من دون تكبد أي عناء، وملامحه البريئة التي يتسرب إليها شيء من الحزم له أن يظهر فجأة.

كان دائم الانشغال بنفسه، مستعيناً ظاهرياً بوجه ضاحك ومعبّر على الدوام، وشرود خالٍ من التجهم، يوحي بالطمأنينة المناقضة تماماً لمخاوفه وقلقه وانطوائه، وسماعه مشاغل أقرانه بمظهر ينم عن اهتمام بالغ يمنح من أمامه إحساساً بأهمية مضاعفة، كما لو أن كلّ شيء فيه يقول: ها أنا أسمعك ويا له من شرف عظيم لك! وإن كان مصير ما يسمعه إلى النسيان.

تلك الصفات بقيت لصيقة به ولم تفارقه يوماً، وبعد انهائه الثانوية بتقدير ممتاز، لم يختر إلا دراسة الحقوق في جامعة دمشق، ولم ينجح الأب سالم مدير مدرسة "الأرض المقدسة" بإقناعه بالذهاب إلى فرنسا والدراسة هناك أي مجال يختاره، "ما دام وضعك المادي يساعدك وفرنسيتك أحسن من الفرنسيين"، الحقيقة التي لم تمنع الأب سالم من شدة حبه وإعجابه به من عرض منحة دراسية عليه، رغم معرفته بأن لا

حاجة له بها، وزيارة أمه ومحاولة إقناعها، التي وافقته وقلبها يكاد يقفز من صدرها، ولتسأل ابنها كما لو أنها تعاتبه قائلة له "بدك تروح على فرنسا ؟!"

درس أحمد البطم الحقوق في جامعة دمشق، من دون أن يتجاوز عدد الأيام التي أمضاها خارج اللاذقية بضعة أشهر متقطعة على مدى الأربع سنوات التي استغرقها ليتخرج، يمضي السنة الدراسية في اللاذقية، ولا يذهب إلى دمشق إلا لتقديم امتحاناته، أو لمحاضرة يتوجب عليه حضورها. ورغم قرب البيت الذي استأجره من الجامعة، فقد كان في أحيان كثيرة يعود في اليوم نفسه، ويجعل السائق ينتظره حتى انتهائه من المحاضرة.

اكتشف حينها بأنه لا يطيق الابتعاد عن اللاذقية، وأن دمشق لا تعني له شيئاً، وبقيت مرتبطة بذهنه بنهر بردى متدفقاً شتاء وعلى ضفتيه أشجار صفصاف عارية، واستكمل مع تفوقه اللافت سيرته السابقة في مدرسته بوصفه محط إعجاب زملائه وأساتذته، مع فارق يتمثل بنجاحه بإقامة بعض الصداقات التي كان بمنأى عنها تماماً في المدرسة، وخاصة مع زملائه اللاذقيين الذين كانوا جميعاً من حارة "القلعة"، ووقتها فقط صار له عالم مصغر من الأصدقاء، وجد فيه ما يتشاركه.

صداقته الأعمق والأبقى كانت مع أدهم سراج الذي كان يعيش ليس ببعيد عن بيته، في "الحارة الجوانية" من القلعة، والذي عاتبه من البداية على تأخر معرفته به قائلاً له "يلا أنا كنت بالتجهيز وأنت بالأرض المقدسة هادا عذر كويس لألك".

عن طريق أدهم سراج تعرف أحمد البطم على أصدقاء كثر، كان لكل واحد منهم شيء خاص به ومختلف عن الآخر، كانوا مختلفين ومتباينين ومحبين في الوقت نفسه، من دون أن تنجح انتماءاتهم الحزبية في التفريق بينهم إلا في نقاشات حامية، قد تنتهي بخلافات حادة، سرعان ما تدفع أحدهم لمقاطعة الآخر، والعدول عن ذلك بعد أسبوع أو أسبوعين، وقد كان أدهم سراج دائماً صلة الوصل بينهم جميعاً لأنه لم يكن منتمياً إلى حزب بعينه، رغم أنه فصل من مدارس سورية ونجا من اقتياده إلى سجن "المزة" مع عشرة طلاب آخرين من "التجهيز" عام ١٩٥٤، وقد حال صغر سنه مقارنة بالمعارضين الآخرين بينه والسجن، ليقوم بعد سقوط حكم أديب الشيشكلي في شباط العام نفسه، باقتحام غرفة مدير "التجهيز" الذي كان سبب فصله واعتقال الطلاب الآخرين، وانزال صورة الرئيس المخلوع المعلّقة خلفه وتمزيقها ورميها على الطلاب المبتهجين من سطح المدرسة. كان أدهم سراج يعرّف عن نفسه بأنه قومي عربي لكنه ليس بعثياً، وماركسي لكنه بعيد عن الحزب الشيوعي السوري، "أنا مثل الاستاذ إلياس سلامة" كان يقول لأحمد البطم مؤكدا له بأنه سيعرِّفه عليه لا محالة.

بقي هذا "الأدهم" - كما كان يناديه أحمد البطم - صديقه الأجمل، لقية تفوق صناديق صحف والده، "عذباً كجدول" كان يقول له دائماً، "متدفقاً كنهر" أيضاً، يحب الشعر الحديث والحياة، يحلم بأن يصير شاعراً، يكتب قصائد مازال أحمد البطم للآن يحفظها كاملة، ويجدها من أجمل ما قرأ، يعمل ويدرس، وعلى جاهزية دائمة للغرام، غير آبه بأحد، لا يعوقه لا الفقر ولا الغنى، فقره وغنى أحمد البطم.

عندما سافر أدهم سراج في منحة دراسية إلى فرنسا للتخصص بالقانون البحري، فكّر أحمد البطم للمرة الأولى بالسفر، لكن سرعان ما تقهقرت تلك الرغبة، ودفنت في أرض اللاذقية، وصارت الرسائل التي تصله من أدهم أجمل ما يحدث له، وهو بدوره كان يمطره برسائله التي كان يكتب له فيها عن كل شيء، واجداً فيها فرصة لنبش نفسه.

عادة أحمد البطم في كتابة الرسائل إلى أدهم السراج بدأت قبل سفره بكثير، وجاءت مباشرة بعد إهداء أدهم سراج له رواية "أبناء وعشاق" د. هـ. لورانس، وقد كتب عليها "عليك بكلارا".

قرأ أحمد رواية لورانس وكتب له رسالة مطولة عن ما فعلته به كلارا، وعلى شيء من الغزل بها، وليجيبه أدهم بأن عليه أن يجد كلارا الخاصة به و"حارة القلعة مليئة بمن هنّ أجمل منها بآلاف المرات"، وليواصل أحمد البطم كتابة الرسائل إلى أدهم رغم لقاءاته المتواصلة معه، متخذا من علاقته مع النساء محوراً لها، وهو يبثه ما يعتمل في داخله اتجاههن، وخجله الأسطوري، وأنه يجدهن كائنات غامضة، بينما أدهم يجيبه بأن الخجل لم يوجد إلا للانتصار عليه، وأنه لا يتعدى الارتباك الذي يجب ضبطه وحمرة تعلو الوجه يمكن قتلها بألوان أخرى قد يجدها لا محالة إن وضع الحب نصب عينيه، والذي سيبدد كل الغموض ويجعلهن واضحات كالشمس.

راح أحمد البطم يستفيض أكثر في نبش علاقته المأزومة مع النساء ووجدها مناسبة لاكتشاف جانب فيه كان يتجاهله دائماً ولا يسمح له أن يعكر صفو أفكاره، وليكتب إليه مزيداً من الرسائل يؤكد فيها أن مشكلته ليست متعلقة بالخجل فقط، ويحدثه عن أنه يبحث عن أمه

فيهن، لا يعرف كيف يعثر على حب غير مشروط لا يدفعه إلى تكبد أي عناء، وإنما يهبط عليه، تماماً مثلما تحبه أمه مأولم يفعل شيئاً إلا أنه ولد من رحمها، كأن يقع في حب امرأة تقوده بجنون إلى الانغماس بها ولم يبادلها كلمة واحدة، أن تستقبله بروحها وجسدها بما يجعلها على موعد أبدي معه يتقرر في اللحظة التي يقع فيها عليها، "عليها أن تهبط علي لا أن أصعد إليها، على شكل غيمة لا تمر من فوقي إلا لتبقى.. فكل ما يهبط عليك يستقر ويدمغك، أما ما تطاله فسرعان ما يهجرك.. هذا شعور حقيقي يتملكني وليس مبرراً لخجلي أو عجزي.. صدقني" وليبقى وفياً لهذه الحقيقة وهو يتعرف على نساء كثر لا يتركن لديه أي أثر يذكر.

عاد أحمد البطم إلى لقاء أدهم سراج كما في السابق، وكله ثقة بأنه مازال "القرصان الأول في ذكرى المعركة الأخيرة" كما كتب له عندما أهداه رواية "على جسر الدرينا" منذ أكثر من خمس عشرة سنة، أو أن أدهم سراج ما زال ذاك الذي يكتب "دموع حبيبتي عناقيد بلا أغصان".

صار لقاؤهما يتكرر يومياً في مقهى "السويس"، يمضيان سوية ساعتين أو ثلاثاً وهما يتبادلان أحاديث لا تنتهي، يمارسان حنينهما الذي ينقطع بمعارفهما الكثر، أو تحول الطاولة التي تجمعهما إلى محج لأصحاب الطلبات التي يتعامل معها أدهم سراج على قدر واحد من تلبيتها متى كان بمقدوره، يسعى إلى توظيف أحدهم، يتصل من هاتف المقهى إن كان من مشكلة عاجلة تمر من أمامه، يحقق حلم شاب بالعمل كبحار على إحدى السفن .. يقول لأحمد البطم: "هذه سعادتي".

سعادة أدهم بصديقه تجعله يرغب بأن يبقى معه دائماً، فهو يتبع جلوسه بالمقهى بالانتقال إلى مطعم "سبيرو" حيث يجد طاولة محجوزة له

على الدوام، يسرف فيها أدهم سراج في كل شيء، مستقبلا كل وجوه السلطة من وزراء أو ضباط جيش ومخابرات، أعضاء قيادات في حزب البعث، نقابيون، ووفود أجنبية وأخرى عربية، ودائماً ما يقول أدهم لأحمد سيأتي اليوم محمد البيسان وعلي مكنون مذكراً إياه بأصدقاء مشتركين صاروا من أصحاب المناصب، وفي اليوم التالي يقول له "علي بيسلم عليك.. صار أمين فرع الحزب في حلب.. ومحمد مشتائلك بتعرف أنو صار وزير التخطيط"، معلقاً دائما "استلمنا البلد"، وليسأله أحمد:

- صرت بعثي؟

فيجيبه أدهم كما لو أن أحمد البطم يذكره بشيء شديد الأهمية:

- ما أنا بعثي أكتر من البعثيين!

كان أحمد البطم يبحث عن أدهم سراج الشاعر، ويسأله هل مازال يكتب تلك القصائد، ليجده ساهماً في مكان آخر مؤكداً له "كل شيء ضد الشعر" ويذكره أحمد بقصائده التي يحفظها، فلا يملك أدهم إلا أن يقول له "يلعن سماك شو حلو.. والله أنا نسيتهم"، ليعود لأحاديثه عن الأصدقاء، ولا يجده إلا مرتبكاً حين يتذكر أسماء أصدقاء مشتركين يقول عنهم بصوت خافت:

- صاروا بالبيت بعد التصحيح!

في داخله كلام كثير لكنه صامت.. يعرف بعلاقتي بسلمى أنا متأكد.. لم يسألني إلا مرة واحدة عنها.. فضحته عيناه لقد قالتا الكثير وهو يحدثني عن ولادتها وكيف ساعدها ووضع في خدمتها سيارة مع سائق.. يلعن غسان البراني ويشتمه ويرق على سلمى مسكينة دائماً مسكينة تركها الواطي واختفى.. يتكلم عني..

أفعاله أفعال شاعر.. مازال يغامر بكل شيء وإن قبل بالعالم كما هو.. أشعر بقلق دائم عليه وهو يبادلني الشعور كما لو أنني أنا فقط من يستحق القلق أما هو فأموره عال العال يلبّي الطلبات ويحقّق الرغبات..يذكرني دائماً بأنني دفعت عنه بدل العسكرية.. اللعنة من كان سيفعل ما لم أفعل.. يضحك دائماً بعصبية مشغول عن نفسه بحياة بعيدة تماماً عما كان يريدها.. صارت من الماضي.. يغطي على نفسه بشخص آخر بأناقته المفرطة بسيارته الحكومية بزواجه الذي سقط به كما لو أنه يريد التأكيد على تلك الحياة.. لم يتزوج من تلك النساء اللواتي هام بحبهن هرب إلى أقربائه وتزوج كما لم يتوقع أحد.. سعيد بابنه الآن إنه الشيء الوحيد الذي لا يشوب كلامه عنه أي غموض يسترسل ويريد أن يكون حديثه عنه فقط

مضى أحمد البطم للمرة الأولى خلف تنظيم وقته، يستيقظ في السابعة صباحاً، يجلس إلى طاولته ويغرق في أوراقه، أحياناً يضعها جانباً ويقرأ كتاباً، ويظل مطبقاً على نفسه حتى الساعة الثانية والنصف، حينها تأتي أمه ويتناول الغداء معها، أو يذهب هو لعندها، متبعاً ذلك بقيلولة، ثم يمضي إلى مقهى السويس ليلتقي أدهم سراج، ولا يغيب عن طاولة صديقه إلا عند زيارته للأستاذ إلياس، وتحديدا يوم الخميس الذي يشبه إلى حد بعيد الصالون الأدبي والفكري، حيث يلتقي كتاباً ومفكرين وباحثين بشتى الأصناف والأنواع والانتماءات، يعجب ببعضهم وينفر من أكثرهم، لكنه وإن اختلف مع الاستاذ إلياس في آراء قليلة، إلا أنه يشعر دائماً بأنهما متفقان حيال أشياء كثيرة أولها الأشخاص، يعرف ذلك من حدة الأستاذ تجاههم، من طريقة كلامه، من تعابير وجهه وإن كانت مكسوة دائماً باللطف.

من بين من كانوا يترددون على صالون الأستاذ إلياس تعرف أحمد البطم على البروفسور حنا سيّوف الذائع الصيت كعلاّمة تاريخي وموسيقي، وقال له الأستاذ إلياس حين عرَّفه عليه "إنه صديقي الأعز ومكملي الأكبر لأننا نختلف في كل شيء"، وأضاف بالفصحى أيضاً "كلانا نؤمن بأن اللاذقية نهاية الكون، سافرنا كثيراً ولم نعد نقوى على مفارقة بحرها" وليعقب البروفسور" اللاذقية لا تذهب هم يأتون" متحدثاً عن رفضه للدعوات التي تأتيه من جميع أصقاع الأرض، وتفضيله ترشيح أحد أتباعه الكثر، الأمر الذي انتقلت عدواه إلى الأستاذ إلياس بحيث توقف عن السفر تماماً، وكان شرطه الأول ليرأس تحرير مجلة تصدرها جامعة الدول العربية بأن يحررها من اللاذقية.

توطدت علاقة أحمد البطم سريعاً بالبروفسور، أمام اهتمامه المفرط به، ودعوته ألا تقتصر زيارته له على صالونه الموسيقي المنعقد كل يوم اثنين. جذبه البروفسور أولاً إلى الموسيقى وراح يسمع أغاني لم يسمع بها من قبل لمنيرة المهدية وفتحية أحمد، وأغاني من تراث اللاذقية "سالم حبيتو قلبي وعطيتو"، و"يا شجرة الليمون يا عيناي"، و"يا مسافرة بالبحر جاي ودعك" التي ما أن سمعها حتى سكنته، صار يرددها دائماً ويجد فيها روح اللاذقية وهو يتأمل كلماتها: "حمّل سلامي للهوى وودي معك، لكن بخاف من الهوى ومر النسيم، قلبي بيروح يوصلك ويرجعك.. ساعة نزولك فِ البابور لا تفزعي قلبي موتور والبحر من مدمعي، ضلي اذكريني في غيابك وارجعيلي، لزّيلي قلبي وهو يبقى يتبعك...." يؤديها مغنون ومغنيات يحضرهم محمد حجار الذي تعرّف عليه بوصفه مؤسس أول معهد موسيقي في اللاذقية مستمتعاً بأحاديث

أكثر مرحاً من تلك التي تدور في صالون الاستاذ إلياس، حيث يتجادلون في الموشحات والقدود الحلبية، بينما يروي لهم محمد حجار قصة سفر الشيخ علي درويش من حلب إلى القاهرة، ويستحضر كل من يعتبرهم آباء القدود، وليقاطعه البروفسور دائماً عندما يجده قد استرسل كثيرا في استعادة ملحنين كثر لا يعرف أحد من الجالسين عنهم شيئاً، أو تحول النقاش إلى تنظير تخصصي بحت، فيسأله أن يغني من "القلب مال للجمال" لبكري الكردي، أو لأي من الأسماء التي يذكرها "من المهم تذكر هيك أغاني" كان يبرر تدخله.

أهداه البروفسور مؤلفاته وفتح أمامه مكتبته الأسطورية في قصره، الناجي الوحيد من أن يتحول إلى مدرسة أو شعبة حزبية كما صارت إليه قصور عائلته، وقال له إنه يستطيع استعارة ما يشاء من كتبها التي تخطت العشرين ألف كتاب ومخطوطة، وأكد له مراراً ترحيبه به في أي وقت، بحيث تحول ما صار يدور بينه وبين البروفسور من نقاشات إلى تشويش جديد على منهاجه، وعبء جديد جعله ينكب على قراءة ما يزوده به عن لاذقية ما قبل التاريخ، وأوغاريت المسكونة بالكنعانيين، والأبجدية الأولى المكتشفة فيها، وأن في اللغة العربية الكثير من اللغة الأوغارتية ، مؤكداً له أن التشابه الحقيقي مع الأوغارتية موجود في لهجة اللاذقية وريفها.

عايش أحمد البطم البروفسور وهو غارق في بحث معمّق عن تاريخ "دير الفاروس" شمال اللاذقية، وهو ينقب عنه ولم يعد له من أثر سوى الاسم الذي تحمله المقبرة الأرثوذكسية التي تسمى مقبرة الفاروس، وإنجيل موجود في روسيا مؤلف من ٢٨٣ ورقة من جلد الغزال.

لاحق أحمد هوس البروفسور، تعلم منه المواظبة وصعّد في داخله رغبة عارمة بأن يطبق على شيء فلا يفلته حتى يكون قد فرغ منه، وأصبح شاهداً على حيرته أمام تضارب المعلومات والمصادر، وكيف أنه يؤمن بالحدس الذي لا يخون أبداً، لكن بعد أن يكون قد نبش كل ما يمكن أن يحمل شيئاً يتعلق بموضوعه، مبعداً أية فرضية تقول إن الفتح الإسلامي قد قضى على الأديرة في سورية بأدلة وجدها دامغة، مثبتاً من مصادر كثيرة أن "دير الفاروس" تهدم واختفى في نهاية القرن الخامس عشر معزياً ذلك لسببين لم يستقر على واحد منهما، الأول هو زلزال ضرب اللاذقية عام ١٤٦٩، أو أنه تيمورلنك الذي احتل سورية عام ١٤٠٠، وليطّلع أحمد البطم على أن أبا العلاء المعري تلقن الفلسفة اليونانية والديانتين المسيحية واليهودية في ذلك الدير مستعيداً قصيدته "في اللاذقية ضجة/ ما بين أحمد والمسيح. هذا بناقوس يدق/وذا بمئذنة يصيح. كلّ يمجد دينه/ يا ليت شعري ما الصحيح".

استوقفت رقة البروفسور أحمد البطم دائماً، كان يتفحصه ويجده ورد ياً ذا بشرة ناصعة البياض وعينين ملونتين، يمسك الأشياء بأطراف أصابعه، وإن أحضر له كتاباً فإنه يحمله كما لو أنه رضيع في المهد. يستقبل كل ما يقوله بفرح غامر، يكفي أن يقول أحمد البطم "شكراً" حتى تصيبه سعادة بالغة، يجده يشبهه في كل شيء ولا شيء في آن معاً، نفس النشأة الارستقراطية التي لا يأتي على ذكرها أبداً، وإن حدث وكانت حاضرة في أحاديث من حوله فإنه يشعر بخجل شديد كما لو أنها تهمة تلاحقه، وسرعان ما يغير الموضوع. فهو وحيد وأعزب ووريث لأملاك كثيرة قُضِم نصفها في الإصلاح والتأميم، ويعرف الإنكليزية

لكن بدرجة أقل من الفرنسية والإيطالية اللتين يكتب بهما أبحاثاً مطولة، ومثل أحمد البطم أيضاً محاصر بأناس كثر إلا أنه منطوٍ، يختلف عنه بأنه لا يخضع لمزاجه، ويعرف جيداً ما الذي يريده، متصالح مع كل أفكاره، مؤثر جداً في جميع أرجاء اللاذقية، له أن يقرر أسماء الشوارع وأن يدفع البلدية إلى نصب أعمدة رومانية مكتشفة في أماكن متفرقة وأن تكون اقتراحاته شبه مطاعة من القيادات.

لم يكن تأثير شخصية البروفسور طاغية على أحمد البطم مثلما كانت عليه شخصية الأستاذ إلياس، كانت الاكتشافات والمعارف الكثيرة التي وضعها أمامه وحدها تفعل فعلها فيه من دون أن يعرف، وهو مصرّ دائماً على إطلاعه على ما يصله تباعاً من بعثات الاستشكاف الأثرية والجامعات الأوروبية على أمل أن يأخذه إلى عوالمه، وأن يجد في اللاذقية ما يجده هو، "اللاذقية الأوغاريتية، الرومانية، ومن ثم العربية بوصف ذلك اتصالاً بأوغاريت لكن بعيداً عن أسلمتها".

أبدى البروفسور إعجابه بمنهج أحمد البطم المتلاطم بنبرة لم تخف المجاملة التي حملتها، تاركاً لتعابير وجهه أن تفضح ما لم يقله، منتقلاً إلى توصيف ذلك بعبارة بقي صداها يتردد طويلاً في رأس أحمد البطم، لا بل كانت أشد قوة من كل زلازل اللاذقية التي لم ترحمها طيلة تاريخها القديم.. قال له:

- أنت دكتور جيكل الفقر ومستر هايد الغنى أو دكتور جيكل الغنى ومستر هايد الفقر.

وجدها عبارة طويلة جداً، خلص بعد فروغه من سماعها إلى أنها إهانة كبرى له، إهانة لم يكن البروفسور يقصدها أبداً، لا بل إنه ومع

تلفظه بها فوجئ بصمت أحمد البطم المتجهم ومغادرته قصره من دون أن يقول كلمة واحدة، وقطعه أي اتصال به، ولم تنجح كل دعوات البروفسور واتصالاته في إصلاح ما انكسر، حتى أنه لم يحظ بفرصة لمعرفة سبب كل ذلك، رافضاً تصديق أن تكون عبارته تلك السبب الوحيد لقطيعة أحمد البطم له.

تدخل الأستاذ إلياس، ولجأ البروفسور إلى أدهم سراج ليتوسط له لدى أحمد البطم، لكن من دون أن ينجح أي منهما في زعزعته عن شطب البروفسور تماماً من حياته، لا بل إن أدهم سراج لم يبذل أي جهد من اللحظة التي قال له فيها أحمد البطم "ما تحكيني عن حنا سيوف"، فلم يفعل كونه عرف بالحال بأنه حاسم تماماً في ذلك.

خرجت سلمى من بيتها مسرعة باتجاه صيدلية "رحمة" في شارع "بورسعيد"، وراحت تركض وتلاحق ظلها الممتد أمامها في خميس شتوي موحش، وما أن تلقفت خافض الحرارة ودفعت ثمنه، حتى سمعت ابنها يبكي في أذنيها ودمها وخلاياها كما لو أنه بقربها تماماً.

عادت إلى البيت بكل ما أوتيت من سرعة بينما ظلها يلحق بها وكلها تحرّق لأن تطير وتقفز بعيداً عنه وتستقر في بيتها الذي بدا نائياً في أبعد نقطة من كرة أرضية لا معنى لدورانها ما لم تضعها مباشرة أمامه.

وجدته غارقاً في نوبة بكاء عارمة، مشتعلاً وحارقاً من وطأة الحمى عليه، ضمته إلى صدرها الذي لم ينجح حنانه في إيقاف بكائه الذي صار أشد وأعتى، وعلى مقربةٍ من أن يفتت سقف البيت ويصعد إلى السماء التي استرقت النظر إليها وهي تركض فوجدتها شاحبة تنذر بالحزن، بالأسى الذي هبط عليها دفعة واحدة وفتت قلبها وهي تلقمه الدواء، وتمسك دموعها وقد وجدت أخيراً فرصة لا تعوض في أن تذرفها حين توقف ابنها عن البكاء لدقائق وعاد لتمتزج دموعه بدموعها.

لم تكن في وارد أن تستسلم تماماً لمشاعر جامحة لليأس، ولا أن تفتح الباب أمام حمولة هائلة من القنوط، أوصدت كل ذلك، انغمست في مراقبة ابنها الذي توالت شهقاته لتأخذه إلى شاطئ النوم، ارتطمت به

موجات الحمى إلى أن تضاءلت، وأصبحت دافئة بعد أن كانت حارقة لا تعرف الرأفة بجسد صغير.

ما رح اتركو دقيقة لحالو، عليه أن يبقى كما كان في شهوره الأولى ملتصقاً بها كعضو من أعضائها، تحمله أينما تذهب كجزء لا ينفصل عن ذراعها، لا تخرج من البيت إلا لحاجات طارئة وضرورات قصوى وكلها خوف عليه وجسده الأقل وزناً من الأكياس التي تحملها.

ومع بلوغ ابنها سنته الأولى نجحت بالخروج بدونه لمرات عدة مستغلة نومه، وبدا لها ذلك نجاحاً طالما أنها كانت تعود قبل أن يستيقظ، محققة شرطاً لا تحيد عنه، يتمثل بعدم تجاوزها العشر دقائق أو الربع ساعة كحد أقصى، وعليه كانت تذهب إلى دكان أبو خليل ركضاً تشتري حاجياتها وتعود من دون أن تمنعها مشترياتها من الركض مجدداً، لتصبح من جديد حديث أهل "الزاروب" وشارع "بورسعيد"، وتحمل بجدارة لقب "سلمى النطاطة" الذي أطلقه أبو بدر وتبنته جاراتها كرد على رفضها عروضهن بمساعدتها، ليمتد وينتشر بعيداً عن أسبابه أو أسباب سلمى في أن تركض من مكان إلى آخر.

تسربت إلى سلمى سكينة مفاجئة عندما نام ابنها وانحسرت حرارته بقدر جعلها تتحرر من الخوف، وتتفرغ لمراقبته ومعالمه التي تختلف أكثر مما تتشابه مع ملامح وجه أحمد البطم، يمتلك الأنف نفسه بقياساته مفرطة الدقة والأناقة، مع اختلافات في عظام الوجه التي تأخذ بابنها إلى رقة تتجاوز رقة أحمد التي تتسع لقسوة جامحة متى استحضرها.

كانت متأكدة من ذلك من دون أن تضللها براءة طفلها الذي لم يكمل السنتين، وهي تمضي خلف تخيله شاباً أو بعمر أحمد البطم،

وتستعيد تحول عينيه المغمضتين الآن إلى اللون العسلي طبق لون عينيها، بعد أن فارقتا الأزرق الذي كانتا عليه في شهوره الستة الأولى. عينان واسعتان ومن ثم مقطبتان عند نهايتهما، مملوءتان فرحاً تعجز تماماً أمامهما عن متابعة أي شعور بالأسى، فرح يحيرها، لا تعرف من أين يأتي به وهي لم تذق إلا الحزن والوحدة طيلة حملها به، فرح يدفعها للاعتقاد بأنه يواسيها ويساندها كما لو أنه يحس بكل ما في داخلها.

سمعت سلمى وهي تتفحص ذراع ابنها اليسرى والشامات الصغيرات الثلاث على مرفقه طرقات خفيفة على الباب، صارت أكثر إلحاحاً مع تلكؤ سلمى. فتحت الباب لتجد أمامها امرأة هائلة الحجم، يضج كل ما فيها بكبره وتناسقه، وعلى وجهها ابتسامة كبيرة أيضاً بدت كأنها أداتها الأبدية في مواجهة ما يثيره مظهرها الخاص بمن أمامها.

قطعت صمت سلمى قائلة:

- ممكن ادخل؟

أجابتها سلمى وهي تتفقد خطوط وجهها الواضحة، وعينيها الكبيرتين فاقعتي الخضرة، وفمها المترامي بشفتين مضغوطتين بأحمر فاقع:

- تفضلي!

تقدمت بثقة، ومرت بالقرب من سلمى الواقفة قرب الباب كما لو أنها تجتاحها وتغمرها، ولتلتفت إليها وترمقها بنظرة تدعوها إلى إغلاق الباب واللحاق بها. واصلت بخطوات بطيئة وهي تتفقد بيتها، جلست على الأريكة وقد زرعت على وجهها ابتسامة غير التي طالعت سلمى مع فتحها الباب، أظهرت فيها أسنانها الناصعة البياض والكبيرة أيضاً.

لم تعرف سلمى من تكون! ولمَ هي هنا! كانت متأكدة فقط من أنها لم ترها من قبل، لأنها لو فعلت لما كانت ستنساها أبداً، إنها من النوع الذي تتشربه العين من أول نظرة.

انكسر الصمت في الحال بحديث ضيفتها الطارئة، وكلماتها المتدافعة، مستعيضة عن التقاط أنفاسها بضحكة تحولت إلى لازمة لا تفارق حديثها وتعريفها عن نفسها بمنال العارف زوجة الرائد محمد كرم. ولدى قولها بأنها تسكن في البناية نفسها التي يسكنها الاستاذ أدهم سراج عرفت سلمى بالحال أنه هو من أرسلها أو زوجته، وليس فضولها كما قالت وهي تراها تركض من مكان إلى آخر، وسؤالها عنها، وحديثها عن ألسنة الناس التي زادتها إصراراً على التعرف عليها.

ما سمعته سلمى من منال كان يشبهها تماماً، لا تنتهي من حديث حتى تنتقل إلى آخر، لا تمنح فرصة لسلمى لقول كلمة واحدة بخصوص ما تسمعه، وإن بدا على وجهها تعبير ما، تقطيبة جبين، ابتسامة، فإنها سرعان ما تهجره كون منال تكون قد انتقلت إلى الحديث عن شيء مغاير تماماً تبدو فيه ردة فعل سلمى السابقة لا معنى لها.

لم تكن سلمى مرتاحة لهذا الكائن الغريب، وشعرت بضيق شديد من جراء انتقالها دون مقدمات من صمت مطبق إلى صخب لم تعهده من قبل، ليأتي بكاء ابنها من الداخل كمخلص لها وموقظ لهلعها وهي تنتفض وتمضي إلى غرفة النوم وخلفها منال، التي خطفت ابنها من بين ذراعيها صارخة:

- الولد نار شاعلة!

وخرجت من باب البيت راكضة به وسلمى تلحق بها مثل منومة تتخبط بنفسها، تجهد لأن تتبعها وتسألها إلى أين هي ماضية بابنها.

ما هي إلا دقائق حتى وجدت سلمى نفسها جالسة في المقعد الخلفي لسيارة "لاند روفر" عسكرية، وصوت منال على تواتره يستحث السائق "يلا يا محمود عالمستشفى العسكري ".

حدث كل شيء بسرعة، تمت معالجة ابنها ولم تدرك حتى ما المرض المصاب به، لكنه بدا خطيراً ومنال تزيد من هلعها من دون أن تعطي سلمى فرصة سؤالها.. "كل شي تمام" قالت منال وهي تخرج من المستشفى ومعها كيس مليء بالأدوية..

- شو يعني تمام؟

- نزلة برد والتهاب لوز.

- ما أنا عارفة .. يعني وئعتي ألبي على الأرض.. قلت يعني -

- شو يعني ما الولد كان نار!

منعت سلمى نفسها من الانفجار في وجهها، أو ضربها وصب نهر من الشتائم عليها، **لك من وين طلعتلي بس خوفتني وعجئت حالها ورحنا عالمستشفى ورجعنا بس بدي وصل عالبيت لتحل عني**، كانت سلمى تسترق النظر إلى منال الجالسة في المقعد الأمامي وتخاطبها كامدة غيظها وغضبها، وابنها في حضنها بحرارة أقل.

حين أوصلتها السيارة إلى بيتها، لم تشكرها ولم تقل شيئاً، نزلت من السيارة ودخلت مدخل البناية ولم تلتفت خلفها. لكن ذلك لم يمنع منال من أن تقرع بابها في صباح اليوم التالي، وتدخل بيتها وتطمئن على ابنها وإن كان قد أخذ دواءه في الوقت المحدد، وتشارك سلمى ارتياحها مع بدء تعافي ابنها قائلة لها:

- يلا عمليلي فنجان قهوة؟ مبارح كنتِ معذروة اليوم ما في أعذار!

وأضافت:

- والله إني حبيتك، ونحنا كان لازم نكون صحاب من زمان.

فتحت منال لسلمى كتاب حياتها كاملاً، من طفولتها حتى زواجها، وكيف كانت تحلم دائماً بالزواج من ضابط، "بس شوف نجوم ونسور على كتف الرجال بطير عقلي"، وكيف أنها لولا إخوتها وأخواتها الكثر لقتلها الملل "زوجي دائماً عندو مناوبات وما اجانا ولاد".

انصاعت سلمى تحت إصرار منال على زيارتها إلى صداقتها، وابتعدت عن الصورة التي شكّلتها عنها في البداية بكونها لا تختلف بشيء عن جاراتها الثرثارات، ومع الوقت صارت سلمى متعلقة بها، تحتفي باختلافها الشديد عنها، وبأحاديثها التي لا تنتهي، لا بل صارت مدمنة على تلقف أخبار كل ما يجري في حارتها، وصولاً إلى اللاذقية بكاملها.

كانت منال تتمتع بقدرة عجيبة على تلقف كل صغيرة أو كبيرة قد تحدث في اللاذقية، وببراعة عجيبة في سرد النكات وتحديداً الجنسية منها، مشتركة بذلك مع أخواتها الأربع الأصغر منها: فاتن وسهى ونهى وخلود اللواتي يشكلن أحد مصادرها الإخبارية، فحين يجتمعن تتحول جلستهن إلى مسح كامل لمجمل "أخبار البلد" كما درجن على تسمية أخبار الولادات والزيجات والطلاقات، والمشاكل العائلية، والصراع على الميراث، والحفلات، ومحلات الألبسة والحلاقة النسائية المترافقة مع تقييمات وخفايا وإشاعات، مع حفلة استغابة قد تستقر على شخص

بعينه فيتم "نتفه أو نتفها"، من دون رحمة بأحد ومن دون أي استثناءات بمن في ذلك والدهن ووالدتهن وإخوتهن.

قد تتحدث منال عن والدها "البصباص" وكيف قال لها "ما في عندي شي شغّال غير عيوني" عندما ضبطته يتلصص على جارتهم أم وليد، لتجيبها فاتن "كان هالكها لأمي هلأ عف عنها وريحها المسكينة"، ولتخترق أحاديثهن بخفة غرف النوم والعلاقات السرية، وتتناثر الكلمات البذيئة وفق استخدامات خاصة، فتصبح كلمة "شرموطة" مفردةً للتحبب، مع الحرص على تراكيب جديدة واستخدمات مبتكرة، فخلود تصف امرأة عاشرت رجالاً كثيرين بأنه "مرّ عليها أشكال وألوان وأحجام أكتر من المطهّر"، بينما تحدثهن منال عن السائق محمود الذي أخبرها قصة عن عشوره في "المينا البيضا" على "غريق أكلته الضفادع البشرية"، ومن بين ضحكهن الصاخب تعلق منال "الجحش مجند بالبحرية ومفكر الضفادع البشرية سمك أو حيوانات"، وتضيف نهى "يلا بعدو جديد بالبحرية كلها عشرين سنة وبيصير يعرف الضفادع الحيوانية"، وفي واحدة من الجلسات وبحضور سلمى تصادف وجود جريدة على الطاولة التي تتوسط صالون بيت منال، أخذتها سهى وراحت تتصفحها، بعد ذلك بقليل غرقت في ضحك اشترك فيه الجميع عندما قرأت عليهم "مفاعل ديمونة المنوي" بدل "النووي".

سرعان ما تبددت دهشة سلمى بتلك الأحاديث التي كانت تظن أنها حكر على الرجال فقط، صارت تجدها أمراً عادياً لا يدعوها إلا إلى مزيد من الضحك، وخاصة مع الطرافة المتأصلة لدى منال وأخواتها والجاهزية الدائمة للسخرية من أي شيء، والتي راحت تخفف من قلقها

ومخاوفها من المجهول الصفة اللصيقة بكل ما هو آت بالنسبة لها ولابنها.

أصبحت أكثر استرخاء بعد أن تحولت منال إلى معينها الأكبر ورفيقتها اليومية، بما خفف مباشرة من عبئها على أدهم سراج "أبو المفهومية والأكابرية" كما تصفه منال، والذي كان حريصاً دائماً على تفقدها والسؤال عنها وتوفير احتياجاتها وإن لم تسأله شيئاً، مع شعوره الدائم بالتقصير الذي يطالعها به متى التقت به، رغم كونه وزوجته الشخصين الوحيدين اللذين زارها في المستشفى أثناء ولادتها، وقد خصص لها جناح خاص في "المستشفى الوطني" أمضت فيه سلمى أكثر من شهر، خوفاً عليها من عجزها عن رعاية ابنها وجهلها ذلك.

زارت سلمى برفقة منال زوجة أدهم سراج مرات عدة، ووجدت فيها امرأة مختلفة عن كل من تعرف، تتحدث بأناقة مفرطة، وبلكنة خاصة جداً تدفع سلمى في أحيان كثيرة إلى مبادلتها الحديث لا لشيء إلا لتسمع رنين كلماتها، كانت ثيابها مختلفة، زينتها، أحذيتها، حليها، عطرها، أثاث بيتها، فناجينها، مذاق قهوتها، رائحة طبخها، ومنال توافقها من دون أن تفوتها تعليقات مثل "شايفة حالها" أو "مفكرة خلقها الله وكسر القالب"، بينما سلمى تسمعها وتتفق معها بصمت طالما أن فداء صباغ بقيت دائماً متحفظة، تتعامل معها ضمن حدود لا تسمح لها بتخطيها وقد كانت مودتها دائمة التعالي.

لم تستوقف سلمى كثيرا هذه الحقيقة، حافظت على علاقتها مع فداء صباغ كما أرادتها الأخيرة، زيارة كل ثلاثة أشهر أو أكثر، وبقيت بالنسبة إليها زوجة الأستاذ أدهم فقط، من دون أن تشعر بأي حاجة لها

في حياتها بوجود منال التي تعزز حضورها أكثر فأكثر بوصفها حبل نجاتها من الوحدة، معبرها إلى الحياة التي فارقتها، مستعينة بها لتعود إلى عملها في "الريجي"، لا بل إن منال كانت ترجوها أن تترك ابنها عندها وتذهب إلى حيث تريد "كرمال الله خليه عندي" وكلها عشق لهذا الولد ورغبة بأن تكون أمه أيضاً؛ وهذا ما صارت تفعله سلمى، تترك ابنها عند منال وتمضي إلى عملها، تغرق بالعمل وضجيج الآلات، وثرثرات نساء تجدهن الأقرب إليها، ببساطتهن القروية، ومشاكلهن العائلية، وأحلامهن البسيطة. تعود وكلها شوق إلى ابنها، تأخذه من عند منال التي تقابلها دائماً بدعوتها لأن تبقى عندها حتى وإن جلست معها ساعات طويلة.

كانت سلمى تمر يومياً بمحطة القطار في طريقها إلى عملها، ويوقظ صفير قطار مغادر أو آخر قادم كل حياتها، يضعها أمامها بلون صباحها لتستعيد تفاصيل تطفو عليها من حيث تدري ولا تدري، برفقة حزن شفيف صارت على موعد يومي معه. وحده أحمد البطم لم يكن يفارقها، يتبعها أينما ذهبت كطيف، كلعنة، يحاصرها بحضور أكبر كانت تطرده بانشغالها الكامل بابنها، بانتصار أمومتها على أي شيء آخر.. **السافل تركني من دون كلمة ما كلّف نفسو بالسؤال ولو مرة عني** ولتجد وصفه بـ"السافل" خطيئة لا تغتفر، كلمة لا تليق به مهما فعل، مستعيدة إياه كفارس يقتحم بيتها، محاطاً بهالة شبق ونبل، وحينها تتسيد ذكرياتها معه، جنونه، رقته، تقلبه بين الضيق والفرح والحزن.

ومع استعادتها رائحة التبغ التي تخرج بها من "الريجي" ولا تفارقها، صارت تستحضر كيف كان يشمها من رأسها إلى أخمص

قدميها، حتى أنها صارت متأكدة من أن إصراره على عملها لم يكن إلا لولهه برائحة التبغ على جسدها، وفي حقيبتها دائماً قصاصة ورق كتب لها عليها "كنت مطلية بالقطران، وعلى شفتيك حديث من نيكوتين، وكل ما يغطي جسدك أوراق تبغ مقطوفة للتو.. سأدخنك إلى ما لا نهاية، ستعيشين في رئتي".

تتذكر صوته وهو يقرأها عليها، شعورها حينها بأنها تسمع شيئاً جميلاً جداً لكنه غامض تماماً، ولتفهمه الآن وتمنع نفسها من الصراخ "كذّاب"، تحجم عن ذلك أمام استعادة وجهه من جديد وهو يمص أصابع رجليها وينفث الهواء كما لو أنه يدخنها واحدة واحدة.

عاجزة عن كرهه لتخلص إلى أنها لا تعرف أي شيء عنه إلا الغرام، وتلك القصص المجنونة التي كان يحكيها لها، تنبش كل ما تلفظ به فتجده غامضاً، يجمع الناس على توقيره، له حضور طاغ لدى الجميع، وما عدا ذلك فلا تعرف، وحين تفكر بأسباب هذا الحب الكبير له، لا تجد إلا ملامح وجهه، شخصيته، طريقته بالكلام، غرابة أحاديثه، وما يقال عنه إنه من الأغنياء لكنه يفضل أن يعيش فقيراً، مع أنها لم تشعر يوماً بأن من مثله قد يكون فقيراً، كل ما فيه يصرخ بالنعمة الوفيرة.

أحمد البطم اللغز صار يتصارع مع العاشق في داخلها، وهو في غياب تام، من دون أن يتبادر إلى ذهنها أي خاطر يمضي بها إلى سوء قد حل به، فهي كانت على ثقة تامة بأنه قد هجرها، وأنه ما زال في اللاذقية لكنه في مكان ما لا تعرفه، غير العلية المهجورة مثلها التي تجرأت وقرعت بابها مراراً وما من مجيب.

منال ومن غيرها عندو الجواب.. قالت وهي تصعد الدرج في

طريقها لإحضار إبنها.. ما أن سألتها عن أحمد البطم، حتى أصبحت منال لا تتوقف عن مديحه بداية، وسرد كل ما تعرفه عنه.

أخبرتها عن عائلته مستغربة جهلها بعائلة البطم، وقالت لها إن أحمد وحيد أمه الذي جاء بعد يأسها من أن تحمل بصبي، وأن والده مات بينما كان أحمد صغيراً. حدثتها عن أملاكه الكبيرة، وعن عمه صاحب البواخر وناقلات النفط بفرنسا، وكيف أن لأحمد نصيباً فيها.. "ما في أكرم منو، معيّش نص عيلات الحارة، ما بيرد حدا خايب". سمعت سلمى ولم تصدق ما قالته منال عن غنى عائلته المتوارث من جد جده الذي كان "خزندار" العثمانيين على امتداد الساحل السوري، وتجارة جده الذي كدس الأموال وانتحر "بيحكو انو شرب دمجانة عرق وضل يمشي بالبحر بخطوات عسكرية حتى غرق".

سألتها سلمى:

- وليش عمل هيك؟

- معروفين بالجنون!

أجابت منال. وانتقلت إلى مستوى آخر من حديثها تلاحق فيه جنون أحمد نفسه:

- يعني كان كل كام يوم بيطلع بشغلة جديدة! بتعرفي وين كان ساكن؟

لتومئ سلمى برأسها فتكمل منال:

- والله إنو مجنون، بعدين معروف عنو إنو ما بحب النسوان و بنات حارة القلعة كانوا يسموه غريغوري بك، وطاير عقلهم فيه، بس هو ولا هون!

ولتستدرك:

- والله بيشبه غريغوري بك، بس لهلأ ما تزوج، ضيعان هالحلاوة، لك بعدين مين بدو يورثو ما حدا عارف، وبيقولو انو عمو كمان ما تزوج ولا عندو ولاد.

لم تكتف منال بكل ما قالته، ففي اليوم التالي أكملت حديثها عنه ونسيت وسط انهماكها به أن تسأل سلمى عن سبب سؤالها عن أحمد البطم، وكلها خوف أن تكون بحاجة إلى المال وتفكر بسؤال أحمد البطم بدل أن تطلب منها.

استنفرت منال كل مصادرها لتجميع أكبر قدر من حكايا أحمد البطم، بعد ملامستها اهتمام سلمى بقصصه، وتحول الأمر إلى شغلها الشاغل، ووجدت متعة خاصة في تصيد أخباره المتوفرة بكثرة وقصصه المتداخلة من دون نهاية. نفضت الغبار عن قصة مفادها أن أحمد البطم ليس الابن الشرعي لخالد البطم، لكن هذا الأخير الذي عمل لفترة طويلة تاجر أسلحة، عثر عليه مهجوراً في قرية "الشيخ بدر" بعد أن تركه أبوه وأمه واختفيا، والده جندي مغربي كان يقاتل في الجيش الفرنسي، أسره رجال الشيخ صالح العلي، فقام الشيخ بضمه إلى صفوف قواته، "معروف عن الشيخ إنو كان يعامل الجنود المسلمين بهالطريقة" أوضحت منال، وبعد ذلك زوّجه الشيخ من إحدى فتيات القرية كمكافأة على شجاعته في قتال الفرنسيين، لكن منال لم تجزم إن كان المغربي هرب وحيداً أم مع زوجته، ومضت تصف لها كما لو أنها شهدت بأم عينيها وقوع خالد البطم على أحمد وهو لم يتجاوز الثالثة من عمره، وكيف تعلق به بجنون، وأخذه معه، وكيف استقبلته الست سعاد المرتجى وأحبته أول ما رأته.

وتوالت بعد ذلك قصص منال التي لم تعرف سلمى صدقها من كذبها، فسرّت مفارقة بيت العائلة وعيشه وحيداً في بيت قرب كنيسة "اللاتين"، بأنه فعل ذلك لدى اكتشافه أن سعاد ليست أمه، ومن وقتها اعتبر نفسه لا ينتمي إلى ما نشأ عليه، ووجد بأنه ينتمي للبسطاء والفقراء مشاركاً لهم أمواله التي ما عاد يعتبرها ملكاً له.. "صار صحابو الجبار وأبو مينة وأنبوزة".

بعد أيام أضافت منال معلومة كانت سعادتها بها كبيرة جداً، وهي أن أحمد البطم كان يحب أخته سناء، وأنه فقد صوابه لدى زواجها، وبما أن أحمد بالنسبة لمنال صار ابناً غير شرعي، فقد بدا لها هذا طبيعياً، لأن سناء ليست أخته و"لا حتى بالرضاعة"، كما أنها وجدت في تلك القصة تفسيراً لعزوفه عن النساء، ولم تسمح لكل ما استجد لديها من معلومات أن تغير ما أوردته على مسامع سلمى، وأول ذلك أن قصة الشيخ صالح العلي لا أساس لها من الصحة، لأن ثورته حصلت قبل ولادة أحمد البطم بعشرين سنة، مع تأكيدات ممن حولها بأن والده لم يتاجر بالسلاح يوماً.

لم تهتم منال بتصحيح أي من ذلك، بل اهتمت بمعرفتها أن سلمى كانت تعرف أحمد البطم، ولم تتردد لحظة في التحقيق معها، الأمر الذي قابلته سلمى بخوف كبير سيطرت عليه، وأحكمت قبضتها حوله لئلا يتسرب منه شيء تكون منال له بالمرصاد، ولم تتيقن من اقتناع منال بأن سبب سؤالها عنه لا يتعدى أنه كان على معرفة بزوجها، كونها لم تظهر أي رد فعل بل علّقت:

- أكيد كان يعطيه مصاري.

مرّت أيام سلمى بعد ما سمعته مترنحة تحت ثقل دهشتها بعالم أحمد البطم الآخر المجهول تماماً، وأدهشها أكثر عدم معرفة منال بعلاقتها معه ما دامت محتكمة على كل تلك المعلومات، من دون أن يفارقها الترقب والحذر.

اختلطت القصص أمام سلمى، تداخلت الحقيقة بالخيال، صارت ترافقها وهي تتمشى يومياً مع ابنها الذي تمكنت أخيراً من شراء عربة له، تمر من أمام كنيسة "اللاتين" على أمل اللقاء به، وتكمل مشوارها وصولاً إلى دوّار "٨ آذار" والنافورة الصغيرة التي تتوسطه، وتنعطف يساراً تمر بالقرب من مدرسة "الكرمل" نزولاً إلى الكورنيش تجلس في المنشية تتأمل ابنها وهو يركض ويلعب، وتعود من حيث أتت مارة من أمام بيت أحمد البطم مرة ثانية.

في أحد الأيام أكملت سلمى طريقها ولم تنعطف عند النافورة، وقعت على أحمد البطم جالساً مع أدهم سراج في مقهى "السويس"، رأته من بعيد من دون أي مجال للشك أو الخطأ وقد كان على الرصيف المقابل للرصيف الذي تمشي عليه، ما منحها فرصة لمعاينة مشاعرها المضطربة التي طغى عليها الخوف أكثر من أي شيء آخر، واجدة في الهرب أفضل ما تقوم به أمام تخبطها بأحاسيس غامضة ومجهولة نزلت بها الزقاق المفضي إلى "المحكمة العسكرية"، وأكملت مروراً بسينما "دمشق" ودخلت زاروباً ضيقاً أفضى بها إلى قيادة فرع حزب البعث، وعلى بابه رجلان يشربان الشاي وقد وضع كل منهما رشاشاً في حضنه، رمقاها بفضول من يرزح تحت وطأة ملل لا يرحم، سمعتهما يتبادلان كلمات تخصها، وصلتها كهمهمة وهي منشغلة عنهما بتخيل وقوع أحمد البطم

عليها مباشرة أو وجهاً لوجه، وتسارعت ضربات قلبها وهي تهرب من هذا الخاطر، وابنها يصرخ فرحاً بالسرعة التي مضت بها عربته.

وجدت نفسها في "الكورنيش"، بالقرب من المبنى القديم المهجور الذي ينتهي به، وصعدت إلى رأسها ذكرياتها مع أحمد البطم ومعها أفكار لا معنى لها بعيدة عنه تماماً، تذكرت أن هذا المبنى القديم كان مقر المندوب الفرنسي، وعندما لم تنجح بتذكر من قال لها ذلك، هجمت عليها ضربات قلب أحمد حين لامسها أول مرة مترافقةً مع حزنها عندما انكسر كعب حذائها العالي وهي تمشي به على سكة القطار لأول مرة في حياتها، هبطت عليها هالة الظرف زوجة قائد الكتيبة التي كان يضعها والدها عندها، ويذهب إلى دوامه، رأتها تضفر شعرها، تحنو عليها، اخترقت صورتها صورة ابنها وهو يعيش المصير نفسه، ووجدت في النسر على كتف زوج منال الرتبة نفسها التي كانت لقائد كتيبة والدها الحنون.. **كان رائد متل محمد كرم الرتبة الوحيدة اللي بعرفها متل بعض أنا وإبني حتى بالرتبة**

عندما وصلت بيتها لم ينجح انشغالها بتغيير ملابس ابنها وإطعامه في تشتيت غيمة الذكريات وأمطارها، بل استحالت داكنة، تنتصر للسواد والخلوص إلى أنها امرأة مهجورة، **هجرني أحمد متل الكلبة.. ما دست بيته.. مقامي العلية وابني عندو زبالة.. وهجرني غسان هرب للبحر.. وأبوي مات وتركني يعني هيك الرجال بكونوا ولا هادا نصيبي**

ظل ابنها يقفز حولها، ويسعى بكل ما لديه من صرخات وكلمات أن يلفت انتباهها إليه، وحين نجح في ذلك، صرخت به "ولا كلمة يلا

نام"، فأمسك نفسه عن البكاء بمعجزة، واستحضر النوم من تحت الأرض وغط به.

بعد الهدوء الذي ساد البيت، أصابها ندم شديد على أنها صرخت بابنها، ما زاد من انقباض قلبها. مضى الوقت بطيئاً وكله سياط تنزل عليها وتبرحها، وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، خرجت من البيت ومعها ملصقات المشروب الغازي البرتقالية، ألصقتها على باب علية أحمد البطم إلى أن صار برتقالياً تماماً، ورمت بما تبقى منها أمام الباب وعادت لتغرق في نوبة بكاء عارمة بمجرد أن أغلقت باب بيتها، ولا شيء أمامها إلا عجزها أن تكتب فوق الملصقات "سافل" كما كانت تنوي.

في اليوم التالي لم تذهب إلى العمل، لكنها كانت مضطرة للاتصال بمديرها باستخدام هاتف منال.

ما أن أنهت المكالمة حتى قالت لها:

- عرفت عن أحمد البطم إنو كان ما يمشي إلا والشارع على يسارو، حتى لو كان بدو يمشي خمسة كيلومتر لحتى يوصل لمحل يبعد عنو مية متر، والسبب حتى يعرف مين بيراقبو.. هيك قلي -

قاطعتها سلمى بحدة صارخة:

- كس أخت أحمد البطم وسيرته.. خلص!

صمتت منال لثوانٍ لتستوعب ما سمعت سلمى تتلفظ به، هي التي لم تسمع منها يوماً كلمة بذيئة، ولم تظهر حدة كهذه من قبل، لتقول لها وهي تستفيق من صدمتها:

- أيوه يا سلمى..برافو!

حاول أحمد البطم تجاهل رنين جرس باب بيته في فجر شتوي بارد، وكله ثقة بأنه سرعان ما يخمد وقد تحول إلى رنين متواصل، معتبراً أن هذا الإلحاح سيتبع بيأس من في الباب طالما أنه وصل الذروة.

خاب رجاؤه، أصبح رنين الجرس مترافقاً مع خبطات قوية على الباب، دفعته لأن ينتفض ويمضي مباشرة ليفتحه، فإذا بالجبار أمامه كما كان يتوقع.

لم يقل للجبار كلمة، ترك الباب مفتوحاً وعاد إلى سريره وهو يرتجف برداً، ما هي إلا ثوانٍ حتى كان ينظر إلى جزمة سوداء تصل إلى ركبة الجبار، ويصدر عن جانبيه صوت لهاث متلاحق لكلبي صيد على يمينه ويساره. رفع أحمد رأسه نحوه ومازال ممداً في السرير وقال له:

- صبحية حلوة مع الكلاب.

منع نفسه من الاستسلام لآثار مفاجأته واستوى جالساً في سريره ليقول بحزم:

- بشرفك خليهم برا؟

استجاب الجبار لطلبه بتململ، وتبعه أحمد إلى الصالون حيث كان باب البيت ما زال مفتوحاً وليخرج منه الكلبان في استجابة لحركة سريعة من يده.

بادر الجبار إلى الحديث قائلاً:

– هيك يا أستاذ بتوعد وبتخلف! قلت بدك تطلع معي عالصيد! وينك؟ ليش نايم؟ والله إنك تغيرت، ما متل أول، يعني لا بتسأل عني، وأنا كل مرة بمر عليك، والله إني زعلان منك، أنا وكل الشباب، يلا بخاطرك، أزعجنا فخامتك.

همَّ بالخروج، وأحمد يحاول استيعاب ما جرى، ومتى وعده بأنه سيذهب إلى الصيد. لحق به من دون أن يدركه أو تلقى نداءاته إجابة تذكر.

أدرك أحمد غباء اللحاق به ومحاولة استرضائه، فالجبار متى زعل فزعله جبار، والأفضل تركه لساعات قليلة أو يوم على أبعد تقدير ليغفر ما يكون قد اعتبره أحقر خطيئة على وجه الأرض.

طار النوم من عيني أحمد البطم، نظر إلى الساعة فكانت تشير إلى السادسة والربع، جلس على كنبته يتفقد حواسه المستنفرة باكراً.. **من غير الجبار يفعل ذلك صرت بعيداً عنه راحت أيام أبو مينة وشنّيكو وأبو علي الشتا**.. توالت الأسماء والقصص متجسدة كما لو أنها تحدث أمامه.. **كنت بحاجة لكلاب بغرفة النوم حتى أعرف ما أريده**.

جلس إلى طاولته وراح يكتب باندفاع محموم، ويلعن تلكؤه، وتبديده سنوات كثيرة وهو لا يفعل شيئاً، بدا له أن كتابة ما عرفه وعاشه من قصص هو أفضل ما يستطيع القيام به، والتخلص من وهمه بأنه سيؤرخ اللاذقية ويخرج بفلسفة مدينة لا مثيل لها في الكون.. **لا علاقة لي بكل ذلك**

"سأكتب ما أعرفه وفق التسلسل والتناسل، وفي ملاحقة كل شخصية على حدة، التي سترتبط بالتي تليها، لن أبالي بالزمن ولا الدقة التاريخية، سأترك ذلك للأستاذ والبروفسور، سأخلط الأزمنة، سيضرب

*الطاعون اللاذقية وسينزل القراصنة في" المينا البيضا" وتتصدى لهم طوربيدات البحرية. سأخرج البطرني من قبره وأجعله يتمشى في شارع بغداد. سأقرع أجراس دير الفاروس كما لو أن القداديس لم تتوقف يوماً، وأستعيد ما دمرته الزلازل، وأبحر من مينائها القديم على متن سفينة عليها أن تعبر من بين برجي المرفأ وقد انزلت السلسلة التي تربط بينهما، سيصرخ البحارة ها هو برج الحمام، وأنا سأبحث عن القنديل الذي يضاء في البرج الثاني. سأعيد بناء سور اللاذقية المنيع وعبادة بن الصامت لا يجد إلا الحيلة وسيلة لدخول اللاذقية، والتكبير الله أكبر الله أكبر من فوق السور" *.*

استوقفت أحمد كثيراً عبارة "التسلسل والتناسل"، وكان كل ما فيه يصرخ "وجدتها"، فقد خلص إلى أن منهاجه يكمن هنا، كل شخصية تأخذ بالتي تتبعها، كل حدث يتناسل من الآخر، لا ضوابط، لا التزم إلا بالتتابع.

بدأ على الفور بالتنفيذ، غرق في الكتابة كما لم يفعل من قبل ومضت شخصياته تتناسل من بعضها البعض:

---

* هذا المقطع وكل المقاطع التي تليه والمكتوبة بخط مائل هي من تأليف أحمد البطم .

* تم الفتح الإسلامي لمدينة اللاذقية سنة ١٥ هـ - ٦٣٦ م . وفي إشارة أحمد البطم إلى الحيلة التي اتبعها قائد جيش المسلمين عبادة بن الصامت استعادة لما أورده البلاذري في "فتوح البلدان" عن مقاومة أهل اللاذقية لابن الصامت وقد كان بها "باب عظيم لا يفتحه إلا جماعة من الناس فلما رأى صعوبة مرامها ، عَسكَر على بعد من المدينة . ثم أمر أن تحفر حفائر كالأسراب يستتر الرجل وفرسه في الواحدة منها . فاجتهد المسلمون في حفرها حتى فرغوا منها . ثم إنهم أظهروا القفول إلى حمص فلما حنّ عليهم الليل عادوا إلى معسكرهم وحفائرهم وأهل اللاذقية غارون يرون أنهم انصرفوا عنهم . فلما أصبحوا فتحوا بابهم وأخرجوا سرحهم . فلم يرعهم إلا تصبيح المسلمين إياهم ودخولهم من باب المدينة . ففتحت عنوة ودخل عبادة الحصن ثم علا حائطه فكبّر عليه .

"وقعت علي الأسماء كاملة، اختطفت قصصها أنفاسي، قفزت من جبل "الأقرع" رأيت سلوقس نيكاتور يصل البحر وهو يلاحق النسر الذي خطف لحم أضحيته، سمعته يقول: هنا "راميتا" ورحت أتخبط بين الأسماء مجدداً أسمعها "لوكيه اكته" وأرى اللاذقية كشاطئ أبيض - أليس هذا معنى الكلمة باليونانية- ليتبعها بـ "لاوذكية" اسم أم القائد سلوقس نيكاتور، إنها مدينة نيكاتور وتمضي في دمي خيل الاسكندر وقد ورث نيكاتور عنه سوريا.. يرق القلب بمجرد أن أستعيد "أغافي" أضحية المدينة البشرية، الحمقاء ماتت لتقام وتبقى هذه المدينة التي لم يرحمها شيء، أغافي كما لو أنها سلمى المأخوذة بما يزيد عن مدينة وما يتسق في "زاروب" تعامله كما لو أنه شريان، يا سلمى التي تعرف أن تنير طريقها في الشرايين، الجبل "الأقرع" مجدداً، موطن الأرمن الآن، جبل "الصفن" أي الشمال "الأقرع" نفسه وأنا أريد أن أمشطه بكلماتي، وأن تنبت على قمته الأشجار، ضد الإله بعل، رغماً عن إله العاصفة الذي يبتهل إليه بالأوغاريتية.

"الصفن" إنه نفسه سوق الصفن في اللاذقية، هل هو سوق الشمال؟ أم أنه للشرود وسكانه يضعون كراسيهم أمام بيوتهم ويجلسون "صافنين" بملكوت الإله والعباد؟ أم أنه صالح لاستعادة سليم ميراوي الذي أطلق النار فيه على عاهرته الأربعينية وأصابها في ملتقى فخذيها لأنها خانته مرة ومرارا مع ضباط وجنود فرنسيين، سليم قبضاي الحزب القومي السوري الاجتماعي، الذي سلّم نفسه ومسدسه للشرطة وكانت دموعه بلزوجة سوائل عاهرته المصابة في ثقب لذتها الحزين.

إبراهيم ابن سليم امتلك قوة خمسين ثوراً وهو قبضاي أيضاً لكن

بلا حزب ولا أحزاب، ربّى كلباً لا يشبهه بشيء، "بوبي" أبيض يمشي إلى جانبه فتشعر بأنه لا يمكن إلا أن يكون لعاهرة والده شهيدة الحب والخيانة، ينادونه بييرو ولا تصدق حين يجيب.

بييرو صار قبضاي الكنيسة البروتستانتية وتذكر الطحين ونجاة كثر من مجاعات الحربين العالميتين. بييرو نفسه أحب امرأة مطلقة ومحجبة من "بستان السمكة" اسمها فاطمة القشعور كان يلاحقها ويقسم لها بأنه مسلم بالأصل، ويريها قضيبه وكيف أنه مطهّر، بييرو لقي حتفه بعد أن نام مع فاطمة، "قشعر" بدنه، رمت به دراجته أمام عجلات سيارة مسرعة ولم يشته قبل أن تخرج روحه إلا كوب لبن.

فاطمة تزوجت مرة ثانية نجاراً كان يصفر لها طيلة صعوده الدرج إلى البيت فتحس أن قلبها يخفق وثقبها يرتجف، نسيت بييرو وقضيبه المطهّر أرادت أن تتحول إلى قلم رصاص أو مسمار من مسامير زوجها التي يحملها بين شفتيه ويطرقها بإحكام ودقة، وقد استيقظ يوماً على صوت أذان الفجر كما لو أن يداً إلهية أيقظته ، فذهب إلى الحج وأقام كل المناسك إلا رمي الجمرات وفاءً للشيطان وأيام جميلة وهبه إياها كما قال لفاطمة التي كان يحكم حجابها بيديه والحصوات ما زالت في جيبه.. صلى وصلى ولم يقو على إيلام من منحه أجمل اللذات بينما جاره جمعة المستطاوي يقسم بأنه لا يصدق ذهابه إلى الحج، ويقول له "أستطيع القيام بكل فروضي إلا الحج" ، وليصيب جمعة المستطاوي في اليوم التالي فالج أقعده البيت بعد خسارته محله في لعبة قمار مجنونة.

قال كثر إنه عقاب إلهي بينما نظر كثر أيضاً إلى السماء ولم يعرفوا إن كان العقاب له شكل غيوم داكنة كما قال لهم "أبو قدور

هاتلك قلبة" الذي يقسم بأنه عمل في مناجم الذهب في جنوب أفريقيا، وأنه زنجي أصيل من دون بشرة سوداء ويعرف نيلسون مانديلا وقد لعب معه مراراً "الطرنيب" ولهذا هو لا يخلع الخوذة الواقية الخاصة بالمهندسين، "إنها لعنة المناجم" كان يقول من دون أن يعرف أحد أيضاً لماذا يفقد صوابه إن قال له أحد "أبو قدور هاتلك قلبة" ربما الكولونيل من يعرف ذلك..صديق أبو قدور الوحيد الذي يعيش في مركبة من اختراعه مصنوعة من خشب صناديق البندورة ولها محرك دراجة "طرطيرة"، فيها سرير معدني صغير وشراع نايلون ينشره فوقه عندما يكون الجو ماطراً، الكولونيل اعتقلته المخابرات وهو يعبث بأجهزة راديو وارسال على شاطئ البحر، ومن وقتها صار كولونيلا بالموساد وأطلق سراحه بعد شهرين وهو يصر وتحت التعذيب بأنه لا يعرف الموسى ولا يحب الحلاقة، وليعرف من أبو قدور أن الموساد هو اسم جهاز المخابرات الاسرائيلية وليجيبه الكولونيل بـ "كس أخت إسرائيل ما حاجتهم فلسطين لاحقيني كمان على بحر اللاذئية"، وبنفس التهمة ألقي القبض بعد سنة على تقني سينمائي كان يسجل صوت أمواج البحر على الشاطئ، يوم صور مخرج عراقي فيلماً مجنوناً في "ابن هاني"و"حارة العوينة"، واستغرق إقناع المخابرات أسبوعاً ليفرجوا عنه قبل أن يصير أيضاً كولونيلاً في الموساد على اعتبار المسجل جهاز بث.

وتواصل الفيلم وكانت أعجوبة تصويره تستدعي من مخرجه وطاقم الفيلم التصوير في الخامسة فجراً هرباً من حصار الأطفال لهم. وسرعان ما منع الفيلم لأنه كان يحمل مشهد امرأة عارية بالكامل. الممثلة التي لم يرها الأطفال عارية بدأوا الاستمناء عليها بعد خمس سنوات على

التصوير وسافر كثر منهم في البحر وهم يبحثون عمّن يشبههما من عاهرات الموانئ التي كانت ترسو فيها سفنهم."

في الثانية والنصف ظهراً جاءت أمه، ولم يشعر بها إلا حين أصبحت قرب طاولته، حتى أنه انتفض من كرسيه حين وضعت يدها على رأسه فقالت:

- بسم الله عليك!

- امتى دخلت؟

- لك بشو غرقان، يعني اليوم ما إجيت لعندي؟

تمهل لئلا يجيبها بحدة كسابق إجاباته، فخرج صوته هادئاً بالكاد يسمع:

- غرقان بشي مهم ومبسوط فيه كتير، يعني هيدا اللي منعني من إني أجي، ويمكن يمنعني بالأيام الجاية، بس اطمني يعني أنا بأحسن حالاتي.

أراد أن يسترسل ويستحضر كل ما يطمئنها ويفرحها، لكنها قاطعته وقالت:

- إن شا الله دايماً!

تركته ومضت تتفقد البيت بحرص كبير على عدم إصدار أي صوت، تتنقل بين الغرف على رؤوس أصابعها، وأحمد البطم يواصل كتابته من دون أن يعرف ما الذي كانت تفعله، ولم يشعر حتى بها وهي تغادر البيت.

توقف أحمد البطم عن الكتابة مستجيباً لإعياء شديد أصبح يظهر جلياً على أدائه، فارق طاولته وقد استيقظ جوعه، فتلقف أي شيء من

الثلاجة، ولاحظ وجود طنجرتين كان متأكداً من أنهما مما أحضرته أمه معها، لكنه لم يتفقد ما بداخلهما، واكتفى بقطعة جبن، اتبعها ببرتقالة تكبد عناء كبيراً في تقشيرها. نظر إلى ساعته فوجد عقاربها مستقرة على العاشرة والربع، فمضى مباشرة إلى سريره، تمدد، وما هي دقائق حتى استسلم لنوم عاجل مخلفاً وراءه على الأوراق:

"لم تعرف الممثلة أنها كانت ستصير كليوباترا لو عادت إلى الأربعين قبل الميلاد حين أعلن مارك أنطونيو اللاذقية مدينة حرة لأنها ناصرت دولابيلا ضد كاسيوس، كانت ستنجو من زلزال لن تزل به قدمها وهي تواعد مارك أنطونيو عند المنارة أو سبتموس سيفروس، وترى رجلاً رقيق البنية يقفز من مكان إلى آخر كما العصافير وقبره الآن يغسله البحر، ستنصرف عن كل ذلك وتعود إلى دمشق، سيقول لها عزيز سيدة: "إنه قبر العصافيري" ويموت وهو يحاول كتابة قصائد تقطر رقة لا يقرأها أحد، سيقع بجسمه الكبير في "سوق الجمعة" وهو يحلم بالكناري، ولن يعرفه أحد إلى أن تأتي فتاة صغيرة بضفيرتين مالحتين وتشير إليه بإحداهما وتمررها على شفتيها علامة حزن وحيدة، "إنه من كان يراني خليجاً" تقول.

لن يتحدث أحد عن رأس البسّيط، سيكون للخلجان أن تستقبل البحر بذراعين مفتوحتين، وتنسى الشاعر عزيز سيدة ومعه المتنبي يرى النبوءة بأم عينيه في اللاذقية ولا مكان ليصدقه الناس إلا فيها، ومعه عشيق السيدة ليندا التي أرسلت إليه صورة لخليجها وكتبت على ظهرها "إن كنت بحراً فهنا مستقرك الذي لا تفارقه أبداً"، لم يفارق لكن صاعقة أرسلت بالخطأ وبتوقيت متوحش أودت به وهو داخل خليجها فدفنت

معه، ولم يُعرف لمَ وضعا على مدفع ولفا بالعلم السوري كما لو أنهما جول جمال*، لكن اسميهما لم تسم بهما المدارس وقد أصبحت جميعها بأسماء الشهداء، سمع عنهما مدرس كان يهم بضرب تلميذ فانكسرت عصاه، هرب التلميذ من المدرسة وعمل حدّاداً، كان يضرب الحديد بمطرقة تزن خمسة عشر كيلو غراما، إلا أنه فجأة وجد نفسه في البحر يسبح من دون توقف، في أول سباق سباحة شارك فيه سبق بطل العالم، وصار ينتقل من فوز إلى آخر، أمسى نفاثة البحر وطوربيده وحصانه، سبح لثماني ساعات متواصلة في نابولي، وأعطاه جمال عبد الناصر رتبة ملازم أول في بحرية الجمهورية العربية المتحدة، لكنه سرعان ما مات في حادث سيارة في طريقه إلى الاسماعيلية، كان من المستحيل أن يموت غرقاً، كان عليه أن يعيش أربعاً وعشرين سنة فقط لا غير، ويدفن على كورنيش جبلة كما لو أنه العصافيري في اللاذقية. وحده البحر لم يخنه كما خان غيره، وتسبب بدوار بحر ألمّ بامرأة كانت تقف على لسان ممتد فيه، وحين استسلمت له وهمّت بالوقوع أرضاً تلقفها صياد قال لها "أنت حورية بحر لا محالة"، وفي رواية أخرى قال لها "سمكتي الطائرة" حين رأى السماء بحراً والسمكات عصافير، ومن وقتها قرر أن يعيش في قفص تلك المرأة وأصبح يتحرك في الزمن مثل الشيخ المغربي الذي يحلف به ويصدق كل كراماته، وفي يوم وجد نفسه في المغرب ومضى مع الشيخ المغربي في رحلة حجه وعرف كيف جاء الشام إلى أن استقر في اللاذقية، في الطريق ألمَّ به عطش شديد أشار له الشيخ أن يمضي معه

---

*جول جمال (١٩٣٢ -١٩٥٦) ضابط بحرية لاذقاني استشهد إثر قيامه بعملية استشهادية دمرّ فيها المدمرة الفرنسية "جان بار" قبالة الشواطئ المصرية إبان العدوان الثلاثي على مصر .

فإذا بهما أمام البحر، قال له اشرب وصار يشرب فإذا بماء البحر قد صار عذباً.

في المساء لم يتوقع أن يراه، لكنه سرعان ما أصيب بالظمأ أيضاً فظهر الشيخ المغربي أمامه وأعطاه كأس حليب، قال له "لا ماء لئلا تغرق به كقوم نوح ولا كحول لئلا تغرق به كقوم عيسى"، ومن وقتها صار يلاحق الكحوليين إلى أن خسر معركته وتحطمت على رأسه قنانٍ كثيرة كانت كفيلة بقتله لو لم يتوجه إلى تجارة التبغ ويشهد ولادة تبغ اللاذقية عام ١٧٤٤ حين امتنع مزارعوه عن بيعه وأبقوه معلقا في بيوتهم إلى أن أصبح أسود ومدخناً من المدافئ التي تقيهم برد شتاء قارص، فاشتراه في السنة التالية وأرسله إلى دمياط وصار من وقتها يعرف بتاجر التبغ الأسود، الصياد الذي ما عاد صياداً مات هو وزوجته ولم يرزقا بأولاد، مات في زلزال عام ١٧٩٦ الذي قلب اللاذقية أعلاها أسفلها، وكانت عيناه معلقتين بالتبغ وهو لا يرى المدينة إلا بدخانها بعيداً عن الكحول."

استيقظ أحمد البطم في الرابعة والنصف فجراً على صوت الأذان، بقي لدقائق تحت لحافه يستعيد صورة المرأة التي كانت تأخذ بيده على طريق رملية ضيقة مشقوقة بين حشائش تفوقه والمرأة طولاً، الهواء يتلاعب بالحشائش وشعر المرأة الطويل وهي تقول له "رايحين عالبحر، شوف الرمل؟"، وما أن أكملت جملتها حتى وجد نفسه في كوخ مصنوع من القصب بينما المرأة في داخله تمرر أصابعها في شعرها وتمسده أمام مرآة ضخمة، وهو ينظر من خلفها إلى وجهها في المرآة وكل تعابيرها توحي بأنها لا تراه، ومن ثم صار يرى المرآة فارغة من وجهها بينما شعرها ما زال يتطاير ويلامس وجهه.

لم يعرف من هذه المرأة، استعاد وجهها مراراً من دون أن ينجح، خرج من دفء سريره إلى برودة قارصة احتكم عليها الصالون حيث طاولته، أوقد مدفأة المازوت وأسنانه تصطك، صنع ركوة قهوة كبيرة، شرب أول فنجان مع سيجارتين استقبلهما بلذة عارمة، ثم غرق في الكتابة ولم يتوقف حتى الساعة العاشرة حين انتبه إلى أن مؤونة سجائره أصيبت بنقص كبير ولم يتبق لديه إلا سيجارتين أجهز عليهما وهو يعيد قراءة ما كتبه ويجده غير متصل بما سبقه.

مزّق الأوراق، وقبل أن يخرج من البيت تذكر طبخ أمه، فعاد إلى الثلاجة وأفرغ نصف محتويات كل طنجرة، رمى بها في حاوية الزبالة في طريقه إلى دكان "عرق البطة"، وليلاحظ أن كلمة "عرق" نزعت وبقيت "البطة" وحيدة فوق الباب، كما أن صاحب الدكان بسام لم يكن كعادته مرحباً بصخب به، بل كان حذراً، يلبي طلباته وهو ساهم، لكن ما استوقف أحمد كثيراً، هي الطريقة التي وضب بها بسام قناني النبيذ والفودكا والبراندي التي اشتراها، واصراره على لف كل قنينة بأوراق الجرائد وبحرص كبير، وعندما قال له أحمد:

- شو قصتك؟

أجابه:

- الحذر واجب يا أستاذ.

- الحذر من شو؟

فقال له بصوت خفيض:

- من الإخونجية!

عاد أحمد البطم إلى بيته وهو يستعيد أحاديث أدهم سراج عن الإخوان المسلمين، وتأكيده مراراً بأن الصدامات قادمة لا محالة، وأحس

وهو يمشي تلك الأمتار القليلة التي تفصل الدكان عن بيته بأن الجو مشحون تماماً، وقرأ على وجوه المارة قلقاً أو تشنجاً ما، ولم يعرف إن كان ذلك وهماً أم حقيقة.

عاد مجدداً إلى الدكان، ودخل على بسام الذي كان واقفاً على سلم ينزل من الرف قناني العرق، وسأله من دون أن ينتبه بسام إلى دخوله مجدداً:

- بسام.. شو صاير؟

فأشار إليه بسام أن يدخل ويجتاز الطاولة، ويقترب منه وهو مازال على السلم الذي نزل عنه درجتين:

- يا أستاذ عم يئولو إنو الإخونجية اغتالوا الشيخ يوسف الصارم، والدنيا مئلوبة، الأمن والمخابرات بكل محل، أتلوه وهو طالع من جامع "جعفر الصادق" بعد صلاة الفجر، يعني فتنة يا أستاذ.

شعر أحمد البطم بانقباض شديد، وأحس بأن في الجو ما ينذر بأيام سوداء، من دون أن يعتمد بداية إلا على حدسه، وهو يسعى لطرد كل ما حاصره من أحداث كان يسمع بها من هنا وهناك.

سرعان ما فارقه هذا الاحساس عندما عاود كتابته وراح يواصل "التسلسل والتناسل" مما توقف عنده قبل الصفحات التي مزقها..

"كانت سيجارة طويلة جداً ما دخنته جنان المحمدي، لم تكن تعرف قصة الصياد الذي أمسى تاجر تبغ مع أنها وجدت في حلقات الدخان المتصاعدة سمكة تحاول القفز من خلالها، كما أن ابنها الذي فكّر باختراع سيارة تسير على "الحمّيضة" كان يشعر بأنه بقرة وهو يبتلع تلك الأعشاب الحامضة، ويفكر بسيبيريا لأن أمه لا تملك المال الكافي لشراء

الحطب أو المازوت، الولد نفسه عمل في المرفأ كاتب تعداد* وصار يكتب قصصاً قصيرة تدفع إلى البكاء من السطر الأول، حتى أنه كتب يوماً عن عامل يحمل أكياس السكر على ظهره ولا يجد في الليل سكراً في بيته ليحلي به شايه، الكاتب كاتب التعداد والقصص تزوج زوجة أخيه المتوفى في حادث مروّع، وأنجب منها أولاداً أضيفوا إلى أولاد أخيه الخمسة، وظل يفكر بطلعة "الطابيات" موقناً بأن من يجر عربته صعوداً بها هو سيزيف نفسه ويسأل ماذا لو خارت قواه؟ هل سينكسر كل ما تحمله عربته؟ ووجد في المرطبانات الزجاجية أفضل ما يمكن أن يكون ذا وقع مدوّ، وليكون صوت تحطم الزجاج الأجدر لحمل صدى التكسر السيزيفي الأكبر، لكن بائع مرطبانات زجاجية كان حقيقة يصعد طلعة "الطابيات" ويفكر بأنه لا يملك ما يستخدم به تلك المرطبانات، كان الزيتون خياره الوحيد ليملأ مرطباناً أو اثنين.

كان كاتب التعداد والقصص يمشي لصق الحائط دائماً حتى أن ثيابه كانت ملطخة دائماً بكلس الجدران حاملاً كتابين يستعيرهما يومياً من المركز الثقافي وهو عائد من عمله. آخر ما قرأه كان رواية "الجحيم" لهنري بربوس، فتحت تلك الرواية ثقباً في روحه ومنح لملاك الموت فرصة التلصص عليها وهو يصعد بها، مات بعمر المسيح، وأسموا قاعة المطالعة باسمه وكذلك حديقة صغيرة في "الرمل الشمالي"، الطلاب والطالبات، القراء والقارئات كانوا يقصدون تلك القاعة، عيونهم بالكاد تستقر على الكتب المفتوحة أمامهم، يتبادلون النظرات ويتغامزون وما

---

* مسمّى وظيفي يطلق على من يقوم بعدّ ما يتم تحميله أو إنزاله من بضائع تحملها السفن .

إن يكلم شاب فتاة حتى تخرج مراقبة القاعة بنظاراتها السميكة وتصرخ "هش هش" بالشين وليست السين فتنهض الفتاة ويلحق بها الشاب وتلحقهما رائحة كتب عتيقة، يمشيان فينهمر المطر فجأة في شتاء مفخخ بالمفاجآت، وإن كان من صيف فسيكون الرصيف بنفسجياً وقد غمرته زهور "الجكراندا"، وعندما غرقت باخرة محملة بالسكر على شاطئ اللاذقية صرخ العشاق: "صار البحر حلو" ، وحده صديق كاتب التعداد والقصص قال: "إنها تحية السكر لصديقي وهو من كان يعدُّ أكياس السكر التي تفرغها سفينة راسية ولا يملك سكراً يكفي كوب شاي."

سمعته بين النوم واليقظة يقول "سلمى ..سلمى" وهو يهز جسدها بيده، استيقظت من دون أن تفتح عينيها، محاولة استجماع نفسها وهي تتأكد من أن ما تسمعه هو صوته. فتحت عينيها عليه بعد أن توقف عن هزها، وجدته قريباً جداً من صورته المطبوعة في ذاكرتها، لكن بتعب أكبر على وجهه المعجون بمصائر كثيرة خلّفت عليه تذكاراتها.

عندما خرجت من بين ذراعيه، أحست بأن جسده أنحف بكثير من الماضي، رأت ووجهه بين يديها ندبة قريبة من عينه اليمنى، مررت إصبعها عليها، فأبعدها عنها بعصبية، ومضى مبتعداً بضع خطوات ثم عاد مطرقاً، مرتبكاً كما لو أنه يلتقي بها للمرة الأولى في حياته.

لم تجد سلمى ما تقوله لزوجها العائد بعد غياب امتد لأكثر من ثلاث سنوات، بدت كل العبارات لا معنى لها، ضائعة مثلها مثل غسان البراني الذي بادلها الصمت، وهرب بنظراته إلى ابنها النائم، وقد احتلت وجهه ملامح الفضول والحيرة والحزن، ولتجد في ذلك فرصة لقول شيء ذي معنى:

- هادا إبنّا!

عاد غسان يتفقده بنظرات مغايرة، كما لو أنه اكتشف للتو أنه ابنه، لكنه سرعان ما أشاح بوجهه عنه، ملبياً نداءً غامضاً في داخله، خرج إلى الصالون، تفقد لوحاته بشرود وهو يدخن سيجارة.

بدا غسان ملبداً بنداءات استغاثة لا تجدي نفعاً، استبدلها بصمت عميق ينذر بصراخ حاد في أية لحظة، كانت عيناه ملطختين بمشاهد لا تنسى، كلها كارثية طالته هو بالذات، ونجا منها بعد أن دفع كامل أثمانها الباهظة.

كل ما فيه كان يدعو سلمى لاستنفار كامل حنانها، لا بل شفقتها، وأن تغمره ليختبئ بها من العالم، أن يتكور تحتها مثل جنين وهي فوقه على أريكة الصالون، تحيطه كاملاً من دون أن يطوقها بذراعيه، محتفظاً بهما متصالبتين على صدره، يريد أن يبقى على ما هو عليه طويلاً أو للحظة كأنها الدهر.. **لا تتركيني** قال ذلك أم لم يقل، كان على سلمى أن تبقى طويلاً كذلك، وهو لا يأتي بحركة من تحتها، لكنه يزيد من انضغاط جسده طامحاً لأن يتضاءل أكثر.

حين خرجا من بعضهما، قال لها غسان:

- تعبان كتير

فعادت سلمى إلى ضمه من جديد، ثم نزعت عنه ثيابه، وتفقدت جسده وهي تحممه كما لو أنه ابنها الثاني. طالعها وشم لياطر على ذراعه اليسرى، وكتابة بأحرف صينية على منكبه الأيمن. كانت عضلاته على ما هي عليه تتحسسها وتوقظ لذات بعيدة، لتقع وهي تفركه بليفة اليقطين على ندبة أخرى على فخذه الأيمن خلّفها جرح أطول بكثير من الذي على وجهه.

خرجت به من الحمام، ألبسته ثياباً داخلية نظيفة وبيجاما مقلمة، وحين عادت من المطبخ بفنجاني قهوة، وجدته نائماً على الأريكة. أنهضته ومشى متكئاً عليها إلى السرير.

لم تمض نصف ساعة على نوم غسان حتى سمعت سلمى إبنها يبكي، فركضت مسرعة من المطبخ إلى غرفة النوم وكلها خوف من أن يوقظه، لكن شيئاً لم يزحزح نوم غسان لا بكاء ابنها ولا صراخه أو صخبه، ولا حتى انفجار قنبلة. كان يغط بنوم لا قرار له، ولولا شخيره العالي لبدا لها ميتاً.

نام غسان أكثر من يومين، لم يستيقظ فيهما إلا إلى الحمام، أو تناول شيء من طبخات سلمى الكثيرة التي أعدتها وهو نائم. أخذت إجازة من عملها، أمسى انتظار استيقاظه الشيء الوحيد الذي تفعله، والذي لم ينقطع إلا بزيارة عاجلة من منال.

لم تتلق منال أخبار عودة غسان بفرح، أقلقها كثيراً أن يحول ذلك بينها وبين إبن سلمى الذي صار جزءاً من روحها، وروح زوجها الذي كان يتعلل بأي شيء ليأتي إلى البيت ليراه ويلاعبه ويعود إلى ثكنته، لا بل صار يفعل المستحيل لأن يأتي قبل موعد مجيء سلمى وأخذها إياه.

وافقت سلمى أن تأخذ منال إبنها معها، بعد أن قالت لها مع غمزة من عينها:

- خدو راحتكن!

ولتكون أولى خيبات سلمى في ما بادلها إياه غسان من حب، ونجاحه في قتل كل أشواقها المحتدمة للمسه، للغرق بلذات متزاحمة سرعان ما انطفأت بقسوة صاغها البرود، وتلقي غسان لها كقطعة لحم باردة لا طعم ولا رائحة لها، عليه علكها ومن ثم بصقها بسرعة وجحود وقرف.

كل أفعاله كانت تنم عن ذلك، والتي توالت وبقيت خالية وجافة إلى أن أيقظت سلمى على كابوس غبائها وانقيادها الأعمى نحو جنة

اعتقدت واهمة بأن من فوقها سيوصلها إليها، سيجعلها تذوق ما غاب عنها طويلاً وهجرها. بذلت كل ما بوسعها لأن تمنع نفسها من رجائه أن يعاود من جديد، ونجحت تماماً بألا تفعل تحت ما يوحي به من شرود ولا مبالاة.

حدث كل شيء خاطفاً سريعاً مشوشاً، تكشف عن وعورة ومناطق قاحلة، خلت من تدفق الينابيع وترقرق الجداول، كان الحب أقرب للمصافحة، لتربيتة على كتفي من وقع في هاوية لا قرار لها. صارت تشعر بالقرف من نفسها ومنه، بينما دخان سيجارته يحفر رئتها، تسعل فلا يلتفت إليها، وهي تواري عريها كفضيحة، كخطأ لا رجعة عنه، وحين نهض من السرير أجبرت نفسها على اللحاق به، وجدته في المطبخ يأكل بنهم، يفتح القدور والطناجر ويأكل منها مباشرة، بملعقة كبيرة وجدها في واحدة منها، سألته أن ينتظر قليلاً لترتب كل شيء على الطاولة، فأشار لها بيده ألا تفعل، وواصل انكبابه على الطعام من دون أن يقول لها كلمة واحدة.

حين عادت إلى البيت بإبنها، سألها:

- شو اسمو؟

- عبدالله على اسم أبوك المرحوم!

- يعني عبودة!

- إيه عبودة.

كان يريد أن يواصل حديثه لكنه توقف مانعاً نفسه من المضي إلى أسئلة كثيرة هجمت عليه دفعة واحدة، لدرجة كانت سلمى تنتظر فيها خروجه عن الصمت في أية لحظة، لكنه خيَّب توقعاتها مجدداً، ومع

الوقت صارت تكتشف أنه أصبح رجلاً آخر لا علاقة له بغسان الذي تعرفه، متجهماً، غامضاً، لفظ كل بهجته وفرحه في مكان نا ء.

خافت سلمى على ابنها من غسان، كانت تراقبه كيف ينظر إليه بريبة وشك، من دون أن يداعبه أو يبادله كلمة واحدة، وكيف ينكمش إبنها على نفسه متى كان غسان في البيت الذي بقي حبيسه بدايةً، موصياً سلمى بألا تقول لأحد بأنه قد عاد.

كانت أياماً شديدة الوطأة، حصار صامت في البيت، تخرج منه كمن يهرب من هلاك قادم لا محالة، لا تمتلك في مواجهته إلا انتشال ابنها منه، وتسليمه لمنال وشعورها بأنها صارت أماً له أكثر منها، **خليها تصير أمه أحسن من الخوف اللي عايشتو ومعيشتو فيه ولو فيني خليه دايماً عندها لكان أحسن** تستيقظ باكراً، الشوارع ليست كما عهدتها، الأمن في كل مكان، وأحياناً تخرج هويتها لثلاث أو أربع دوريات حتى تصل عملها، والسؤال نفسه دائماً "وين رايحة" والإجابة نفسها "الريجي"، في إحدى المرات استوقفتها الدورية نفسها لثلاثة أيام متتالية، حينها قال لها الضابط الجالس في مقعد السيارة الأمامية بلغة حازمة "يا ست سلمى حاجة مشي خدي الباص أحسنلك"، ولتلتزم بما قاله في اليوم التالي وتحرم من متعتها الوحيدة في المشي صباحاً.

عرفت سلمى من غسان أنه أمضى سنتين من غيابه في برشلونة، وأنه كان ينوي الاستقرار هناك لكنه عاد بعد شيء حدث له "من تحت راس ولاد الحرام"، وأنه تعرض لمخاطر كثيرة أوصلته الموت الذي نجا منه بأعجوبة. هذا كل ما قاله لها بعد خمسة عشر يوماً أمضاها في البيت لا يطيق الخروج ولا البقاء، يزداد نزقاً واضطراباً، وليجد في وضعه كرسياً أمام مدخل بناية بيته أول إعلان له عن مجيئه.

قابلته الحارة باحتفاء كبير، وأصبح رفاقه وأصدقاؤه يحضرون كراسيهم ويجلسون معه، وهكذا كان يمضي يومه من لحظة استيقاظه حتى نومه، يستقبل ويودع، وإلى جانبه ترمس للشاي وآخر للقهوة وجوب الضيافة، وفي أحيانٍ كثيرة كان يستعيض عن ذلك بترمس براندي أو ويسكي، وكيس حمص.

في عصر يوم جمعة بينما كان غسان البراني جالساً على كرسيه وحيداً يدخن لم يجد إلا سيارة "تويوتا" خاكية تقف أمامه مباشرة، ورجل يقول له من الشباك بقرف:

- يلا ولاه ضب كلاكيشك وطلاع على بيتك؟

استفزت غسان الطريقة التي خاطبه بها رئيس الدورية فأجابه بتهكم:

- ما في صباح الخير!

لم يكمل غسان عبارته حتى أفرغ صندوق السيارة الخلفية حمولته من أربعة عناصر انهالوا عليه بالضرب من حيث لا يدري، ولم يتوقفوا إلا وقد تكوَّم على الأرض مضرجاً بالدماء، وسمع ولم يسمع رئيس الدورية يقول:

- عم تكبر راسك مع المخابرات يا أخو الشرموطة!

حين تحلق حوله أهل الحارة يتفقدونه ويساعدونه على النهوض، اجتاحته نوبة هيستيرية دفعته لضرب كل من لمسه، وراح يضرب الجدران، يصرخ ويسب وهو يصعد درج البناية. حين فتح باب بيته بخبطة من قدمه اندفع يكسّر كل ما يراه، وعندما دخل غرفة النوم وجد سلمى في الزاوية قرب السرير وقد وضعت ابنها خلف ظهرها، فقام بصفعها

وركلها مرات لا يعرف عددها، وسلمى تتلقاها وكل ما تفكر به هو منع نفسها من الرجوع إلى الخلف متحاشية أن ترمي بثقلها على ابنها، ليتركها وبكاءها يتبعه إلى الحمام.

هناك نظر إلى وجهه في المرآة فرآه مشوهاً ومضرَّجاً بالدماء، بضربة من قبضته تهشمت صورته، صار الدم ينزف بغزارة من رسغه، حينها فقط تبددت نوبته، حل شعوره بالخطر محلها وضرورة إسراعه إلى المستشفى.

استقبلت منال سلمى بهلع وهي تطالع آثار صفعات غسان على وجهها، ولم تصدق ما قالته لها من أنها المرة الأولى التي يضربها بها. سألتها منال أن تبيت عندها لأن زوجها مناوب والجيش في حالة استنفار. في حوالى الثامنة مساء تركت منال سلمى وابنها في بيتها وعادت بعد قليل ومعها أدهم سراج.

كان وجه أدهم سراج مليئاً بالغضب، ولم يتبادل كلمة واحدة مع سلمى التي مشت إلى جانبه تقطع شارع "بورسعيد" نحو بيتها في "الزاروب"، لكنه حين رأى غسان البراني بوجه مليءٍ بالجروح وعين مزرقة ومنتفخة، تغيرت معالم وجهه واستعاض عن الغضب بالارتباك والحيرة.

تداخلت مشاعر أدهم سراج، نسي تحت وطأتها ما الذي جاء به إلى هنا، سرقته مفاجأة أن يرى غسان البراني بكل عنفوانه مكسوراً ومهزوماً بهذا الشكل. لم يجد أدهم شيئاً ليقوله، لم يعطه غسان أية فرصة، فما أن انتهى من سرد ما تعرض له حتى اندفع فجأة باتجاه سلمى وهو يرجوها أن تسامحه، بتذلل، بشعور صادق بالندم، وهو يدعو ربه أن يكون قد قطع يده قبل أن تمتد إليها، ملتفتاً إلى أدهم قائلاً:

- والله أول وآخر مرة.

عادت سلمى وابنها إلى البيت، عاد غسان إلى سابق عهده في غيابه أياماً، وتباينت مواعيد ظهوره، وأحياناً كان يمضي في البيت ساعة أوساعتين لا أكثر، حتى أن سلمى صارت تستغرب ما الذي يجيء به إلى البيت، يجلس شارداً، يسألها عن أحوالها، بالكاد يسمعها، أحياناً يترك مبلغاً من المال على طاولة المطبخ ويمضي، وفي مرات كثيرة لا يفعل، وإبنها منكمش على نفسه في حضوره، يحاول غسان أن يلاطفه، لكن عبثاً، ما من استجابة.

كانت سلمى على يقين بأن ما يدفع غسان لزيارتها هو شعوره بالذنب ولا شيء آخر، ولعله كان يتذكرها فقط حين يتذكر مشهد إقدامه على ضربها، كل تصرفاته تفضح مشاعره، وعندما صار متأكداً من أن آثار ما فعله انحسرت، أصبح غيابه أطول، تناقصت زياراته، اقتصرت على مرة أو مرتين في الشهر، إلى أن جاءها مساء يوم اثنين وقال بتوتر بالغ بأنه سيسافر من جديد، وعندما ودَّعها ضمَّها بشدة أجفلت منها سلمى، وأمسك بابنها رغماً عنه وضمه أيضاً غير مبال بممانعته وتخبطه، ثم قبَّله من دون أن ينجح كل ما فعله لتفادي قبلته، وقال لسلمى:

- رح تكون غيبتي طويلة.. ديري بالك عليه والله إنو ولد كويس.

رغم انعدام أي شيء جديد في ذلك، إلا أن سفره هذه المرة بدا لسلمى مغايراً عن كل ما سبقه، محمَّلاً بنكهة مختلفة تماماً، وسكنها إحساس أقرب لليقين بأنها المرة الأخيرة التي ستراه فيها.

لحقت به، نزلت الدرج ولم تعثر عليه في "الزاروب"، خرجت إلى شارع "بورسعيد" كونه الشارع الذي سيفضي به إلى المرفأ ولم تر له

أثراً، عادت إلى بيتها وهي تتذكر بأنه لم يحزم أمتعته، لم يأخذ حتى معطفه المطري، **اختفى بسرعة غاب تبخر خلص ما في غسان**

تحول غسان البراني إلى غيمة عابرة، فاصل وجيز، صار يغيب عن ذهن سلمى تحت وطأة أيام أشد ثقلاً وتخبطاً، ويظهر بقوة أمام حاجة ماسة له لتواجه موجات هائلة من الخوف غمرتها وحيدة.

ليالٍ كثيرة مؤرقة بأصوات مكبرات الصوت التي تحملها سيارات المخابرات، وأحياناً من مآذن الجوامع وسلمى تسمع "يحظر التجول حظراً باتاً من الثامنة مساء ولغاية السادسة صباحاً"، ولتستيقظ في السادسة بعد أن يكون قد غافلها النوم على أصوات مكبرات الصوت وهي تجدد حظر التجول.

أصبح ذهابها إلى العمل متقطعاً، وانقباضها شديداً إن تمكنت وذهبت إلى العمل، حيث كانت العاملات ينظرن إليها بريبة شديدة، وكثيرات ممن كن قريبات منها لم يعدن يبادلنها أي حديث، ومع تخفيض الإنتاج إلى حده الأدنى، منحت إجازة لم تطلبها، وقال لها مديرها المباشر:

- إجازة لمصلحتك!

لم تسأل سلمى عن مصلحتها في هذه الإجازة إلا أن المدير أكمل قائلاً:

- يلا بتهدى الأمور وبيمشي الحال.

لكنها أدركت أن ما يحدث خطير جداً، ولم يخب حدسها بأن القادم أسوأ، فما هي إلا أيام حتى انفجر دكان أبو خليل، الذي باعها كيلو لبن بدا لونه الأبيض ناصعاً جداً بين الجدران المتفحمة من جراء قنبلة يدوية وضعها له رجل في الميزان بعد أن قال له "السلام عليكم"..

- والله حط القنبلة وركض وركضت وراه فورا ونفدت بقدرة قادر

- الحمد الله عالسلامة

وأردفت سلمى بسؤاله بسرعة وقبل أن تفقد فضولاً هبط عليها على غير العادة:

- ليش عملوا فيك هيك؟

- قال لأني ببيع كحول .. خلص بطلنا .. ستين عمرو..

لم يكن يؤرق سلمى ما تعيشه نهاراً، مهما بلغ السوء، كان الليل كل ما تفكر به في نهارها، ويجعلها في حالة ترقب محفوفة بالهلع، أعصابها مشدودة، خلاياها مستنفرة، وكلما ازداد الليل إيغالاً بالعتمة تخبطت أكثر في بحر من الغموض، مع مفارقة النوم لها وهي تسمع صوت طلقات نارية متفرقة، وأحياناً متواصلة وقريبة جداً من بيتها، تستمر لساعات، تختفي فجأة، ثم تعود أشد ضراوة، مترافقة مع صرخات، وحركة دائمة لسيارات تزأر محركاتها ممزقة أدنى أمل بسكينة وهدوء.

خوفها الأكبر اندلع ليلة استيقظت في الرابعة فجراً على صوت دعسات ثقيلة لأرجل كثيرة تتدافع على درج بنايتها، وخبطات قوية على باب البيت في الطابق فوقها، وامتزاج الصراخ بالصفعات والشتائم، وصوت واحد يعلوها جميعاً، جهوري وخشن يسأل "وين ابنك ولاه منيك.. وين مخبيه"، ومن ثم صرخات تأتي من الدرج مباشرة تبينت سلمى من خلف باب بيتها صوت أم هشام بوضوح وهي تبكي وتولول وتقول "لك وين آخدينو للحجي"، سلمى تسمع كل ذلك معانقة إبنها الذي نجحت بإيقافه عن البكاء ومنع نفسها بمعجزة من أن تنخرط

بنوبة بكاء أشد وهي تتخيل أبا هشام الستيني يتلقى كل تلك الصفعات التي تسمعها وهم ينزلون به.

ما هي إلا دقائق حتى دخل أربعة جنود بثياب مبرقعة بيتها، مدججين بكامل عتادهم بما في ذلك الحراب اللامعة على بنادقهم، ولتكون هذه المرة الأولى التي ترى فيها جنوداً منذ بداية الأحداث.

تبعهم بعد دقائق رجل بثياب مدنية أدى له الجنود التحية مع خبطات مدوية من أرجلهم اهتز لها البيت، وقال له أحد الجنود بصوت عال جداً "تمام سيدي.. البيت خالي"، وليلتفت ذاك الرجل ببرود إلى سلمى ويسألها بصوت بالكاد سمعته إن رأت هشام هوشه، وحين نفت ذلك، سألها بنبرة مختلفة توحي بأنه لا ينتظر إجابتها، عن زوجها واسمه ولم هي وحيدة، لتجد نفسها تقول له إنه بحار وهو مسافر الآن.

ظلت سلمى لدقائق ترتجف من الخوف، ولم تستجمع نفسها إلا حين انتبهت إلى أنها ما زالت واقفة قرب الباب حاملة ابنها تكاد لا تشعر بوزنه على ذراعها ولا بنظراته الهلعة.

لم تهدأ حركة الجنود حتى الصباح، ورأت سلمى أشياء كثيرة من شباك بيتها لم تجد لها تفسيراً، طناجر وقدوراً وكراسي وغير ذلك من أثاثات البيوت يرميها الجنود من الشرفات، رجالاً منبطحين على الأرض وأيديهم موثوقة خلف ظهورهم، وآخرين يزحفون والجنود يرافقونهم مشياً ويحثونهم على الإسراع بركلهم "يلا أسرع ولك".

ومع توالي الساعات، أصبحت سلمى تحت سطوة هواجس لا تجد ما يوقفها، صارت تتخيل أن الجنود سيدخلون بيتها في أية لحظة ويطلقون النار عليها وعلى ابنها، أو أنهم سيفجرون "الزاروب" بكامله، وهم الآن

يزرعون العبوات في كل مكان وما هي دقائق حتى تدفن هي وابنها تحت جدران البيت.

تحت وطأة هلعها المتزايد خرجت وابنها من البيت في العاشرة صباحاً، وما أن خطت خارج مدخل البناية حتى سمعت ثلاث صرخات من ثلاثة اتجاهات مختلفة تقول الكلمة نفسها "قف"، فتجمدت في مكانها، والتصق ابنها بها فأحاطته بذراعها وقربته أكثر، وهي تنظر إليه بسنواته الخمس وتقول لنفسها يا الله ما أحلاك.. **يا الله شو بحبك وانتا الوحيد الي بتحس فيني حتى صرت ما تبكي حتى ما تزعجني**

اقترب منها جندي كان أمامها مباشرة وأنزل بندقيته التي كانت موجهة نحوها وقال لها:

- وين رايحة؟ ممنوع التجول!

وجدت سلمى كلمات خرجت إلى لسانها قالتها من دون أن تفكر أو تعرف ما تلفظت به:

- إبني ساخن وأنا لحالي.. بدي روح لعند إختي ما عندي دوا وهي عندها.. ليك البيت هالكام متر.

قالت ذلك بسرعة وقف أمامها الجندي مشدوهاً، واحتاج لثوان ليلتقط معاني ما سمعه، ثم اقترب من ابنها ليتفحص حرارته لكنه أبعد يده عن تحسس جبهته في اللحظة الأخيرة وهو يلوم نفسه على قيامه بذلك. سألها عن هويتها وصرخ بصوت عال بعد تصفحه الهوية:

- سيدي في مرا وابنها بدها تمر لحالة طارئة سيدي؟

ولتأتي الإجابة بمكبر الصوت ومن جهة لم تتبينها:

- خليها تمر بسرعة!

- حاضر سيدي.

ومضى الجندي يرافقها وقد خيّم سكون هائل على شارع "بورسعيد" الذي تحول إلى ثكنة عسكرية، و احتلت أكياس الرمل كل مكان. بدا الهدوء الذي رافق سلمى في طريقها القصيرة إلى بيت منال مسكوناً بكل أنواع الرعب، متخماً بصمت على موعد مع الانفجار في أي لحظة، رأت سلمى وهي تهرول إلى جانب الجندي رتلين على يمين ويسار الشارع يتقدمان لصق المباني والجدران باتجاه "الطابيات" حتى أن الجندي اضطر إلى دفعها هي وابنها حين كان عليهما أن يقطعا الرتل.

استقبلتها منال وهي تقول لها بأنها كانت ذاهبة لكي تحضرها، لأن الأمور صارت خطيرة جداً، وأخبرتها كمن يروي قصة مسلية بأن "الوحدات الخاصة" و"سرايا الدفاع" نزلتا إلى الشارع لتحسما الأمر، وأن عناصر الإخوان صاروا محاصرين في الطابيات وصولاً إلى الحرش.

أعدت لها القهوة، وأمضيا كل الوقت وهما تراقبان الشارع من خلف "أباجورة" تركتها منال مواربة لهذا الغرض، وكل ما يظهر أمامهما طيلة جلوسهما الطويل أكياس رملية استقر خلفها الجنود، وسيارة تويوتا حمراء وبيضاء مليئة بعناصر الأمن تسير ببطئ وحين تصل الدوار الذي يفضي إلى "الطابيات" تدور حوله لمرتين وتعود من حيث أتت، لتعاود من جديد الحركة نفسها.

قضت منال على كل مخاوف سلمى، وتحول ما يحدث إلى فرجة مسلية ليس فيها إلا المتعة، الأمر الذي انتقل إلى ابن سلمى الذي كان يلعب على السجادة بالجنود الذين رتبهم في رتلين وضع كل واحد منهما لصق أريكتين متقابلتين في صالون منال، وتعامل مع المكعبات كما لو أنها أكياس الرمل راح يضع خلفها الجنود.

بعد ساعتين من وصول سلمى، توقفتا عن متابعة ما يجري في الشارع، وانتقلت منال إلى أحاديث أكثر تسلية، سرعان ما انقطعت مع دوي انفجار أعادهما إلى الأباجورة الموارية لتريا منها السيارة الحمراء والبيضاء مقلوبة على ظهرها، ومن ثم بدأت سيارات الاسعاف تهرع، إلى أن تجمعت ثلاث سيارات قرب السيارة المهشمة التي لم ينج منها إلا اثنين كانا مضرجين بالدماء، ولتأتي بعد ذلك سيارة إطفاء قامت بغسل بقعة دم هائلة خلفها العناصر الذين كانوا في السيارة.

أصبح السكون مجدداً أشد وطأة، لا يخترقه إلا أصوات اللاسلكيات، التي غابت تماماً مع أزيز الرصاص والتفجيرات التي اندلعت فجأة ودفعة واحدة، ولم تعد تتوقف إلا لتزداد ضراوة، ولم تنجح سلمى ومنال في مواراة خوفهما على الطفل، ووجدتا أنه من الأفضل الابتعاد عن الصالون والجلوس في الممر الخالي من أية نوافذ، وللتخفيف من الخوف صارتا تتناوبان على الذهاب إلى الصالون بحذر والتلصص على الشارع الذي كانت تتقدم فيه الوحدات العسكرية باتجاه الطابيات.

منال صارت تضحك وتقول:

- أخرا شي تكون الوحدة متزوجة من ضابط.. هلأ عرفت!

وسلمى تضحك وتقول:

- لأ الأخرا تكوني متزوجة من بحار!

مع استمرار المعارك صارت سلمى ومنال أكثر تعوداً واسترخاء، لا بل نجحتا في دفع عبودة إلى النوم، ونامتا بدورهما لأكثر من ست ساعات وكل ذلك في الممر. وفي صباح اليوم التالي بقيت أصوات إطلاق النار والقنابل على غزارتها لكنها أمست بعيدة، إلى أن انحسرت تماماً في المساء.

وفي صباح اليوم الثالث قامت "سرايا الدفاع" و"الوحدات الخاصة" بتمشيط كامل منطقة الطابيات وصولاً إلى الحرش، والتمركز فيها، ثم عاودت من جديد تمشيط شارع "بورسعيد" وحي "الصليبة"، وامتد الأمر إلى حارات "الشحادين" و"القلعة" و"العوينة"، بحيث شمل التفتيش كل بيت أو زاوية أو ركن، وتم القضاء على كل مصادر النيران، وسحق العصيان المسلح، مع ترافق ذلك بحملة اعتقالات أوسع لكل منتم لحركة الإخوان المسلمين أو مشتبه بانتمائه أو لمن ساعد أحداً من عناصرها.

تتشابك خيوط الفجر، ترتمي عليه، تأخذه من النوم، يستيقظ.

لا حاجة له لساعة، إنها تمام الرابعة والنصف، أحمد البطم يشرب قهوته ويدخن سجائره في شرود تام، يخرج منه إلى طاولته التي تحمله إلى شرود آخر متصل بالأوراق التي أمامه، يملأها، يقتل بياضها بهدوء تارة، بسرعة تارة أخرى، بغضب، بصخب، ثم يتوقف، ينهض عن كرسيه، يتمشى في بيته، يخرج كتاباً من المكتبة يتصفحه، يعيده إلى مكانه، يتفقد الرزنامة إنه العشرون من كانون الأول ١٩٨٢، **عيد ميلادي صار عمري أربعاً وأربعين سنة**، يعود مجدداً إلى الطاولة، يواصل عزمه على إلحاق أكبر هزيمة ممكنة ببياض الأوراق.

كل شيء هادئ، قطرات مطر خفيف تنقر على النافذة أمامه، شجرة الجوز عارية تماماً من أوراقها، الجو داكن، النار تتراقص في مدفأة المازوت.

يكتب أحمد البطم لساعتين متواصلتين، ومن ثم يبدأ بنسخ مقطع واحد على الآلة الكاتبة يجده يستحق الاحتفاظ به.

"في الليالي الباردة والموحشة كانت تنقطع الكهرباء لتزيد الوحشة توحشاً، ويُسمع صوت تحريك السكر في أكواب الشاي من مسافات بعيدة، كانت تنقطع الأسلاك عندما ترمى عليها أكياس القمامة من الطوابق العلوية في توقيت مقدس وموحد، كانت تسمع صيحات لم

يعرف إلى الآن من أين مصدرها ولمَ هي على صلة وثيقة بانقطاع الكهرباء، كان للشموع إضاءة ملائكية، وكان كثر يفكرون بالعتمة كحاجة تكسر رتابة الإضاءة الوقحة، الدكتور محمد مولود كان يفحص مرضاه على ضوء الشمعة ويستمتع بانعكاس ضوئها على الأجساد مناجيا ربه بأن تكون أجساد نساء دائماً.

ومادام تشخيصه كثيرا ما يكون خاطئاً، فقد كان يفكر بإلغاء الكهرباء من حياته، والتفرغ لمتعته هذه، وليمت من يموت وينجو من ينجو، فهو كان وما زال يؤمن بأنه ليس طبيباً، ويقول لمرضاه وهو غارق بالضحك "أنا مطهّر" ومع ذلك فإن عيادته تغص بالمرضى، يأتون ليضحكوا وهو يروي لهم كيف رأى في تركيا "الجيلاتو" لأول مرة، وندمه على كل امرأة فاته أن ينام معها هناك، وأنه درس الطب رغم أن شهادته الثانوية أدبية، ويكره الرياضيات لدرجة الموت، يسمع المريض قصصاً وحكايا لا تنتهي ويتوهم بأنه عال العال كما سيقول له وإن كان على حافة الموت.

كانت نظرية الدكتور محمد مولود بالنسبة للصحة مرتبطة بالحالة الجنسية للمريض، ما أن يدخل أحدهم حتى يسأله عن قضيبه من دون مقدمات "عم يقوم معك كل يوم الصبح متل الخيارة؟ "فإن كانت الإجابة إيجاباً فسرعان ما يقول له "خلص ما فيك شي" وإن كانت الإجابة بـ "لا" فإنه سيضطر للبحث عن أسئلة أخرى وفحص المريض، ولن يتردد في سؤال النساء عن "الشهية" و"النفس المفتوحة" وإن اتضح له بأن من أمامه تفهم عليه فإنه يسترسل ويمضي إلى النهاية، وسرعان ما يحول سرير المعاينة إلى سرير غرام طارئ ولا يأبه بكل من خلف الباب. كانت

أسعار معاينته غير معروفة، يأخذ ما يعطيه إياه المريض وكثيرا لا يأخذ مقابلاً، مواعيده عجيبة، يعمل للثانية بعد منتصف الليل أو أكثر وهو لا يغادر العيادة إلا بعد أن تفرغ قاعة الانتظار من آخر مريض، و لا يقبل بالمواعيد المسبقة.

مات الدكتور محمد مولود كما كانت أمنيته الوحيدة ربما ، مات وهو نائم، امتد نومه إلى أن أمسى نوماً أبدياً ، وقد كان سعيداً بذلك رغم أنه لم يمتلك وسيلة ليقول لنا ذلك، لكنه كان يسأل الله دائماً أن يقبض روحه وهو نائم وقد فعل."

يتوقف، يستسلم لهواجسه العمرية، يفارق الطاولة إلى الكنبة، يمضي أكثر من ساعة وهو جالس ورأسه مرفوع إلى الوراء.

يُفتح باب بيته، تطالعه أمه وقد جاءت باكراً هذا اليوم، بعيداً عن موعدها المقدس في تمام الثانية والنصف ظهراً. لم تكمل أمه عبارتها "كل عام وأنت...." ، لم تصل إلى "بخير"، قاطعها قائلاً:

- بدي اتزوج!

امرأة، كل ما يحتاجه امرأة، كانت نداءات الاستغاثة تخرج من أرجائه، يصم أذنيه عنها، فتتسرب من مساماته، ينغمس أكثر في الكتابة، فتبدو الكلمات تركض خلفها، تتحلق حول امرأة دخانية، تموت وتحيا وكلها توق لما يؤنثها.

تزوره سلمى نابضة متقدة، يتلمس ذاكرته، يمضي إليها ماثلة فيها، عارية يغمرها بعريه، يضعها على رف وحشته ووحشتها، يهرب، يتلاشى، ويدعها تتلاشى أيضاً، **اللعنة لا أريدها أن تصحو لا أريدها أن تتناثر بأكثر مما هي متناثرة في دمي.. للشرايين أن تنقل حمولتها من**

الدماء وأن تتخفف منها ولا محيد من أن أنزفها للخلاص منها فهي ما عادت كما كانت وقد قالت كل شيء وكم كنت سعيداً حين رأيت باب العلية برتقالياً بالملصقات.. على الأقل قالت شيئاً.. بادلتني الفراق.. لا أريد أن أعود إليها لقد تخلصت مني.. ما كانت ستضع كل تلك الملصقات لو لم تفعل

توقف أحمد البطم عن سلمى، صارت الماضي، كل الماضي، كما لو أنها ماتت، وفراقهما كان استجابة لقدر لا يد له فيه، إنها لذته التي خطفت منه، وحريته باستعادتها متى يشاء لا تتخطى الذكريات وأوقات هي الأجمل قد اندثرت، وما عادت صالحة إلا لاستحضار لَذة من الأسى الشفيف، وتربيتة تهبط على قلبه فينبض أكثر، كآخر الجرعات المتبقية منها.

مرت على أحمد البطم أطول فترة استقر فيها على شيء، كانت كتابته رسواً في ميناء بعد تخبط طويل ببحار ومحيطات لا توحي إلا بالغرق، وتحولت الأحداث التي عصفت باللاذقية إلى سبب آخر ليزيد من عزلته، يتابعها من بعيد، يتعرف على مصائر البشر، يدعهم يقتحمون عزلته بشروطه الخاصة، يجردهم رويداً من الأسى الذي تتسبب به مآسيهم، يكسوهم بما يجعلهم متسقين مع المخيلة، فيكتشف أن واقعهم أكثر خيالاً من الخيال نفسه.

كان يجد في أصوات الرصاص والانفجارات منبعاً لمشاعر يختبرها للمرة الأولى، أصوات موحشة وبعيدة تزيده هوساً بالمجهول، فيتقد بها، طالما أن له مطلق الحرية في ألا يخوض غمار ذلك المجهول، بل أن يكتفي بالتساؤل وفق إملاءات مخيلته: كيف تبدو الوجوه وهي تطلق

النار؟ من فارق الحياة؟ من بقي فيها وهرب من موت محقق؟ ويمضي في المجهول أكثر، يستدعي أحاسيس لا علاقة لها بسماعه بمقتل شكري تفتافة بائع الغاز الذي يعرفه جيداً، وأخرى تمضي جنباً إلى جنب مع اختفاء بائع السوس أحمد الشلف، وتخيل ما كان عليه وجه برهان صيداوي حين عثروا عليه ممزقاً بالسكاكين.

يكتب عنهم، يستعيدهم كشخصيات روائية يتوق إلى نشرها على الورق، ويشحنها بكل ما فيها من لحم ودم، فيجد ما يكتبه أقل منها، فيبقى يحاول وينسى في الوقت نفسه مصائرها الحقيقية، يمسي التحدي الذي يجابهه في استعادتها حية أقوى من حزنه عليها، إلى أن يجد في أشخاص آخرين سبباً لهجرانها، والكتابة عن جدد تناسلوا ممن توقف عن ملاحقتهم.

قبل أن يخبر أحمد البطم أمه بقراره، أعد مخطط زواجه كاملاً، استقر على ابنة خالته نجوى عيد، التي كانت تهيم به في صباها، وهو لا يعيرها أي انتباه، لا بل اقتصر على بضع عبارات صار يبادلها إياها كلما رآها في بيت أمه، بعد أن عرف من أختيه بأنها عاشقة متيمة به، وقد كان هذا أقصى ما في مقدوره حينها.

وعندما كانت أمه تسعى إلى تزويجه، كانت نجوى خيارها الأول والأوحد، تجد فيها كل صفات الزوجة المثالية لابنها الوحيد، جميلة ومطيعة ومهذبة، وفوق ذلك حاصلة على ليسانس أدب فرنسي، "كاملة مكملة" كما كانت تقول، وهي لا تصدق الآن ما تسمعه من ابنها، لدرجة شعرت فيها للحظة بأن اختياره الزواج من نجوى دون غيرها ليس إلا لإرضائها، الأمر الذي أبعدته عنها ومعه حقيقة أن نجوى قد صارت في

الثانية والثلاثين. وضعت سعاد المرتجى كل ذلك جانباً، وجدت في الإسراع بتنفيذ قرار ابنها الشيء الوحيد الذي عليها القيام به، لا بل إنها لم تؤجل عمل اليوم إلى الغد، في السادسة مساء ذهبت إلى بيت أختها الأرملة بعد نجاحها بإقناع أحمد البطم أن يرافقها وطلبت نجوى لابنها.

في الطريق إلى بيت خالته أحس أحمد بأنه ما زال طفلاً يمشي إلى جانب أمه كما كان يفعل حين كانت توصله إلى المدرسة، حاول أن يتذكر متى كانت آخر مرة رأى فيها نجوى، فلم ينجح، وعندما فتحت لهما الباب، وجدها غير التي في ذاكرته، امرأة أخرى سرعان ما صار ينبش ملامحها، لاهياً في ذلك عن كل ما يدور من أحاديث حوله، محاولاً مطابقة ملامحها الطفولية مع علائم النضج الصارخة، وهو يعاين مدى انجذابه إليها.

عاود أحمد البطم بعض التردد، وأوهم نفسه بأن زياراته ستكون مهلة أخيرة لحسم أمره، مع أنه وافق على أن يتم زواجه من نجوى بعد عشرة أيام وتحديداً في ليلة رأس السنة.

كانت عيناها الملونتان شيئاً جديداً تذكر أنه كان يعرفها بهما، تتلونان حسب الطقس وبلون ثيابها، ولتستوقفه كثيرا ابتسامها المتواصل، فكل ما تقوله يخرج برفقة ضحكة خفيفة، بينما تواجه ما تسمعه منه بفرح كبير، وحين تمسي جدية، فإنها تفعل من دون مقدمات وبإفراط مبالغ، تمسح به تعب عضلات وجهها من الضحك، من دون أن تفارقها الملامح الطفولية التي لم يستغرق أحمد البطم طويلاً ليراها حاضرة بقوة لكن مع تغييرات طفيفة عن الصورة المطبوعة في ذاكرته.

في اليوم الثاني على طلب يدها، زار نجوى وجلسا ساعات طويلة وهما يتبادلان الأحاديث. غاب عن أحمد ذاك الحب الذي كان تواجهه به نجوى، وجده غريباً، مفاجئاً، ومعه احتفالية نجوى بكل ما يقوله، وراح سطر لغيّوم أبولينير يحاصره كما لو أنه عنوان كل شيء "نعم أريد أن أحبك لكن بالكاد أحبك"، صار يهرب منه وهو يتذكر الأب سالم الذي أهداه في الثاني الثانوي أعمال أبولونير بالفرنسية، وكلما ألح السطر اللعين عليه أكثر كلما كان يزداد هرباً إلى الذكريات، والبحث عمّ حل بالأب سالم مدير مدرسته، من دون عثوره على جواب، مثل أناس كثر هجموا على ذاكرته اكتشف بأنه جاهل تماماً بمصائرهم.. **يحبونني وأنا لا أحب أحداً هذه النجوى مجنونة تحبني تتحدث كما لو أنها كانت بانتظار هذه اللحظة منذ ولادتها.. لا شيء يمنعها من أن تقفز علي الآن.. كل نظراتها وحركاتها مصوبة نحوي كعاشق كفارس أحلام طال انتظاره.. فرحها يصم الآذان.**

في اليوم الثاني سألها الخروج معه، تمشيا على الكورنيش الذي كان خالياً إلا من بعض المارة، في جو عاصف وبحر هائج كان يلهث ويصخب في محاولة إيصال أكبر قدر من رذاذه إليهما.

وهناك فقط وبتشجيع من الجو، عرف أن نجوى لم تتزوج بسببه، وأنها رفضت رجالا كثراً تقدموا إليها وكلها يقين بأنه مهما طال الزمن سيتزوجها في النهاية، وحين غافلهما مطر غزير، راحا يركضان هرباً، إلى أن احتميا بمدخل بناية، حينها قالت نجوى لأحمد بصوت مرتجف في البداية:

- بحبك

وراحت تكرر كلمتها بصوت عال ليسمعها بوضوح رغم صخب المطر، بما يفوق ضجيجه وهو يرتطم بالرصيف والشارع، وتتدفق معه المزاريب شلالات.. قالتها أكثر من ثلاث مرات، وليمضي أحمد البطم في عناقها من دون تفكير، كرد فعل لم يجد غيره لائقاً بما يسمع.

وجدها صغيرة بين يديه، تزداد التصاقاً به فيزيد من إحكام ذراعيه حولها، يشعر بكل تفاصيل جسدها على جسده مباشرة فيزداد توهجاً واضطراباً، تختنق الكلمات في جوفه، يتلعثم بنداءات متوحشة خرجت دفعة واحدة وصارت تتدافع وتملأه مرارة تفيض عنه، مع رغبة عارمة بالبكاء قادمة من رائحة نجوى بالذات، وهي تمتزج برائحة المطر وما تضوع به الأرض من جراء هطوله، البرد من حوله، الدفء بين ذراعيه، دفء بعيد، مفتقد، مستعاد، على غير موعد.

حب كبير ترشقه به امرأة صغيرة وهي تلتصق به، فيستشعر ما تحت ثيابها عارماً، يخبئ أكثر مما يظهر، يضج بأحجامه الخاصة المتقدة، مكتنزاً بحنان خاص، يلعن الزمن، يقلّب أيامه فيجدها نائية مهجورة كامدة، اللذة طارئة فيها، وكل ما فعله كان هرباً منها، جلداً متواصلاً وتعذيباً لنفسه، والنتيجة هنا، في نجوى بالذات وهي في أحضانه.

منع نفسه من أن يسألها: لمَ آثرت الصمت ولم تقل له شيئاً عن حبها؟ وجد في ذلك سخافة هائلة، تذكر كيف كان يسلم عليها فترتجف يدها في يده، وهو جاهل تماماً بمعنى ذلك، عادت أحاديث أختيه معه عن نجوى، وقع على نفسه غير مبال بها، مثل معجبات كثيرات لم يجدهن إلا تافهات، لكنهن مدعاة لمزيد من الغرور.

عندما عاد إلى بيته نسي أبولينير وتذكر قصيدة بودلير "المعذب

نفسه" راح يضرب الأوراق بلا رحمة، رغم الرقة التي هيمنت على عباراته وهو يخرج عن "التناسل والتسلسل" إلى غير رجعة.

" كيف يمكن النجاة من النوم وأنا نائم أصلاً؟ كيف يمكن للموت أن يأتي بجديد وهو يجاور النوم؟ الأحلام مطلب وردي، الكوابيس تظليل لورديتها وإحالتها إلى ما يروّعني، كما لو أنني أضع مسدساً تحت الوسادة ليصير الفراش وثيراً أكثر.

اخترعت الحصّالة لأشياء أخرى غير النقود، ربما الدموع وتلك الأحلام، الكتابة تشبه توفير النقود، أمرر حياتي من شق يتسع للقطع النقدية، لكنني لا أكسر الدفتر متى امتلأ، أنتقل إلى دفتر آخر..حصّالة أخرى ..وهكذا.

لا حاجة لي مع الكتابة إلى كسرٍ وخلعٍ، السرقة تأتي معكوسة، إنها سرقتي لنفسي، وضبطها أيضاً متلبسة بجرائم لا عد ولا حصر لها، إنني أنهب نفسي، أتركها من دون أقفال أو أبواب، مشرَّعة للريح، والحصالة حصالة دموع، أذرفها وأمررها من الشق، دمع أبيض ليومي الأسود.

لا أعرف ما الذي ستكون عليه الألوان بعد ذلك، وإن كنت سأشاهد قوس قزح متقوِّساً، أم أنه سيستقيم فجأة ويتحول إلى سهم صائب، سأصرخ به: أرجوك صوّب إلى القلب مباشرة.. فيصيب.. ماذا بعد ذلك؟ يأتي الحب ربما! ثم ينقضي، يتفتت، يسقط صريع السهم نفسه، وكيوبيد ليس أكثر من قوس قزح يأتي مع المطر والشمس، كما لو أن في ذلك سحراً.

مهلاً، أحدهم مسح الغبار عن النافذة فماذا أنتظر أن أرى؟ لن أرى أي شيء! أريد أن أتلصص، أن انظر إليها من ثقب الباب، من فتحة

غامضة، من شق في الجدار يشبه شق الحصّالة، الشق الذي ولدت منه بعد أن اعتصرني ولم يترك شيئاً أوفره".

نفض أحمد البطم كل تردد، اندفع إلى أقصى درجات الحب، صار مشيه مع نجوى معبراً إلى الخلود، وقع أقدامها يرن في دمه، ولارتطام ذراعها بذراعه أن يجعله يطرب من الأعماق.

راح يتعرف عليها، يتذوقها بطرف خنصره، وهي تقاوم التهامه لها قبل زواجهما، وهو يزداد عذاباً بانتظار أيام قليلة استغرق مضيها دهراً بالنسبة إليه.

قبلت نجوى شروط أحمد البطم العجيبة، اعتبرتها تشبهه تماماً، وتشبه ما تحبه فيه من غموض وغرابة وربما جنون، واقتضت هذه الشروط أن يقيما حفل زواجهما في بيته قرب كنيسة "اللاتين"، وألا ترتدي ثوب عروس أبيض، وبحضور أم نجوى وأخويها وصديقة واحدة تكون الأعز بالنسبة لنجوى، وكذلك الأمر بالنسبة إليه، إذ اقتصر الحضور على أمه وأختيه وزوجيهما وصديقه أدهم سراج وزوجته، كما كان على نجوى أن تعود إلى بيت أهلها بعد الزفاف، وتأتي إلى بيته متى قررت ذلك، كونه يكره أن تسمى ليلته الأولى معها ليلة الدخلة، الأمر الذي لم ينجح أن يحققه قبل الزواج، هذا إضافة لرغبته بأن يكون مجيؤها بتوقيت مفاجئ.

تخطت نجوى توقعات أحمد البطم، جعلته ينتظر كامل اليوم الذي تلا العرس، والذي أمضاه يتخبط بنفسه، وينتظر لدرجة داخله فيها يأس ما، وتساؤل إن كانت قد استاءت منه، وأن عليه الذهاب هو وإحضارها.

عندما استسلم لتلك الحقيقة، وتمدد على سريره محاولاً النوم من

دون جدوى، سمع في الثانية والنصف بعد منتصف الليل نقرة خفيفة على الباب اعتبرها في البداية نقرة وهمية سمعها لمئات المرات، لكن مع تكرارها انتفض من سريره ومضى نحو الباب وهو يتسابق مع قلبه وأنفاسه وأقدامه، وحين فتح لها، وجدها بمعطف فرو بني وقبعة باللون نفسه، كان وجهها ملفوحاً بالبرد، تمتزج حمرته مع مكياج خفيف رُسِم على وجهها باتقان ورقة، وما أن دخلت حتى أبعدته عنها، وجلست على الكنبة، واضعة رجلاً على رجل، وقد انحسر معطفها إلى ما فوق الركبة التي كانت تشع بعريها في عيني أحمد البطم.

سألته أن يعطيها سيجارة، دخنتها برداءة امرأة غير مدخنة، استكملت بها غوايتها الصارخة، وهو يراقب أحمر الشفاه على الفلتر، ومن ثم على طرف كأس "الشامبانيا"، ولتقول له بعد أن شربت كأسها:

- هربت وإجيت لعندك!

عبارة أخذته إلى ما يريده تماماً، ارتجلتها نجوى وهي تعرف بأنها ستكون ذات وقعٍ مدوٍ، ودعوة لأن يغوص في لذتها ويقبِّلها بجوع، ولينجو أحمد البطم بأعجوبة من الجنون أو السكتة القلبية حين اكتشف أن نجوى لا ترتدي شيئاً تحت معطفها، عارية تماماً، جاهزة متى نزعه عنها لتلقي غرامه كاملاً.

لا يعرف الزمن إلا أن يمضي، يتوقف متى شاء، هو من يقرر، هو من يلقي بثقله على سلمى، فتتوسل إليه أن يمضي، ويأخذ معه ما توقف لأجله. ترجوه أن يعود إلى ما يتقنه، يمرر الثواني والدقائق والساعات، لا يدع للعقارب أن تلدغها كما هي الآن.. تتوق لأن تسقط أوراق الروزنامة دفعة واحدة، تأخذ شهراً كاملاً بيوم بسنة بسنوات، وهي تصرخ به: لمَ أنت بطيء هكذا مع العذاب؟ ما الذي يجعلك تتلذذ بغير ما كنته؟

ما من مجيب لسلمى، وليس لها إلا أن تعيش تحت وطأة ما خرج عليها من حيث لا تدري، بضعة رجال ينبشون بيتها مجدداً، يتفحصون حتى ذرات الغبار، التفتيش لا يخرج بشيء، فيعاودون مجدداً، ومن ثم تودع في سيارة، ترجوهم:

- بس خلوني حط الصبي عند حدا؟

والإجابة بالرفض بحزم وشدة وصلافة.

تمضي السيارة مسرعة بها، ترمي بها وابنها كحمولة تافهة في مبنى شاسع، ثم تقاد إلى غرفة باردة وعارية، لا نوافذ لها، الضوء يأتيها فقط من "لمبة" كبيرة تتدلى من السقف العالي بلون أصفر باهت.

تنتظر ما تجهله، وترقّبها يستيقظ ويخبو، يتصاعد لدرجة إحساسها بأن باب الغرفة سيفتح لا محالة، ثم تعود إلى التفكير

بلاشيء. تراقب إبنها وهو يدور حولها، تحاول أن تلاعبه فتعجز عن ذلك، تخرج حركاتها مخدرة، يبقى يدور حولها، تسأله أن يتوقف، يستجيب بحزن، يقفز على رجل واحدة فوق مربعات البلاط، يمضي لصق جدران الغرفة يمرر يده عليها، ما من شيء في هذه الغرفة الشاسعة سوى الكرسي الجالسة عليه، وطاولة مقابلها وخلفها كرسي، يمضي ابنها يتسلق المكتب، يجلس عليه مدليا رجليه، لا شيء يتغير.

مرت ساعات لا تعرف عددها، نام إبنها في حضنها. تسأل سلمى نفسها إن كانت الشمس قد غابت أو أشرقت من جديد، تعجز عن الإجابة، في لحظة ما نسيت أن تبقي إحساسها بالزمن فأفلت منها، وكان أكثر ما يؤلمها أنها من دون ساعتها، آلمها كثيراً ذلك.. **لو معي ساعتي لكنت عرفت.. كنت لحقت العقارب.. غابت الشمس.. في أصوات صعب أعرف شو هي ..بدي اسمعها.. الشمس غابت ولا بعدها راحت ضلت صبح ولا مسا والبرد ما عم يتغير كان صبح لما اجو عالبيت سامعة أصوات بس بعيدة هلأ سمعت في شي بعيد بس عالي صرخات بعيدة بعيدة وهي بالطريق لعندي بتخف.. بعيدة بعيدة**

بحثها عن الشمس أكثر ما وجدته نافعاً في تسجية الوقت، نامت وهي تفكر بها، لم يسطع أي شيء، استيقظت عندما استيقظ ابنها، عاد إلى رأسها قدرة هذا الولد على الاحتمال، **حبيبي ما بيشكي من شي بيحس إنو مسؤول عني يا روحي انتا يا فهيم يا غالي**.. تمسد شعره، ومن ثم تنهض معه، يسألها أن يتسابق معها فتقبل ويمضيان يتسابقان، يضحك كثيرا يصل قبلها إلى المكتب، هي تبطئ خطواتها، وهو ينطلق بأسرع ما باستطاعته.

يقول لها إنه يريد التبول، تعرف أنه وصل الدرجة القصوى من احتمال حصر البول في داخله، أحست بذلك منذ زمن طويل، تقابل ذلك بالصمت والخوف والحيرة، تتذكر أنها أيضاً بحاجة لأن تتبول، تحسم أمرها، تقرر أن تدعه يتبول في زاوية الغرفة، تجد ذلك أخف وطأة من أن تصرخ أو تنادي، صارت ترتجف خوفاً بمجرد تفكيرها بالقيام بذلك.

بعد أن انتهى ابنها، هيمن عليها خوف جديد من عقاب قد يطالها لأن ابنها لوّث الغرفة، ما انتصر على إلحاح البول في مثانتها، واختلط مع تخيلها أن يُفتح الباب عليها فتكون مقرفصة تتبول، كان ذلك كفيلاً بإلغاء ذلك تماماً، وتفضيلها احتمال نخزات الألم التي راحت تتسلقها على أن يراها أحدهم بهذا الوضع المهين، تخيلت هذا الموقف مراراً، وتكرر معه احساسها بأن الباب سيفتح الآن، وبما أنه لم يُفتح فإنه سيفتح بعد قليل، بعد دقائق، لا الآن، تنكمش على نفسها بانتظار أن يفتح الباب، لا شيء، ومجددا لا شيء، الانتظار صار طاغياً، انخفض منسوب المجهول أمام البحث عن خلاص، أمام ما يوقف هذا الترقب المؤلم وهو يحز أعصابها، وإبنها يعود مجددا للدوران حولها، الوقت بلا رحمة، ترجوه أن يتوقف، ثم تتوقف هي، ما من ساعة لتبقى لصيقة بها، تمضي في إغماءة، وهي تسمع صوت إبنها يأتيها من بعيد "ماما ماما"، تحاول أن تجيبه فتعجز تماماً، يأتيها شعور بأنها تتركه وحيداً، لا تعرف أين، لكن ما عاد بمقدورها، لقد مرت سنة كاملة وهي تنتظر لا شيء، تنتظر ما لا تعرفه، برفقة الخوف يدا بيد، إنه شيء اسمه المخابرات، هذا الشيء الوحيد الذي عرفته دون أن يقول لها أحد ذلك، **المخابرات** قالت لنفسها واستسلمت للنوم الإجباري، تتهالك على ما تبقى منها، تسمعه من جديد ينادي "ماما ماما" ثم لا شيء لا شيء.

توقظها الآن يد كبيرة، يد لا تعرف الرأفة، تستيقظ، يقف الزمن مجدداً أمامها يصرخ بها: أنا لم أمض بعد، لقد تخليت عنك، لا أريد أن تكتشفي كيف أمضي، يكفي ما عرفته في ما مضى، الآن أنتِ في زمن آخر، عارية تماماً من دون ساعة تكسوك، أنا أتحرك من دون أن يتاح لك أن تلقي نظرة عليّ.

لم يرحمها من يوقظها، فما أن فتحت عينيها حتى تبدى أمامها رجل بهامة مترامية، وأحست بأنها يده بالتأكيد من أخرجتها مما كانت غائبة فيه، هاربة من وطأة الزمن، التفت يميناً ويساراً فلم تجد ابنها وقد كان أول ما تبادر إلى ذهنها، نظرت خلفها فوجدته منكمشاً، بانتظار أن تراه ليركض باتجاهها ويحيطها بذراعيه.

بعد أن اطمأنت عليه، عادت لمواجهة من أمامها، والذي لم يقل كلمة واحدة، بل مضى مباشرة إلى الكرسي خلف المكتب وجلس عليه، ثم دخل رجلان، قال لهما الرجل الذي أيقظها:

- خلو الولد برا!

لم تستوعب سلمى ما قاله إلا عندما جاءا قربها ليأخذا ابنها، فقالت:

- لأ بترجاك خليه معي!

وأضافت حين لاحظت بأن من أمامها في طريقه لرفض طلبها.

- والله ما رح يعمل شي.. هادي كتير..

لم تبدر عن الجالس خلف الطاولة أية ردة فعل، بل غرق في الأوراق التي وضعها أمامه على الطاولة، غادر الرجلان الغرفة، بينما سلمى تسأل ابنها أن يلتزم الصمت، وألا يقول حرفاً واحداً، الأمر الذي استجاب له بتفهم، وتحلى بأعلى درجات الهدوء، وشعور داهم بالخطر وسّع عينيه.

بقي الرجل الجالس إلى الطاولة محتفظاً بصمته لوقت طويل، ولم يخرج عنه إلا بعبارة أجفلت سلمى:

- شو يا سلمى متعودين على التبول في الغرف، شو هالريحة الحقيرة؟

ولم ينتظر إجابتها ومضى في حديثه الذي كان حريصاً على تحقيرها به:

- قاعدة بزريبة حيوانات! ما فينك تمسكي حالك متل الحيوانات! لأ وبدك ابنك يسمع هالحكي، ذنبك على جنبك، شو يعني مفكرة البلد سايبة؟ حاضرين بس بدك تتبولي منجبلك فرع أمن مشان عيونك ومين متلك.

وانتقل من دون مقدمات إلى سؤالها وهي تفكر بشرح بأنها لم تتبول، إنه ابنها وهذا طبيعي.

- وين زوجك غسان؟

- بالبحر سافر بالبحر!

- كذابة!

- والله العظيم إنو مسافر بالبحر!

- كذابة!

- شو بحلفلك وحياة هالولد إنو بالبحر!

- كذابة!

وخرج عن كلمة "كذابة" ليقول لها:

- ما عم يبعت مصاري؟

- والله من وقت ما سافر ما بعت قرش!

- ولا شفتيه؟

- كيف بدي شوفو وهو مسافر بالبحر؟

ولينتقل إلى تهديدها:

- أنا بعرف كل شي، بس بدي ياك تحكيه، حتى تروحي انت وابنك المسكين.

مضى ذهن سلمى مباشرة إلى أحمد البطم، إنه السر الوحيد في حياتها، لكن المحقق اكتفى بهذه الجملة ومضى.

ثم عاد رجل آخر معه المصنّف نفسه الذي كان يحمله من أيقظها، كانت معالمه أكثر رقة ممن سبقه، وجلس إلى الطاولة من دون أن ينظر إليها، نزع ساعته ومن ثم خاتمه، فتذكرت ساعتها، ورغبت بشدة أن تكون معها، أحست بأنها لو كانت حول معصمها لكانت أكثر اتزاناً. فتح المصنف بهدوء، وأخرج من جيب قميصه قلماً.

دخلت مجددا معه في دوامة أسئلة لا تختلف بشيء عن أسئلة سابقه، لكن هذا الرجل كان يسمع الاجابات وهو منكب على الأوراق التي أمامه، لا يعلق أبداً، يمنحها فرصة لتنهي كل ما تقوله، ويمضي بضع دقائق صامتاً بعد أن تنتهي، لينتقل إلى سؤال آخر.

لم يحدق بها إلا بعد أن فرغ من أسئلته، أحست بأخضر عينيه مصوباً نحوها بشيء من التعاطف، لكنها سرعان ما اكتشفت غباء احساسها بذلك، عندما صرخ بها:

- ما رح ينفع هالحكي!

أحست بأنه سيتبع ذلك بصفعة لأنه نهض عن كرسيه وصار يقترب منها، وليتوقف فجأة لدى سماعه بكاء ابنها، حينها فقط اكتشف أنه

موجود أصلاً، الأمر الذي زاد من غضبه، ودفعه إلى فتح الباب بعصبية والصراخ "يا مساعد عادل"، وليدخل المحقق السابق.

ترددت كثيرا في أن تعطي للمساعد عادل عنوان منال لكي يرسل ابنها إليه، خافت أن يطالها أي شيء، لكنها لم تجد من خيار آخر، ولتنشغل بعد ذلك بإقناع ابنها بالموافقة على مفارقتها، من دون أن تجدي كل تطميناتها ولا رباطة جأشه التي تعرفه بها، حتى أن المساعد عادل اضطر للفصل بينهما، وإبعاده عن أمه بعد ان امتزج دمعهما، وظلت سلمى تسمعه ينادي عليها إلى أن اختفى صوته، حينها قال لها الضابط:

- فينا نخليها آخر مرة بتشوفيه فيها؟

حينها لم تتمالك سلمى نفسها، قفزت من كرسيها، فأمسك بها وقد اكتسبت عيناه الخضراوان لمعاناً خاصاً، ودفعها بيده لتجلس، ثم أمسك شعرها وجذب رأسها إلى الخلف، وليبقيه كذلك لوقت طويل وهو صامت، وليقول لها بعد زمن مرّ على سلمى طويلاً جداً:

- بدك تقولي وينو غسان البراني ولا؟

وأعاد رأسها بدفعة قوية، كاد أن يلامس فيها بطنها.

عاد إلى الطاولة، أشعل سيجارة، مضت سلمى تتكلم بكلمات مرتجفة، ولتفشل في منع نفسها من البكاء ودموع التوسل وهي تقول له:

- بس خبرني شو عامل غسان، بس بدي أعرف وأنا بوافق على كل شي بدك ياه.

كان أمام النقيب نجوان الأشتر الذي تولى التحقيق مع سلمى

معلومات كاملة عن غسان البراني، وكافة المهام التي قام بها بعد انتسابه إلى جماعة الإخوان المسلمين، بدءا من إشعاله إطارات أمام مدرسة "محمد شكري حكيم" وقطعه الطريق هو و"حفنة من الخونة"، مروراً بإطلاقه النار على دورية أمنية مشتركة وقتله لعنصر من الدورية وجرحه آخر، وصولاً إلى تواجده مع أبو علي الشتا في مباراة كرة قدم جمعت نادي تشرين ونادي حطين، وإطلاق النار العشوائي الذي جرى لدى اكتشاف ذلك، والذي راح ضحيته خمسة متفرجين وبائع كعك وثلاثة عناصر من كتيبة حفظ النظام، مع تأكيد كل التقارير أن نجاة أبو علي زعيم الإخوان كان بفضل غسان البراني وشراسته في القتال، من دون أن تغفل التقارير اعتبار مباراة نادي حطين مع نادي تشرين نقطة الضعف الأساسية لدى أبو علي الذي يشجع بجنون نادي حطين، والتي يمكن إضافتها إلى هوسه بدراجات "المشنص" النارية التي يمتلك واحدة منها يعتبرها أغلى ما يملك، لا بل وصل الأمر في أحد التقارير إلى إيراد ملاحظة توصي بإجراء لقاء بين الفريقين من جديد على اعتباره كميناً لن ينجو منه أبو علي.

وفي السياق نفسه تجمّعت لدى النقيب نجوان اعترافات لرفاق كانوا مع غسان البراني تشير إلى أنه هرب عن طريق البحر، وبما يشبه الإجماع، مؤكدين على أنه قادر على السباحة طيلة المسافة من الحرش إلى جبلة من دون توقف، مع ملاحظة تقول إن لقبه "الطوربيد" آت من قدرته على السباحة بسرعة خارقة.

بقي الأمر مصدر حيرة بالنسبة للنقيب، وأدهشه أن يكون قد تمكن من الهرب رغم الحصار الذي كان مضروباً على الحرش من البر والبحر،

كونه آخر نقطة حوصر فيها مقاتلو الإخوان، خاصة أنه استكمل معرفة مصائر كامل قائمة الأسماء التي لديه، والتي انحصرت بين القتل أو الاعتقال، وحده غسان نجح بالهرب من هذين المصيرين.

ومع توالي البحث والمتابعة، وصله تقرير من فرع للمخابرات في طرطوس يؤكد له أن غسان البراني قد عبر الحدود إلى لبنان وهو في طرابلس تحديداً. وهكذا كان النقيب متأكداً من أن اعتقاله صار مسألة أيام، ما دام لم يتمكن من الهرب إلى قبرص، ولبنان بالنسبة إليه أسهل مكان على الأمن السوري لاعتقال المطلوبين.

رغم اجتماع كل تلك المعطيات، لم يمتنع النقيب نجوان من اتباع كافة الاجراءات المتبعة مع المطلوبين من الإخوان، استدعى زوجته سلمى لكنه لم يجد بدا من إطلاق سراحها بعد خمسة أيام، كونها لا تفيد بشيء، لكنه وضعها تحت الإقامة الجبرية، وفرز خمسة عناصر للتناوب على الإقامة في بيتها، في ما يشبه الكمين لغسان البراني، وليضطر بعد عشرة أيام إلى إيقاف ذلك بعد تأكد اعتقاله في طرابلس.

كما استدعى كل من كان يجالس غسان لدى عودته من سفرته الأخيرة، وتجمعت لديه اعترفات كاملة لأكثر من ثمانية أشخاص بأنهم هم من ساعدوه على الهرب، بينما اكتشف انتساب أربعة منهم إلى الإخوان المسلمين، وجد ضمن ملفاتهم اعترافات كاملة بمشاركتهم بأحداث سمع بها للمرة الأولى، ومخططات كان نصيبها الفشل، وهو يقرأ كل ذلك بملل ونزق ويذيله بتوقيعه مع عبارة "يحال إلى فرع التحقيق في دمشق" وهو لا يتوقف عند ما يمكن أن تعنيه هكذا ملاحظة، والمصير الذي ينتظر صاحب الملف متى تمت إحالته وفق اعترافات خرجت منه تحت وطأة التعذيب.

لم يتول التحقيق إلا مع سلمى مدفوعاً بفضول قاتل ليراها، الأمر الذي جنّب سلمى أن تتلقى تشريفات الترحيب من التعذيب بالدولاب والكهرباء وغير ذلك من واجبات الضيافة الأمنية، هذا عدا يقينه بأنها لا تمتلك أية معلومات ولن يضيف اعتقالها أي شيء، على عكس زوجات غيره من المطلوبين.

وجدها على الأوراق امرأة وحيدة غريبة الأطوار، ومسير حياتها متقلباً ومتعرّجاً لا يخضع لمنطق. قرأ كل شيء عنها من دون أن يكون مضطراً لذلك، وجاءه إحساس عارم بأن عليه إيقاف مشاغله الكثيرة ورؤيتها وجهاً لوجه، وهو يشعر بأن ما منطق أمني في ذلك، لكن عليه أن يفعل وقد فعل.

حين رأى النقيب نجوان سلمى عن قرب، طرأت على رأسه فكرة مفادها أن التقارير الأمنية مقصرة تجاه هذه المرأة، تندر على ذلك بقوله بينه وبين نفسه **على التقارير أن تصف جمالها**.

عندما اقترب منها وجذب شعرها، تأملها طويلاً، تعرف على خطوط وجهها، ورقة نحرها، نزولا إلى كامل جسدها، وليجد بدفع رأسها بقوة، منفذاً وحيداً له للهرب من شروده بها، رغم شعوره بأسف شديد بعد إقدامه على ذلك.

مضت أيام سلمى على وقع الكابوس الذي هبط عليها من حيث لا تدري، ولم يكن في متناول يدها إلا الزمن لتحمله مسؤولية ذلك، وهي تزيد من هوسها بساعتها، صارت تطيل النظر إليها، بعدما أمضت عشرة أيام حبيسة البيت تلاحق عقرب الثواني وهو يجهز على دقيقة، ومن ثم تتفقد حركة عقرب الدقائق الخجولة، ليأتي بعده عقرب الساعات التي تتحرك بعد طول انتظار.

كانت تجد في ذلك وسيلتها الوحيدة لتسجية الوقت وهي لا تستطيع مشاهدة التلفزيون أو فعل أي شيء أمام رجال تناوبوا على الإقامة لديها، وقد كان عليها أن تخدمهم وتقدم لهم الشاي والقهوة، وتصنع لهم الطعام متى سألوها ذلك، وهي تحت نظر أعين غريبة تلاحقها بشهوة وفضول وريبة.

عندما انفضوا من حولها، بقيت عالقة في ساعتها، ولم يكن من شيء يعيقها عن رفع يدها وإطالة نظرها إليها، صارت تمشي مع ابنها ممسكة يده بيمناها، بينما اليسرى مرفوعة أغلب الوقت أمام وجهها تلاحق العقارب، حتى بدا ذلك مشهداً صباحياً لسكان "الزاروب" وشارع "بورسعيد" وهي ترافق ابنها إلى مدرسة "العناية" التي وضعه فيها أدهم سراج، بعد خروجها من محنتها واعتذاره منها عن عجزه التام عن مساعدتها، وليكون أيضاً عاجزاً عن منع ما تتعرض إليه في عملها، وقد صارت أغلب العاملات يجدن فيها عدواً يجب محاصرته أو عزله أو الانقضاض عليه، طالما أن زوجها وبالتأكيد هي من هؤلاء الذين كانوا يسعون لذبحهن وعائلاتهن على هدي حقد طائفي أعمى.

تركت عملها في "الريجي"، بدأ المال الذي وفرته من سفرات زوجها بالانحسار، ومضى ناقوس الخطر يقرع أجراسه، لم تعد تعرف إن كان عليها أن تبقى على إجابتها "مستورة" لدى سؤال منال عن أحوالها، أو تسألها المساعدة، ولتكتشف بأنها غير مضطرة لسؤال أحد طالما أن أدهم سراج موجود والذي منحها مبلغاً من المال من دون أن تسأله، وقال لها بأن هذا سيكون بمثابة راتب شهري عليها تقاضيه منه، ولتتعرف على حزم هذا الرجل للمرة الأولى عندما حاولت الرفض، ووجدت نفسها

منصاعة تماماً لما وصفه بأنه حق.. **حقي من شو؟ أكتر من راتبي ست مرات.. ليش هو معو كل هالمصاري؟**

أسئلة لم تلق عليها إجابة كعادتها، ولم يتبادر إلى ذهنها أحمد البطم ولا إمكانية أن يكون موجوداً أصلاً أو معنياً بها، بقي كل شيء معلقاً من دون إجابات مثل مصير غسان البراني الذي لم تعرف أي شيء عنه، ولم يتمكن أحد من أن يقول لها إن كان اعتقل أو قتل أو بقي هارباً، العجز الذي امتد وطال الجميع متى كان السؤال عن مطلوب من الجماعة التخريبية، حيث تتوقف السلطات وتتعطل وتتلعثم وتصمت عن الإجابة، لدرجة قال لها أدهم سراج:

- لما بيكون الحكي عن اخونجي فأنا حقي فرنكين.

من دون أن يمنع نفسه من إضافة:

- يعني في أجحش من غسان؟

وجد أحمد البطم في معاناة سلمى التي نقلها إليه أدهم سراج، شيئاً قادماً من زمن سحيق، نداء استغاثة عليه تلبيته لا أكثر ولا أقل، ولينتابه شعور كامل بالارتياح بمجرد معرفته بموافقتها على تلقي الراتب الشهري مع بقائه بعيداً عنها، وقبولها ذلك على أنه تقدمة من صديقه أدهم، لا بل إنه تعامل مع الأمر برمته بمنتهى العملية، وصارح أدهم سراج بسر علاقته السابقة مع سلمى كما لو أنه حديث عابر عن شيء لا يخصه قائلاً له:

- كنت بعرف إنك بتعرف.

- وأنا كمان.

- عيونك حكو كل شي.

- وأنت كمان.

لم يتطرقا إلى أية تفاصيل، واحتفظ أدهم بدور المستمع الخالي من أي فضول، يسمع بحزن ما يود أحمد مشاركته إياه، والذي لم يكن كثيرا أبداً، والشيء الوحيد الذي بذل أدهم سراج مجهودا كبيرا لئلا يسأله عنه، هو ابن سلمى ومدى حقيقة كونه والده.

كان أحمد البطم قلقاً أكثر على أدهم سراج نفسه، يختلس النظر إليه وهو جالس أمامه في مقهى "السويس"، يراه قد كبر فجأةً، واجتاحته هموم ما كان لها من ملمح على وجهه. وجده يسمعه بشرود

كبير وهو يحرص أن يكون إصغاؤه له في أحسن حال، ينجح أحياناً وينتصر للشرود، وحين كان حديثهما عن سلمى أحس أحمد البطم بأن صديقه كان على حافة البكاء، لكنه نجا بأعجوبة من السقوط في الدموع.

كان أدهم سراج في تلك المرحلة في أسوأ أحواله، فقد تمت تنحيته جانباً وقص أجنحته وامتيازاته بنقله من منصبه الرفيع المتمثل بمدير عام المرفأ إلى دائرة البحوث الزراعية في "جب حسن" على أطراف اللاذقية، حيث كان عليه الجلوس إلى طاولة طيلة دوامه وتأمل النباتات التي تملأ الغابة أمامه، ولم ينجح كل أصدقائه في حمايته من هكذا مصير، بما بدا له بأنهم كانوا يؤجلونه لا أكثر وهم يدافعون عنه رغم عدم انتمائه لحزب البعث، وقد أثار إعجابه تعليق أحمد البطم على ما حل به ووجده في منتهى الدقة:

- ما بدهم أتوقراط متلك! خلص سورية من هلأ صارت شي تاني، لك حتى بعشيين ما بدهم، وبكرا شوف كيف بدهون يطيروا صحابنا واحد ورا التاني!

فرح أحمد بنجوى عيد كان يحصنه ضد أي أسى جارف، وقد كان مقداره كبيراً لدرجة أنه لم يكن لشيء أن يخفض من منسوبه، مستعيضاً عن المساس به بتبني إجراءات نافعة، وممارسة أفعال يعتبرها أجدى من التعاطف، كأن يوفر لصديقه أدهم سراج وظيفة تليق به وتبعده عن مصير لا يناسبه، الأمر الذي استدعى منه صبراً طويلاً، واصراراً شديداً منه على أن يكون أكثر عناداً من صديقه الذي قبل في النهاية إدارة مكتب لوكالة عمه إبراهيم البطم في اللاذقية اعتبر أدهم سراج تأسيسه

معجزة، ولم تأت موافقته إلا بعد تأكده من أن الراتب الكبير الذي سيتلقاه متناسب مع حجم العمل الذي سيقدمه، ومحولاً له في جزء كبير من أعماله إلى مكتب للمحاماة البحرية، بعد نجاحه في كسب قضية شائكة لإحدى سفن إبراهيم البطم التي اصطدمت بقارب ملاحة قبرصي، حينها فقط أحس أدهم بأن لعمله معنى، وأنه سيستمر به.

واصل أحمد البطم خروجه عمّ كان عليه وزوجته تأخذه بعيداً في اللذة والاستقرار، متشابكاً ومتداخلاً بها، إلهة صغيرة لها معابدها وأعيادها اليومية، لا بل إن مشروعه الكتابي سرعان ما انحسر واختفى تماماً من حياته.

وافق أحمد البطم زوجته على كل شيء، وهو متأكد بأن في كل ما تفعله سعادة جديدة. حين قالت له بأنها ترغب بفتح مكتب لحجوزات الطيران، لم يتردد لحظة، لا بل سابق الزمن في تحقيق ذلك، وحين أخبرته بأنها ستسمي المكتب "المريخ" وافق على الفور ولم يسمع ما في داخله الذي يقول له **يا له من اسم سخيف!** بل وجد في بلوغ المريخ مطمحاً لا يحد، على صلة وثيقة بالطائرات التي ستحمل البشر يوماً إلى هذا الكوكب المجهول.

وجد في نجوى عيد الكثير من أمه، الكثير من سلمى، واجتياحاً كاملاً له من الرقة، تؤنث كل شيء بلمسة من يدها، تصنع ما يليق بأيامه التي وجدها قليلة، وقد بدد الكثير منها في البحث عن سعادات بعيدة عنها، **إنها مناجاة للفرح.. مسطرة وأنا قلم تافه علي أن أجاورها لأخرج بخط مستقيم إنها تعلمني ألا أتعرج وأكثر من الشخبطات والتخاريف ألا أصير وعراً وناشزاً إنها تبعدني عن الرسوم الفاحشة وهي**

تقرر الفحش حسب مشيئتها وتخرج منه سيدة أجدها في كل مرة طائرة بأجنحة وذاك الذي يخرج منها لا يعاد ولا يعوض

كل ما في حياة أحمد البطم صار متسقاً، كان فنجان قهوته مع أدهم سراج مع سيجارتين أو ثلاث في مقهى السويس مدعاة لفرح خارق، مروره بزوجته في مكتبها وذهابهما سوية إلى البيت مشواراً كاملاً لعمر لا ينقصه أي شيء، حتى أنه صار يومياً يزور أمه ليخبرها كم هو سعيد، وهو يرمق هرمها بالفرح أيضاً، عاجزاً عن فعل شيء غيره، وهو يراها أيضاً بكامل فرحها وهي تطمئن عليه، من دون أن يمنعها من قول أي شيء له كما درج على ذلك فيما سبق زواجه، محتفياً بكل كلمة تقولها، متفقاً هو ونجوى على قبول كل شيء منها. حين سألته التخلي عن فكرة عدم إنجاب أولاد من نجوى، قبل من دون أن يفكر، ولم يعد أبداً إلى إيمانه بأن إضافة بشر جدد إلى هذا الكون التافه ليس إلا ذنباً على الأبناء أن يحاكموا آباءهم عليه، وليتبع ذلك في الحال توقفه عن الهلع من تأخر دورة زوجته الشهرية، أو حرصه على كل موجبات منع الحمل.

ترك الأمور على سجيتها، وزاد من جرعة متعته مع نجوى من دون أن يولي أمر الحمل أي اهتمام.. **إن حصل فأهلاً به**، وواصلت أمه الطبخ له ولزوجته بعد التزام نجوى بمكتب الطيران، بقيت على عادتها بالمجيء في الظهيرة ومعها ما أعدته من طبخات، لكن بواسطة سيارة وسائق بعد أن وجدت بأن قدميها ما عادتا قادرتين على حملها كما في السابق، وعلى شيء من الترحيب بها من نجوى بما يفوق ابنها لأنها كانت تعتبرها مثل أمها تماماً.

هذا الدفء كان ما يتوق إليه أحمد البطم، امرأة تأتي من حيث لا يدري أو يدري وتنظم تخبطه، شيء من بحر رائق لازوردي ينسيه كل

الأمواج التي كان يتلاطم بها، وعلى أمه أن تكون حاضرة أينما حل، أن تكون شاهدة على ما يعيشه، وليس متوارياً عنها كلص، يريدها دائماً إلى جانبه حتى وإن كان بإمكان نجوى أن تنسيه الكون بحركة من يدها.

لم يعد يعرف أحمد البطم حر الصيف، نجوى تأخذه إلى "الصلنفة" فيمضي الصيف في حرارة لا تتعدى الستة عشر درجة، تحيطه الجبال من كل جانب، بيوتها الحجرية، خضرتها الفاقعة، ويفكر أن يصير شاعراً، وأن يكتب قصائد مثل تلك التي كان يكتبها أدهم سراج، يمشي هو وأمه قليلاً فتقول له "تعبت يا أحمد" فيعود بها إلى البيت ويمضي وحيداً، وفي الليل تأتي نجوى فيتدفأ بها وهما في الصيف.

دخلا السنة الثانية وصيفاً آخر، ونجوى تقول له "لأ ما الصلنفة. خلينا نروح على كسب؟"، فيفعل، وتمضي السيارة بهما وهي تتسلق جبالاً أشد علواً من "الصلنفة"، وتمسي البرودة نجاة من صيف حار، وأمه تقول "دخت"، والسيارة تمر في منعطفات خطرة وملتوية لا تتسع لأكثر من سيارة، وأحمد البطم يقول "شوية ومنوصل"، وفي الليل يسمع صوت الذئاب الوحيدة وقطعان ابن آوى تبكي وتغني وتنادي، **إنها مثل الصلنفة.. البراري تناديني تعيدني طفلاً صغيراً وأمي تأخذني معها إلى المصيف.. المصيف واحد سواء في الصلنفة أوكسب البرد نفسه الخوف الوحشة الطرق الملتوية صعوداً وهبوطاً أشجار السنديان والبلوط والصنوبر والسرو والبطم.. السناجب ترافقني على الأشجار وأنا ألتصق بها وأمي تضحك وتقول أحمد ما عدت قادرة على احتمال برد كسب أعدني إلى اللاذقية.. أريد الصيف.. المفاصل لا ترحمها وأنا أستعيد الهواء العذري ملء رئتي ملء حواسي ونجوى تأتي قبل المغيب العتمة**

لها وأول الفجر.. لا أريد إلا أن أستمتع بها وأمي تباركني وتعود معها إلى اللاذقية.. أبقى وحيداً ومزدحما بالمصطافين بالرقة المفرطة بأكثر مما أحتمله فأتخطاها إلى ما يرن في أعماقي وأمشي طويلاً.. الصلنفة أجمل من كسب رغم قربها من البحر أفارقها وأمضي إلى الصلنفة وذلك البيت الحجري بشبابيكه الحمر ألاحق الغائب عني الحاضر الآن بالفرح البسيط وأتذكر مطلع قصيدة لأدهم سراج:

الله في كل مكان

أنت في كل مكان

لم تلتقيا بعد

لا أعرف ماذا تقول لي الآن أحاول إكمالها لكن عبثاً أمضي وهي تلاحقني أخرج من الغابة أمضي في الطريق التي تقود إلى "باب جنة" أعود منها ولا أكمل أعرف أنها ستة كيلومترات أمامي لكنني أعود إلى مفرق "الجوبة" وأمضي في طريق أخرى .. الله في كل مكان تتردد في رأسي أحتمي منها بإضافة سطر جديد إليها لكنني عاجز من وطأة الجمال أقول لنفسي لتكن تلك إضافتي.. عاجز عن إضافة سطر واحد أخاف أخطاء الولادة وأنا أولد من جديد الولادة قد تكون إملائية أيضاً وأخطاؤها أيضاً أبحث عن ممحاة لما مضى لكنها صرخات لا تستقر على ورق حسبي أوراق الأشجار أنا الآن ظلها وكثافتها وأنا أعاود دخول الغابة من جديد وأعود إلى الدير المهجور وفي داخله صليب بانتظاري صليب لذة وثالوث أمي ونجوى وأدهم.

حين تقول له نجوى بأنهما سيذهبان إلى فرنسا، يوافق أيضاً بشرط أن يكون ذلك بعد بضعة أشهر، **ليس الآن**، لا يريد أن يفارق الصلنفة،

إنها أجمل بقعة على وجه الأرض، ما يشجعها لأن تشرح له مشاريع السفر التي أعدتها ليتجولا أولاً في جميع أرجاء أوروبا، ومن ثم الولايات المتحدة، وبعدها أميركا الجنوبية، لا بل تطغى عليها الحماسة، فتضع خريطة العالم أمامه وتشير له بأنها ترغب بالدوران حول العالم، **في ثمانين يوماً.. ثمانين يوماً بعيداً عن أمي**، ويتقافز في رأسه البعد، المسافات، وهوسه بأن يكون قريباً من كل شيء، من الهواء الرطب نفسه، من البرودة الصيفية، من اللاذقية التي يؤرقه فيها أنها تتغير، وهو لا يريدها إلا كما هي، والمرفأ ذروة ذلك القلق الذي يمتد ويتوسع ويلتهم "الكورنيش"، وفي ذهنه أنهم بلّطوا البحر حقاً، ولا يمكن لأحد من اللاذقية أن يقول هازئاً بتحد "روح بلّط البحر"، لأنهم فعلوا ذلك حقاً، وقضوا على الكورنيش، وما عاد كما كان، وأدهم سراج يقول له إنه قدم دراسة كاملة لأن يكون التوسع باتجاه "الكورنيش الجنوبي"، لكنهم رفضوا ذلك لأن التكلفة ستكون أكبر، وستزيد عن تسعمائة مليون دولار **لا أحد يبالي بجمال اللاذقية.. لو كان معي ذلك المبلغ لأعطيتهم إياه ليبقوا الكورنيش القديم ليبقوا على تلك الذكريات اللعينة ويتوسعوا جنوباً وأنا لم أعد أحب الميناء أكثر من البحر.. البحر أجمل.. سأسافر... وأمي لن تزعل لأني فعلت ذلك مع نجوى ولم أفعله معها وهي ترجوني في كل صيف أن أذهب معها إلى فرنسا من دون أن تتلقى ولا حتى إجابة**

لم تكن فرنسا مدرجة على قائمة انزياحات أحمد البطم، كل ما في حياته كان مجتمعاً على ألا يغادر اللاذقية وإن رغب فجأة بتغيير تلك الحقيقة، ففي يوم السابع عشر من أيلول ١٩٨٤ خرج من بيته إلى

مكتب زوجته في شارع "بغداد"، شرب معها فنجان قهوة، وسمع كل ما تخبره به عن خططها المستقبلية بفرح ومباركة، وحين خرج من باب المكتب شعر برغبة عارمة أن يعاود النظر إلى زوجته ويأخذ جرعة أخرى من جمالها، فالتفت ووجدها منكبة على عملها وقد كست وجهها ملامح جدية مفرطة وجدها غاية في الإثارة، وعلى هدي وجهها مضى أحمد إلى مقهى "السويس"، وراح يقرأ صحيفة "الوحدة" التي مضى على صدورها ثلاثة أشهر، ولتكون الجريدة الوحيدة في المدينة.

حين جاء أدهم سراج إلى المقهى كان أحمد البطم غارقاً في قراءة الجريدة ما جعل أدهم يقول في اللحظة التي جلس فيه على كرسيه:

- نيالك معك "اللوموند"!

- عنجد انها "اللوموند"! شي بيرفع الراس!

ضحكا وطوى أحمد على الفور الصحيفة ووضعها تحت ذراعه على الطاولة وأشعل سيجارة، وحين تذكر أن عليه أن يقدّم لأدهم سيجارة، رفع الأخير يده بسيجارة مشتعلة.

لم يتكلما كثيراً، كانا مستمتعين بنسمات أيلول اللطيفة التي تحمل تباشير الخريف، وحين قال أحمد البطم:

- الجو جو مدارس!

أجابه أدهم في الحال وهو يفكر بالشيء نفسه:

- في ريحة حبر وأقلام رصاص.

في الثانية ظهراً عاد أحمد البطم إلى بيته من دون أن يمر بمكتب زوجته، ولدى صعوده درجاته القليلة، فوجئ بالباب مفتوحاً على

مصراعيه، اجتاز عتبة البيت وكله تحفز وهو يجد على بلاطه صحناً مكسوراً وقطعاً من مربى النارنج متناثرة في كل مكان، وطنجرة تناثر ما في داخلها من رز، وصولاً إلى طنجرة أخرى لم يتبين ما في داخلها، إذ إنه سرعان ما رفع رأسه عن تعقب المتناثر على الأرض بعد أن استجمع نفسه وهيأها على مواجهة أمر جلل، وقد ترك أملاً أخيراً له بألا تكون أمه أمامه مادامت سيارتها ليست أمام باب بيته، أو أنه السائق تعثر وأوقع طناجر أمه، لكنه كان أملاً واهياً تفتت في اللحظة التي رآها فيها مرمية على الكنبة المواجهة للباب، غارقة في سبات كامل ومازالت حمالة مفاتيحها عالقة في ابهام يدها اليمنى.

عيناها المفتوحتان على اتساعهما أكدا لأحمد بأنها ميتة لا محالة، وحين اقترب منها ولامس خده خدها تأكد من البرودة التي تسربت منها إلى أعماقه بأنها فارقت آخر ذرة من حياتها.

بقي ملتصقاً بها لزمن يصعب تبيّن مدته، وقد هيمن عليه احساس بأنه لو أطال مدة التصاقه بها فإنها قد تعود إلى الحياة من جراء الحرارة التي ينقلها إليها، حرارة حبه الجارف لها، هوسه بخلاياها، وهو يسعى للصراخ بكل واحدة منها لكي تستيقظ وتعود إلى الحياة من جديد، يرجوها ألا تفارقه وتتركه وحيداً، وقد شعر بأن هذا الكون أصبح زنزانة فجأة، في اللحظة التي تسربت بها برودة سعاد المرتجى، برودة تخلت عن حرارتها الدائمة، وكل ما كانت تفعله هو الدفء.

حملها إلى سريره، وأحاطها من جديد بكامل جسده هذه المرة، وكله أمل بأن ينجح حقاً بنقل حرارته إلى برودتها، أن تمضي حياته إلى موتها، فلا يعود موتاً بل قيلولة، هدأة، استراحة من حنانها الذي إن

فارقه فلا شيء سيخرجه من نفق طويل لا ينتهي، يتخطى الوحشة إلى مجاهل كثيرة أعتى وأعنف، لكن برودتها لم تنتقل إلى لحمه وعظامه، برودتها القارصة وما بين يديه كومة ثلج أفرغت من الحياة، سحابة موت تمطر في حياته التي أمست يابسة متشققة ترى في الحياة موتاً.

كانت عيناه تلفظان كل ما فيهما من دموع لجعله يوقن بأنها ماتت حقاً، هو الذي لم يعاين أو يتخيل يوماً الحياة بدونها، بما جعل الموت أمراً بعيداً عنها، لا يطالها، ليس له من مكان في حساباته معها، إنها على قيد الحياة، قيد يمسك بها جيداً، ولا طاقة لأحد أن يفكه عنها، كان متأكداً من أن خطأ كونياً جسيماً قد وقع، وسرعان ما سيتم إصلاحه، وراح يحيطها بذراعيه أكثر، بقوة، يقربها منه فليفظ مزيداً من الدموع ويخاف أن يفتتها، أن يكسر من عظامها الصغيرة، فيخفف من إطباقه عليها ولا شيء يخرج عنها، لا تجيب، لا تتألم، لا تنطق، وعيناها معلقتان في السقف، وحين ينهضها يعود بها ورأسها المتدلي.

مرت أزمنة معطلة، تكاثف كل سواد العالم، تلامح في ذهن أحمد البطم كل ما خالفها به، مشاهد كاملة ومتوالية وبلا رحمة كان يفعل فيها الشيء نفسه، وتحت عنوان واحد هو القسوة وهو يرفض كل ما تقوله.

وجدها امرأة مهجورة بسببه، مكرسة كل ما لديها لخدمته وهو يهرب منها رغم أنه لا يستطيع القيام بشيء من دونها، عثر على فرحها حتى بعناده، واحتفائها بضيقه بحنانها، هيمن عليه مشهد قاتل حين دخلت عليه الحمام في ليلة عرسه وهو عار تماماً، وراحت تفركه بالليفة، وهي تقول له "شو مفكر حالك كبرت"، وهي تفركه أكثر وفي عينيها دموع فرح غامر.

أثقل حزنه الندم، انتابه إحساس بأنه أسوأ ابن على وجه الأرض،

ووجد نفسه يصرخ بها وهو في العاشر الثانوي بألا تنتظره أمام باب المدرسة، وهو يريدها أن تستيقظ من موتها وتسامحه، وأن تعود إلى انتظاره كما أحس في اليوم التالي حين خرج من المدرسة ولم يجدها واقفة أمامه، وأن تغفر له حرقه كل المناديل التي كان يجدها دائماً مطوية ومعطرة في جيوبه، ووصلت به الذاكرة إلى اصراره على تخريب تصفيفها شعره، ومن ثم إهراقه قنينة العطر التي تضع له منها. عاد إلى عمه إبراهيم البطم وهلعها إن رآها تضحك معه وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره، توقف عند نباتاتها وأشجارها، تذكر انتظارها النارنج أن يثمر، عاد مربى النارنج الذي كانت ستذيقه إياه قبل موتها بقليل، وجدها منهمكة تراجع حسابات المحاصيل وحركة الأموال وقد وضعت نظارة صغيرة على عينيها، تجوّل في ثيابها، في خزانتها الشاسعة، في بدلة عرسها التي تخرجها مرتين في السنة وتعلقها على شجرة لتهويتها، ومن ثم تطويها وقد دفنت فيها كرات النفتالين، انغمس بها أكثر، مرّغ وجهه في نحرها باحثاً عن رائحتها.

عندما جاءت نجوى إلى البيت كان ما يزال في السرير معانقاً أمه، لم تنجح بالفصل بينهما، صارت تصارع أحمد وهو لا يجيبها، لا يشعر بها، مشغول ببكائه عن بكائها.

يئست من محاولتها المتكررة، تهالكت على كرسي قرب السرير واستسلمت لعجزها وحزنها، نهضت عن الكرسي وراحت تجمع حطام صحن خالتها، طنجرتها المرمية في الصالون في شرود مبلل دفعها لوضع قطعة من مربى النارنج في فمها ومن ثم بصقها وقد شعرت فقط بمرارتها من دون حلاوة تذكر، دون أن تنتبه إلى أنها جرحت أصابعها بقطع الصحن الحادة.

لم يكن لأحد أن يعرف ما الذي كانت ستصير إليه حياة أحمد البطم بعد وفاة أمه. هو نفسه كان عاجزاً عن تخيل الحياة بدونها قبل أن تستسلم لموت لا يؤجل، كان ساهياً عن تلك الحقيقة، لا يراها ولا يدع لها أن تداهمه إلا كافتراض عصي على التحقق.

تبادل مع الأيام التي تلت وفاة سعاد المرتجى اللعنات، خرج من فرحه الطارئ إلى شخص لا يطاق، استبدل حزنه العميق بحنق غاشم راح يربي مخالبه وأنيابه لافتراس كل ما يصادفه، بدا له الغضب بديلاً أجدى من الحزن الذي حوّله إلى ورقة شجر خريفية ساقطة تدوسها آلاف الأقدام.

ألغى حياته التي انعطف إليها، لم تنجح نجوى عيد في إخراجه مما صار إليه، بدت له في لحظة تكاثف فيها حزنه وغضبه وتخبطه امرأة تافهة لا تستحق أن يفرِّط كرمى لعينيها بوحدته الموحشة بعد أن غابت أمه واستقرت في التراب اللعين.

أراد لأمه ألا تدفن بل أن تحرق عوض تركها وليمة للدود والكائنات الترابية المتحللة، إلا أن أحدا لم يساعده، ولم يستطع مقاومة غضب أختيه بمجرد أن باح لهما بفكرته.

في الجامع وأثناء الصلاة على أمه وقف خارجه يدخن وقد وضع نظارات شمسية سوداء، وأثناء الدفن لم يتمالك نفسه وهو يراها توضع

في حفرة حقيرة كما لو أنها خرقة بيضاء، وجد في كل ذلك جنوناً ينذر بغباء البشر، أراد من كل قلبه أن يرمي بنفسه خلفها ليؤنسها ويخفف من وحدتها القاتلة.

العزاء الأكبر وجده بالجبار الذي عانقه طويلاً، وأنبوزة الذي هبط عليه ولم يكن قد رآه منذ أكثر من خمس سنوات، مع جحافل من أصدقائه القدامى المتواري عنهم منذ زمن طويل. هؤلاء وحدهم ساعدوه على نسيان رؤيته عمه ابراهيم البطم على عكازه وفي وجهه نظرة قائد فرَّط بجميع جنوده وسلّمهم للإبادة، وحدهم من خلصوه من وطأة احساسه بالأنانية، وهو يستعيد أمه التي خلت حياتها من شيء إلاه، هم من أخرجوه من رغبته بالبقاء ملتصقاً بكتف عمه وهو يعانقه ويبكي على كتفه تاركاً بقعة دموع حارقة على قميصه.

رحب بالندم مع اشتداد حصار حياته المأهولة بأمه فقط، رحب بسلمى التي صارت تجتاحه بلا رحمة وهو يراها كأمه تماماً، يحبها لأنها كذلك، يهجرها للسبب نفسه وعلى حضنها طفل لا يريد له أن يكون مثله.

أيام كثيرة مضت، سرعان ما صارت شهوراً وأحمد البطم يركض وأشباح تلاحقه، حسرات واشتياقات لا تتوقف عن نحره ليل نهار وهو يعود إلى "الزاروب"، يتربص بما خلّفَه وراءه، يستجمع ما كان عليه، ينفض الغبار عن عليته، يجد بابها برتقالياً فيبكي.

تعود سلمى كما رآها أول مرة، تخطفه من كل شيء، ثم يعود منها، في أحلام يقظة وفي موهن الليل، ودائماً برفقة أمه، يمضي إلى بيتها يقرع بابها تفتحه ثم توصده ثم تعود إلى فتحه، ولا يعرف ما

عليه فعله ولا هي أيضاً، يقف لدقائق محاولاً موازنة نفسه، ثم يمضي، يهرب ولا يعود.

ماذا علي أن أفعل؟ لا أعرف أقسم بلا شيء بأنني لا أعرف ولا هي أيضاً.. يعود إلى عليته يوصد الباب خلفه فتهبط الخفافيش من السقف، يمضي إلى نجوى عيد فيزداد ألماً وهي تقابله بهشاشة تحز قلبه، يربت عليها ولا يقوى على البقاء تحت سلطة عطفها.

لم أعد قادراً على القفز إلى شيء جديد ليس لي إلا مجانيني لأنني منهم هم من يملكون نبوءة العبث وهباء كل شيء ولا مكان للحزن لديهم.. يحكمون قبضتهم عليه ولا يدعونه أن يتسرب.. يمتزج مع الضحك وسرعان ما يلفظه حين يصبح صاخباً مسكوناً بخيالات من المستحيل تحقيقها فيصبح المستحيل معبراً إلى القيام بلا شيء إلى الكسل وعدم الاتيان بحركة إلى أن يأتي الموت ويأخذنا ونحن نضحك نموت من الضحك

الكحول لا يغير شيئاً، لكنه يعقم الضحك يزيده توهجاً. يجد في خربة الجبار مكاناً صالحاً لفرحه الحزين، ينام عنده، ويمضي معه أينما يذهب في مشاويره العجيبة، أحيانا يزورهما أدهم سراج فيحل على أحمد البطم فرح من نوع آخر، كما لو أنه يضعه في هدنة مع نفسه، يصرخ به تحت وطأة الكحول:

- انتا شاعر وكل شي عملتو كان لتقتل هادا الشاعر وتخرسو.

يجد أحمد البطم في البراري ملاذا، بالصيد، يطلق النار بجنون ولا يرحم أي طائر، يجد الطائر يتخبط بين الحياة والموت يقطف رأسه في الحال، أو يأخذ ريشة ويمررها في الرقبة الصغيرة، يتلذذ بالدماء الحارة

لتلك الكائنات الطائرة، ولا يستثني حتى الغربان التي ما أن تسقط حتى يرى فيها سقوطاً للسواد اللئيم.

يعود إلى زيارة المشلوش، ويولم فوق القبور، ويسمع أحاديثه وهي ترى الأموات أحياء ومعهم الجان والملائكة والشيطان، يضحك ويسأله أن يعد له قبراً يستطيع التقلب فيه، وأن يحرص على زيارته وغسل شاهدته بقنينة عرق أو ويسكي أو أي كحول لعين.

يتندر على ما كتبه، ويهزأ من نفسه التي رآها ابتعدت سنوات عنهم، وهو يظن واهماً بأنه شيء آخر، وأنه يصنع لهم تاريخاً كاملاً بكتابته عنهم، يضحك ولا يملك إلا الضحك، تمر حياته من أمامه ولا يجدها إلا على الحافة وبانتظار كوارث لم تقع، حياة لا شيء يتهددها ومع ذلك لا يفارقه الإحساس بأنها تدور حول المآسي، وهو يضيق بها كلما اتسعت دائرة رغباته المحققة، ويجد في البكاء الذي يهبط عليه دون مقدمات خيانة لكل ما يروض نفسه عليه، يبكي حين يرى أن أمه وحدها كانت كل شيء، يبكي لدرجة إحساسه بكرهها لأنها السبب بكل ما هو عليه وقد ماتت قبل أن يموت.

ما أن استقر أحمد البطم على مواصلة الحياة التي عاشها فيما مضى، حتى وجد مكتشفات جديدة كان أشدها وقعاً الصيد بالديناميت. لم يكن صيد الأسماك وارداً في قاموسه، معلناً مراراً بأنه يمقت الكائنات البحرية لأنها غبية لا تحتاج لأكثر من خيط أو شبكة حتى تصبح ضحية أو غنيمة، لكن مع الديناميت تغير رأيه هذا طالما أن بامكانه ارتكاب مجزرة بها.

كانت تجربته الأولى في "أم الطيور"، حين أمضى والجبار بضعة أيام هناك، سرعان ما تعرف فيها على الصيادين الذين كان عدد كبير منهم

مشوهاً من الديناميت، أياد مبتورة حلت محلها الخطافات، عيون مطموسة وآذان مختفية وتشوهات وحروقات، وحين جرب أحمد البطم ضرب الديناميت لم يفكر بكل ما رآه، وعندما أحس بلذة لا مثيل لها صار يكرر ذلك مراراً والجبار يرجوه ألا يفعل ولا يلقى منه أذن صاغية، حتى أنه مدد إقامته في "أم الطيور" وصار يمضي مع كل صياد ينوي ضرب الديناميت، وقد كانت كثرة الأسماك في تلك المنطقة لا تستدعي الابتعاد كثيرا عن الشاطئ.

آمن بأنه يحقق بهذا الصيد انتصارات كبرى على كل شيء، وجد في الغوص وفي يده اصبع ديناميت مشتعل مغامرة مجنونة، دافعاً للشعور بالفخر والكبرياء وهو يلقي به على تجمع أسماك كبير، يرمي به ويمضي مسرعاً نحو سطح البحر، وكله إحساس بأن يتحرك بين الموت والحياة، بين القاع والسطح، ولتكون لذته الكبرى حين تصاب أذناه بالصمم وتدور الدنيا في عينه، بعدئذ يستعيد سمعه بينما جثث الأسماك تطفو على سطح البحر، مئات ومئات من الأسماك بألوان وأحجام كثيرة وقد حل هدوء تهدهده الأمواج، هدوء سرعان ما يختفي مع جمع من معه للأسماك وهم في فرح صاخب.

عندها وكعادة أحمد البطم عند اكتشافه هوساً جديداً، تحول الديناميت إلى شغله الشاغل، متنقلاً بين ابن هاني وجبلة وبانياس وطرطوس، حتى أنه اشترى قارباً، وتعرّف على جميع الصيادين المشتغلين في سلك الديناميت، بمن فيهم أبو حميد "ملك الديناميت في الساحل السوري" الذي فقد ذراعيه من شدة هوسه بهذا الصيد ويقال عنه إنه واصل لوقت طويل القيام بضرب الدينامت برجليه، وحين وجده في

"ساحة البلدية" في جبلة أمام عربته عرفه في الحال من دون أن يسأل أحداً، كان يبيع خضرواته من دون أن يقوم بشيء، يومئ برأسه فقط للزبون بأن يضع ما وضعه في الكيس بالميزان، وأن يضع الوزنة المناسبة، طالبا منه المبلغ الذي يضعه الزبون في علبة أمامه ويأخذ الباقي تحت نظره الثاقب.

حين تكلم معه أحمد البطم تكشف أبوحميد عن شخص عدائي، ولم يمهله أن يكمل بل قاطعه قائلا له "بدك تحكيني عن الديناميت.. روح من هون ولاه كتير عليك الفاتوش"*، استفزت أحمد البطم الطريقة التي قال فيها أبو حميد جملته تلك، وجد في وجهه النحيف المكسو بالتجاعيد كل لؤم العالم، ولم يقاوم رغبته العارمة بضربه بكل ما أوتي من قوة على الوجه مباشرة، وبقبضة مكورة ومتوترة.

غمره الفرح وهو يرى أبو حميد يختل توازنه ويقع على الأرض لعجزه عن الإمساك بشيء، ولينهال عليه بالسباب والصراخ الذي دفع بالباعة الآخرين إلى التجمع حولهما والتناوب على ضرب أحمد البطم بلا شفقة وهم يقولون له:

- عم تضرب رجال ما عندو ايدين يا أخو الشرموطة؟

لم يعرف كيف تم انتشاله من أيديهم، ولا من هم الذين ساعدوه على الهرب قبل أن يلقى حتفه؟ كانت هذه المرة الأولى في حياته التي يضرب فيها أحداً، وبدا له أنه انتظر سبعاً وأربعين سنة ليقدم على ذلك، ومثلها من الأعوام ليذوق طعم الدم في فمه ويتلقى من الركلات ما جعل الألم يرافقه لأيام، يطالعه مع كل حركة من جسمه، ويشعر به كشيء جديد يستدعي الاحتفاء.

---

* مسمّى أهل اللاذقية للمفرقعات أو الألعاب النارية .

واصل أحمد البطم تفجيراته البحرية، لكنه وكعادته أيضاً صار يبحث عن جديد على صعيد الانفجارات، أراد أن يخرج من سماد نترات الأمونيوم والصاعق التافه الذي يشعلها إلى شيء أقوى يجدد فيه متعه، وراح يبحث عن مركبات أقوى وصارت المتفجرات هوسه بعيدا عن الصيد، كان يريد لها أن تزلزل حياته بقوة أكبر، أن يستخدم النتروجلسرين، الفلمونات بأنواعها، بيروكسيد الأسيتون، بيروكسيد الهكسامين، وغيرها من مواد كيمائية لم تكن في متناوله، لكن سرعان ما أدى بحثه المحموم إلى اكتشاف طريقة لتصنيع متفجرات على قدر لا بأس به من القوة، واستعان في جمع المعلومات بضابط سابق تعرف عليه منذ أكثر من عشر سنوات، راح يحتمل جلوسه معه لساعات طويلة في "رابطة المحاربين القدماء" وتجرع كؤوس العرق وهو يسأله بين كأس وأخرى عن معلومة متعلقة بحمض الكبريتيك فيعرف منه أنه موجود في بطارية السيارات، وأن الهكسامين هو نفسه الدواء الذي يستخدم في معالجة الأمراض البولية، وليلجأ بعد يأسه من تحصيل معلومات أخرى من الضابط المتهالك، إلى صبحي العواد في الرمل الفلسطيني ويستفيد من خبرته الطويلة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ويمضي معه على دراجته "المشنص" إلى شاطئ البحر ليستحضر له ذكرياته، فيسمعه وكل ما في ذهنه البحث عن طريقة يدفع بها صبحي إلى إعطائه معلومات منتظمة ومتوالية، غير حديثه عن خطورة النترغليسرين الكبيرة، وتعليله ذلك بأن سرعة انفجاره تصل إلى ٧٠٠ متر في الثانية، ومن ثم إكمال حديثه عن مغامراته الغرامية في بيروت، وهوسه بدراجته التي يتبادل معها الحديث كما لو أنها حماره.

وفي واحدة من لقاءاته مع صبحي العواد لم يتردد في مصارحته بأنه يريد أن يتمكن من صناعة ال "تي ان تي"، متخلياً عن حذره، وضارباً عرض الحائط بإمكانية أن يبلّغ صبحي عنه المخابرات، سأله ذلك وشرح له هوسه ومنابعه، والمشاعر التي تنتابه عند التفجير، وأنه في أمس الحاجة ومن ناحية نفسية عميقة أن يتمكن من الانتقال إلى ما هو أقوى من ديناميت الصيادين، ووصف له نجاحه بتحقيق ذلك بنوع من الخلاص، يدفعه لاكتشاف طاقات جديدة تعطيه قوة تنين حزين. سمعه صبحي بفم فاغر، مستغرقاً وقتاً طويلاً في الصمت وهو يحاول استيعاب ما قاله أحمد، والتأكد من أنه جدي وخال من التندر والضحك.

جواب صبحي العواد بعد إلحاح أحمد البطم الذي أكد له بأنه يريد حقاً معرفة تلك الصناعة، كان أنه لا يعرف صناعة ال"تي ان تي" بالدقة التي يتطلبها، لكنه يعرف المكونات مثل التولين وأن عليه أن يغلى حتى الدرجة ١١٠ مئوية، لكنه لا يذكر نسبة تركيز حمض النتريك، ومعدات يجب توفيرها وإلا فالأمر فاشل.

لم يهتم أحمد البطم بالنسب ولا الدقة ولا غير ذلك، صارت مساعيه منصبة باتجاه تحصيل المواد، والتي اختلطت بخوفه وإحساسه بأنه قد يمسي ملاحقاً في أية لحظة، فمارس على الفور دور المُراقب، وصار يتفحص كل من حوله أينما كان، ويحسب خطواته ويدرسها، وصار انشغاله مضاعفاً وعليته مليئة بالمواد الكيميائية والأنابيب والقدور وحياته كعادتها مفتوحة على احتمالات جديدة.

في الساعة الثالثة والربع ظهراً من العاشر من آذار عام ١٩٨٥ دوى انفجار هائل بدد قيلولة انتفض منها كل من استسلم لها على مساحة امتدت لعشرة كيلومترات، معيداً إلى الأذهان ذكريات أحداث لم يمض على مرورها أكثر من ثلاث سنوات.

كان البحر رائقاً ولامعاً، كحلي كله فرح على عكس ما يوحي به هذا اللون، وقد كان يداخله حنين للأسود سرعان ما حضر حداداً على من ذاق ملوحته.

لفظت عليّة أحمد البطم كل حياته دفعة واحدة، وفتحت أحشاءها قبل أن يفيض عنها كل شيء. ألقت بعتاده الذي واجه به حياة غاص وتخبط بها لدرجة الانفجار: خردواته، عبواته، أنابيبه، عدة صيده البري والبحري، وأكداس من الأوراق التي تزاحمت على سطحها كتابات بلا نهاية، ومخططات ورسوم وأحلام لم يكملها، ومعها تلك الصور والقصاصات التي لم يتح له الوقت أن يعلّقها على جدران عليته العارية وقد تهدمت وانفلشت الآن.

احترقت الصور التي التقطها، اللوحات التي رسمها، الطوابع، العملات، تداخل معدن سريره مع حجارة عليته ممتزجاً بمزق لحمه الذي كان مجتمعا عليه منذ ثانية، ومعها سبع وأربعون سنة لم يعرف إن كان سيصلها أو أنها كافية أو كان يرغب بالمزيد.

تناثر أحمد البطم كرماد أراد لأمه أن تتحول إليه، رمى الانفجار بأعضائه في جهات لا تحد وعلى مسافة كافية لئلا تجتمع من جديد ويتغمدها تراب. تخلص من عبء حواسه المضطربة، ونفض عنه الحياة التي بقي حتى اللحظة الأخيرة عاجزاً عن فهمها.

توقف عن ابتكارات لا تحصى أرادها أن تكون كثيرة ومتوالية ومتناقضة لينجح بالهرب جيداً، إلى الخلف أو الأمام، يصل بها نهاية حياة لم يكن ليريدها للحظة على ما بدت عليه، أو أن ينجح على الأقل بقتل رتابتها، وقد نجح لدرجة فجَّر فيها الملل.

لم يتبادر إلى ذهن أحد بدايةً أن الانفجار قادم من علية أحمد البطم، عدا أبو خليل الجالس على كرسي أمام دكانه يقرأ الأجوبة الخاصة في مجلة "طبيبك"، والذي ما إن دوى الانفجار حتى عرف في الحال أنه أحمد البطم، ونهض عن كرسيه ليجد نفسه يقطع شارع "بورسعيد" برفقة أبو نعيم "الكهربجي" من دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وقد أخمد صخب شاحنة متآكلة محملة بأكياس الطين، بعد أن أوقفها سائقها وغادرها لينبطح أرضاً، وتتفاداه سيارة "فيات" كانت قادمة بالاتجاه المعاكس انحرفت يميناً وارتطمت بعمود الإنارة.

كانا أول الواصلين إلى العلية التي رمت نفسها في حضن ورشة الجنكلي للدراجات الهوائية، والتي أفلتت من جوفها ثلاث دراجات مضى كل عجل فيها باتجاه، وتوزعت هياكلها بعيدا قبل أن يطبق السقف على ما تبقى في داخلها تماماً.

ثالث الواصلين كان أبو بدر ومعه صبي لم يتجاوز التاسعة من عمره وقد تخثر تحت أنفه مخاط أصفر، وفي يده كيس ورقي احتوى بذر عباد الشمس وحمصاً مملحاً، كان قد اشتراهما للتو من عند أبو بدر.

غصت شرفات الأبنية المطلة على شارع بورسعيد بسكانها، وفرغت بيوت الزاروب من سكانها في دقائق، واجتمعوا حول الدمار وقد خيم الصمت على الجميع، الذي سرعان ما تحول إلى همهمات وأصوات متداخلة وتفسيرات متنوعة بعد ارتفاع منسوب الفضول، وتزاحم الناس وتدافعها لترى ما يكفي لأن يكون ذخيرة أحاديثها.

عشر دقائق كانت كافية لأن يكتمل الحشد، وخاصة مع وصول الجنكلي وحيرة تعتريه بين أن يستسلم لحمد الله على سلامته كما ردد الكثيرون وهو يمر بينهم، و خسارته التي تعوض أو "الله كريم" كما أجمع المتفرجون على الخراب، وبين حزنه على أحمد البطم الذي جاء في النهاية لينتصر على كل شيء، وهو يراه وقد تحول إلى قطع لحم كانوا يجمعونها من هنا وهناك ويكومونها على بطانية عسكرية.

حمل وجه الجنكلي علائم دهشة وحزن وخسارة وألم، اختصرتها جميعاً بلاهة استنتجت عضلات وجهه أنها أفضل ما يمكن أن تظهر عليه، ما دام النزاع كان قائما بين مشاعر متضاربة لا ينقص أي واحدة منها السواد، فكان ينظر وفكه السفلي متراخ، ووجنتاه متهدلتان، بينما خطوط جبهته مشوشة ومتداخلة.

- كل واحد على بيتو!

حمل مكبر الصوت صوت الرقيب عاطف الذي يشغل المقعد الأمامي من سيارة شرطة حمراء اللون محشور فيها ستة عناصر على وجوههم علائم ترقّب غامضة:

- يحظر التجول حظرا تاماً لغاية الثامنة مساء.

ليعيد ويكرر الرقيب لخمس مرات العبارة نفسها، التي كان يقطعها بتبادل التحية مع أحد معارفه، "أهلا أبو وحيد" ويكمل ".. حظرا تاما

لغاية الثامنة مساء"، من دون أن يستجيب أحد، كون الشرطة آخر ما يشعر أهل اللاذقية بالهيبة أو الجدية لدى حضورها، لكن هذا الشعور سرعان ما تبدد مع وصول سيارات "التويوتا" خاكية اللون، و"التويوتا" ذات اللونين الأحمر والأبيض، وسيارات "البيجو ٥٠٤"، ما أتاح للجميع إدراك أن الأمر صار بيد المخابرات بفروعها المتعددة، وسرعان ما بدأ الناس بالركض، وخاصة مع إصرار تلك السيارات على شق طريقها بينهم من دون أن تمهلهم كثيرا ليبتعدوا من أمامها، وعندما فتحت الأبواب لم توفر من كانوا إلى جانبها يتدافعون.

لم تمض سوى خمس دقائق كانت غير كافية ليتفرق الجمع حتى لعلع صوت الرصاص، حيث بدأ إطلاق النار في الهواء لتفريق الناس الذين كانوا يتدافعون ويعتصرون بعضهم البعض هربا من موقع الحادث، ليتطور إطلاق النار، ولم يفرغ الزاروب من ناسه بعد، إلى رشقات متبادلة بين عناصر الأمن أنفسهم، إذ نشب خلاف حاد بين الملازم أول علي بردى من فرع الأمن الأول الذي حضر إلى موقع الانفجار، والملازم قصي الرفيع من فرع أمن ثانٍ حضر بعده. الخلاف كان على أولويات التحقيق ومن سيتولاه، انتقل من مشادات كلامية وشتائم إلى تبادل لإطلاق النار، وتحالف عناصر فرع أمن ثالث مع الفرع الأول ضد الثاني كون رئيس دورية الفرع الثالث أمجد بردى ابن عم الملازم أول علي بردى.

لم يستمر تبادل إطلاق النار طويلاً، إذ سرعان ما اكتشف الضباط غباء ما يقومون به، من دون أن يقروا بذلك إلا بالايعاز لعناصرهم بالتوقف عن إطلاق النار، محتفظين بالمواقع التي تمترسوا خلفها، ومداخل الأبنية التي توزعوا داخلها.

خيَّم صمت عجيب، لم يسمع فيه إلا أصوات الحذر والحيرة التي كانت مخيمة على الجميع، وكان صخبها أشد وطأة من صوت صفارات سيارات الإطفاء والإسعاف، ومن ثم الأصوات المشوشة الصادرة عن أجهزة اللاسلكي التي تتلقى الأوامر ، وخروج العناصر من مخابئهم لمنع تحريك أي شيء من مكانه، وعودة التنسيق بين الفرع الأول والفرع الثاني مع قدوم ضابطين برتبة عالية من كلا الفرعين، وبقاء دورية الفرع الثالث في موقع الانفجار لجمع المعلومات وتتبع ما يتوصل إليه الزملاء من دون تدخل بسير التحقيق.

حضرت أيضاً كتيبة كاملة من الشرطة العسكرية اقتصر دورها على محاصرة "الزاروب"، وفرض منع التجول وكل المهام التنظيمة، وأكد المقدم حكمت اليوسف مسؤول العمليات المشتركة عدم ضرورة الاستعانة بسرايا الدفاع والوحدات الخاصة.

- الأمر لا يستدعي ذلك سيدي!

كان يردد في جهاز اللاسلكي.

نقلت سيارة الاسعاف جثة كانت مكومة آخر الزاروب أمام فرع "اتحاد شبيبة الثورة"، وأخرى أصابتها الرصاصات الطائشة قرب "الفوج السادس للكشاف البحري" الذي يقع مقابل علية أحمد البطم مباشرة، ولم يجد المسعفون ما يفعلونه ما دامت الجثة الأولى قد نزفت كامل دمها قبل وصولهم، وكذلك الأمر بالنسبة للثانية التي تلقت أربع رصاصات، اثنتان في الرأس، وواحدة في الصدر وأخرى في البطن.

المتوفى الأول لم يكن قد تجاوز الثامنة من عمره، وقد وجدت كمية كبيرة متناثرة حوله من الحمص وبذر عباد الشمس، وقالت أمه إنه

لم يكن راغباً أن يشتري لها البذر الذي كان أداتها في قتل الملل، لكنه قبل بعد موافقتها على شراء الحمص له.

المتوفى الثاني كان شرطياً مجنداً لم يبق على انتهاء خدمته الإلزامية إلا ثلاثة وعشرين يوماً، ولم ينجح مثل زملائه في السيارة الحمراء بالنجاة من رصاص المخابرات، وأحيلت أسباب وفاة الفتى والمجند إلى الانفجار.

هبط الأسى بثقله مجدداً على "الزاروب" وشارع "بورسعيد"، استعيد أحمد البطم آلاف المرات، أمسى موته لغزاً مثلما هي حياته، ولم يترك لأحد أن يعرف إن كان انتحر بمتفجرات كانت هوسه الأخير، أم أنه قتل نفسه بالخطأ كثمن لصنعه ما يفتت جسده، لكنهم جميعاً ضحكوا حتى تمزقت وجوههم حين طالعتهم الصحف بعنوان موحد عن مقتل زعيم كبير في الإخوان المسلمين اسمه أحمد البطم.

مالت الأرض.

اهتزت الجدران.

انقطعت الكهرباء.

تركتني وحيدا في الحمام وخرجت مسرعة، مرَّ وقت طويل وأنا وحيد ومبلل، ولم أجد إلا الماء الساخن ليساعدني على احتمال البرد، ورحت أغمر جسمي به كلما اصطكت أسناني.

عادت عندما لم يبق هناك ماء ساخن، وقبل أن أتجمد من البرد والخوف. لم تقل كلمة واحدة، كانت تحمل منشفة برتقالية رُسِم عليها شيء بالأصفر، جففتني بها كما لو أنها تضربني، وهي شاردة بشيء حزين، كنت سأسألها عن الذي انفجر، لكنني انشغلتُ بالمنشفة وكيف تنفضني بها وتلتصق بجسمي الصغير مانحةً دفئاً متقطعاً. حاولت أن أعرف ما الرسم الذي عليها، ربما بطة! أردت أن أتأكد، لكن عتمة الحمام أخفتها عني.

أوقفتني عارياً تماماً قرب المدفأة، ألبستني ثيابي الداخلية التي علقتها قريباً من المدفأة تكاد تلامسها، أخمدت آخر ذرة برد في عظمي ولحمي، أحسست بفرح اعتصر جسدي وصعد إلى وجهي مع بضع دغدغات، فرح أكبر حين قربتني منها وقبلتني كعادتها على خدي وفمي، وعضتني من الخد الآخر، أحطتها بذراعي اللتين أحاطا ما فوق

خصرها، شدتني إليها أكثر، جاءت رائحتها واستولت على أنفي، تمَّلت، صار النمل يمضي من رأسي إلى قدمي.. لم تتكلم.

تذكرت الانفجار مجدداً، تكلمت الآن قالت لي شيئاً مثل: "ما تتحرك من محلك".. لا أتذكر الآن، لكنها ذهبت إلى الشرفة، وأنا بقيت جالساً على الكنبة أفكر بأنها بالتأكيد طائرة اسرائيلية كتلك التي أسقطها الصاروخ ومالت الأرض بي أيضاً، عندي قطعة منها، القطعة الخضراء التي أعطاني إياها زوجها المقدم محمد كرم، سيُرفَّع قريباً، سيصير عقيداً بنسر ونجمتين، سيعطيني رتبته القديمة، سيصير عندي نسر ونجمة، بدل هذا النسر الوحيد، حرام أن يكون الضابط رائداً، نسران وحيدان على الكتفين، ما من نجوم تسهر عليهما، سيعطيني رتبة المقدم، دائماً يفعل، وإن لم يفعل منال ستفعل، هي من أعطتني رتبة النقيب ومن ثم رفَّعتني إلى رائد، وبحثت طويلاً عن رتبتي الملازم والملازم الأول ولم تجدهما، وقالت لنفسها وقتها: ما أنا تزوجتو وهو نقيب.

تحركتُ من مكاني..أحضرتُ ألعابي.

مع منال السجاد يابسة، البلاط بحر، الجنود، العربات، الدبابات، على السجادة. البواخر البلاستيكية، القوارب، ودبابات أخرى لكن برمائية على البلاط، آخر السجاد الميناء، وعلى السجاد أصنع شوارع، وأبني أبنية على طرفيها من المكعبات، تمر من بينها منال، ترفع فستانها حين تخطو على البلاط لئلا تتبلل، بحر آخر فوق البحر الذي تحتها، ودائماً كعبها العالي، "تيك تاك" وتعلو القدم التي تخطو بها حمرة خفيفة.

أمي لا تعرف ذلك، دائماً تنسى أن البلاط بحر، وأنبهها في اللحظة الأخيرة، فتنجو من الغرق، بالقفز إلى اليابسة السجادة، فأصفق لها.

دخلت منال الصالون بسرعة، هربت من شيء رأته، تبعها صوت رصاص، حملتني عن الأرض، وقربتني من صدرها، جلست وأبقتني في حضنها، عدتُ والتصقتُ بها، رفعتُ رأسي نحوها. لم تستحم، ستفعل من دوني، لن تدعني أستحم معها، صارت الرصاصات كثيرة، لم أسمع شيئاً، كنت أنتظر أن تقول شيئاً، لا أعرفها لا تتكلم، لا أعرفها أبداً لا تضحك.

أخذني النوم، عاد بي إلى منال. فتحت عيني عليها، كانت مقابلي على الكنبة قرب المدفأة بثياب قليلة على جسدها الكثير، حزنت لأنها استحمت وأنا نائم، ابتسمت لي، كان على خديها بقعتان حمراوان لهما رائحة الغار، أشمها من بعيد، تقترب، تعيدني إلى حضنها.

تبدأ بهزي، تكاد رجلاي أن تلامسا الأرض، تغيّرت وأنا نائم، قالت "صار وقت الأكل".. أكره الأكل، أحبه معها فقط، لا آكل مع أمي، أكره أشكال الصحون المليئة بأشياء كثيرة وألوان مختلطة، أحب الرز مع لبن، أو مع بيرة مثل البحارة، لا تقبل أمي أن أشرب البيرة، منال تصب لي أحياناً من قنينتها في كأس صغيرة، أشرب وأحس بأنني في البحرية، ويأتي دوّار بحر لذيذ، إن لم آكل ما تضعه منال أمامي، تقول لي:

- مانك رائد، سويتك نقيب!

أصرخ وأنا على حافة البكاء:

- لأ بدي آكل!

وهكذا أحافظ على رتبتي، و ألتهم كل ما تطبخه، كل ألوانها تختلط مع رائحتها الطازجة دائماً، كما لو أنها كاتو.. رائحتها الآن غار.

عندما تتركني أمي عند منال لا أزعل، عندما تتركني في أي مكان آخر أمنع نفسي من البكاء، غالباً أبكي. مع أمي أبقى في البيت وتبقى هي تنظر إلى ساعتها وتدخن، أمي تدخن كثيراً، منال تدخن أيضاً لكن أقل، أعد سجائر أمي في المنفضة فتضحك ثم تحدق فيَّ طويلا، لتضمني بعد ذلك.. دائماً يأتي وجهي في شعرها، تتركني داخل ظله، ومن ثم تبعدني عنه، وتضعني وجها لوجه معها فتقبِّلني، وتهز قدميها فأشعر بأنني على صهوة حصان، وتعود لتقبيلي بينما تغني لي:

درغم درغم

قطفلي غيمة

خلي السما جنينة..

تأخرت أمي، جاء المقدم محمد، وأول ما نظرت إلى رتبته، لم يُرَفَّع بعد، مازال على بدلته الكحلية الشتوية، في الصيف تصير بيضاء، ما زالت تلك المربعات الملونة على صدره، أريد منها، أريد أن أصبح ضابطاً مثله، أحمل حقيبة سوداء في داخلها مسدس، تركني ألعب به يوماً وقال لي اسمه "مكاروف".

البارحة كانت أمي تشاهد التلفزيون، كان هناك فيلم فيه مسدسات كثيرة، ولا واحد منها يشبه "المكاروف"، لو كان المقدم محمد معي لأخبرني عن كل تلك المسدسات، إنها أكبر من مسدسه.. هل أقول له ذلك؟

لا لن أقول له شيئاً، أحبه وأكرهه، هو يحبني فقط، حين يراني يضحك، يلاعبني، لا أقول له شيئاً، حين يكور قبضتيه أبدأ بالملاكمة، الملاكمة فقط، تنساني منال حين يأتي، لا يأتي أحد لزيارة أمي، لا

تنشغل عني أبداً، تبقى دائماً مشغولة بشيء لا أعرفه، بعيدة وقريبة، علي أن أذكّرها بوجودي، فتتذكر وتتغير وتمضي نحوي أينما كنت وتبدأ بتقبيلي، وتكلمني أشياء لا أفهمها، ثم تنساني وتعود إلى نفسها، لا تدعني أنام في السرير الصغير، أنام إلى جانبها، أسمعها في الليل تتكلم، ولا أفهم شيئاً مما تقوله، الآن لا تفكر بشيء إلا الساعة، تنظر إليها ولا تعود منها إلا إذا جلستُ في حضنها، أو أمسكتُ وجهها بيدي لأديره وأضعه أمامي، وألصق رأسي برأسها، حينها تبتسم، نعم تبتسم كما لو أنها تذكرتني.

أمي حزينة، أحبها فأصير حزيناً مثلها، تضحك فأحزن أكثر، ثم إنها لا تقول لي شيئاً عن أبي، هل هو ذلك الذي جاء وجعلها حزينة أكثر؟ هذا أبي قالت لي، لم أصدقها، لم أصدقه في شيء، وما زالت تقول لي إنه في البحر، ماذا يفعل في البحر؟ ألم يغرق؟ كيف يكون في البحر؟ هل يسبح؟

كلما رأيت البحر، أقول أبي في داخله، أصرخ به أن يخرج منه، لكنني أخاف أن يكون قد صار لونه أزرق، وأن يُخرج من أذنيه أسماكاً، ربما ابتلعه حوت، وأمي تنتظر أن يصطاد ذلك الحوت صياد ويخرجه من بطنه الكبير، كما في القصة التي تحكيها لي.. اسمه يونس وليس غسان!

اشتقت إلى أمي، أريدها أن تأتي الآن، تأخرت كثيراً، صارت العتمة أكثر، عتمة مساء.

عندما سألت منال عن الساعة ضحكت، وقالت لي إنها التاسعة، قليلا ما أصل هذه الساعة، ثم تُركت مجدداً وحيداً في الصالون،

ووضعت لي منال على التلفزيون أفلام كرتون بعد أن شغلت جهاز الفيديو المستقر تحته، وضعت ما تقول عنه الشريط، لا هذا ليس شريطاً! هذا مكعب أسود يأكله الجهاز ويلوكه فتخرج الصور، ويركض جيري من بطنه ويلحق به توم، وعندما يشبع يختفيان وتصير الشاشة سوداء.

صارت الشاشة سوداء، ما زلت وحيداً، هل ذهبا وتركاني؟ جميعهم يتركونني وحيداً، أبحث عنهما في المطبخ لا أحد! وغرفة الضيوف لا أحد! باب غرفة النوم موصد، أحاول فتح الباب، لكنه مقفل، لا أعرف ماذا علي أن أفعل، أقف وأنتظر، دقائق ويفتح الباب، منال بثوبها الذي تربطه بشريط عند خصرها، ما من ثياب تحته، دائماً أكتشف ذلك، متى ارتدت هذا الثوب فلا شيء تحته، تقودني من يدي بينما أسمع شخير المقدم.

لا أريد أن آكل أقول لها، لكنها لا تسمعني، وتمضي في تحضيرها الطعام. رائحتها الآن تتفوق على الغار، رائحتها أحلى.

قالت منال أن أمي لن تأتي اليوم، "بدك تنام جنبي؟" قالت بفرح، وأنا فرحت وحزنت، سأنام وألتصق بها، لكنني مشتاق لأمي، سألتها عن السبب، أجابتني بسرعة بأنها مشغولة بأشياء كثيرة، ثم انتقلت إلى معاتبتي "ما بدك تنام جنبي؟"، خجلت، احمر وجهي، قلت لها "لأ ما هيك"، وهي نظرت إلي تلك النظرة، رفعت حاجبيها كما لو أنني كسرت شيئاً، حزنت أكثر.

نسيت أنها زعلت مني وراحت تلاعبني، لكنها بقيت على غير عادتها، شيء ما كانت تفكر به وهي جالسة على السجادة تلعب معي، كانت كبيرة جداً، بيضاء كثيراً، لديها كل القوة والحنان أن تقبلني بقوة

وتحيطني بذراعيها الطويلين القويين، كنت أريد أن أرتمي في حضنها هكذا فجأة، كنت أريدها أن تصفعني ولو لمرة واحدة، نعم في تلك اللحظة كنت أريدها أن تستخدم قوتها، أن تركلني برجلها فينحسر ثوبها أكثر مما هو منحسر الآن، أو تمددني على الأرض وتلقي بكل ثقلها عليّ فيأتي شعرها على وجهي، تضغط علي أكثر، تضع جسمها فوق جسمي فلا أتمكن من القيام بحركة واحدة.

أجّلت ذلك إلى سريرها الواسع، كنت على يسارها، وهي لا تدعني أنام بينها وبين زوجها، بل تضعني لصقها، إلى جانبها، إن تقلبت بعيداً عنها فإنني سأقع من السرير، أتمسك بها، ألتصق أكثر، بينما شخير زوجها يعلو، ألتصق أكثر وقد انحسر ثوبها أكثر، لا أعرف كم كان علي أن أبقى كذلك؟ لا أعرف إن كانت نائمة أم أنها مغمضة عينيها فقط؟ يدي تتحرك عليها، هناك ما يفاجئني دائماً، ذاك الشعر في منتصفها، وأنا أنتقل من بشرتها الرقيقة إلى شعر مفاجئ، شعر له أن يدفعني للغثيان وهي تمسك بيدي وتبقيها فوق ذاك الشعر، وهناك فتحة لزجة، شيء مثل الصمغ، أرفع يدي عنه فتعيدها إليه، وتحركها لمرات، فأستسلم وأتركها تفعل بيدي ما تشاء، لا ليست نائمة، ثم لا أجدني إلا فوقها، أتوسدها وما هي إلا دقائق حتى أنام وقد نسيت أمي تماماً.

أستيقظ في الصباح كما لو أن شيئاً بيننا لم يحدث، هي أمي الآن، لكنها لا تمنعني من فعل أي شيء، كل ما أريده محقق، كل ما أسألها إياه مجاب، قمة زعلها مني أن تقطب جبينها.

أكره المقارنة، أمي أيضاً لا تزعل مني أبداً.

فطور منال أبيض دائماً: حليب، بيض، جبنة، وما أن يخرج من

الراديو صوت جرس كبير، حتى تستمع لما تقوله الأصوات التي تخرج منها، تنساني، ثم تتذكرني، وتقول لي "يلا يا بيستي".

ألبستني ثيابي و"مريول" المدرسة، ثم ارتدت ثوباً أبيض مثل فطورها، عليه زهرات كحلية، وفوقه معطف طويل أسود، ثم جلست على كرسي صغير قرب الباب وراحت تحشر قدميها في جزمة سوداء.

قلت لها بأنني استطيع الذهاب لوحدي، لم تجبني بشيء، أخذتني من يدي ومضت بي نزولاً الدرج.

لمَ توصلني؟ ألا تتذكر اليوم الذي ذهبت فيه لوحدي إلى مدرسة "الحرية"، وقطعت الشارع تحت أنظارها وأنظار أمي، وكيف لوَّحت لهما طويلاً قبل أن أدخل "الزاروب" الذي يفضي إلى مدرستي، وخرجت منه مرتين أو ثلاثاً لأعود وألوح لهما، ومن وقتها صرت أذهب بنفسي إلى المدرسة، توقظني أمي، أفطر معها، في فطورها ألوان أخرى غير الأبيض، زيتون و"عطّون" وزعتر وزيت، ومن ثم أضع الحقيبة على كتفي وأذهب، دقيقة أو دقيقتين وأكون في المدرسة.

بكيت في أول يوم لي بمدرسة "العناية"، سامر سراج من جعلني أبكي، هو كان يبكي وأنا حاولت أن أهدئه، لكنه ظل يبكي ويبكي وأنا أشد على يده أن يتوقف، وأنا أنظر إلى من حولنا وكلي خجل، فجأة لم أتمالك نفسي، نقل لي العدوى، بكيت أكثر منه وسط باحة كبيرة مليئة بالأطفال المرتدين مراويل خاكية.

هل عرفت منال أنني بكيت في ذلك اليوم؟ أنا سارعت وتوقفت عن البكاء، وكذلك فعل سامر حين رآني أمسكت عن الدموع. من وقتها لم أبك، وحين انتقلت إلى مدرسة "الحرية" أوصلتني أمي في أول يوم لي

فيها وتركتني وحيداً.. لم أفعل، سامر رآني وركض نحوي، ربما كان يفكر بالبكاء لكنه لم يفعل حين رآني، وأنا أيضاً كنت سأغرق في الدموع، لكن حين رأيته امتنعت عن ذلك، وها أنا في الصف الرابع ومازال سامر معي، لم نعد إلى البكاء أبداً.. لماذا توصلني منال إلى المدرسة اليوم؟

وقفت بصفي في الباحة، تفقدتنا المعلمة، اسمها سلمى مثل أمي، وأشارت إلى رقبتي بعتب، فعرفت أنه "الفولار" الأزرق من دون أن تقول، أخرجته من جيب مريولي وأحطت به رقبتي ثم زممته بجوزة عليها شعار طلائع البعث، كانت ستشير إلى رأسي، لكني جنبتها ذلك، أخرجت قبعتي من الحقيبة وحشوت بها رأسي، وجاء الصوت الصباحي نفسه لمديرة المدرسة وهي تقول:

- أهدافنا.

وأنا أردد خلفها وكل الطلاب:

- وحدة حرية اشتراكية.

ثلاث مرات قالت أهدافنا ونحن نردد خلفها، وبعد ذلك وصلت جملتها الأخيرة:

- كن مستعداً دائماً لبناء المجتمع الاشتراكي الموحد والدفاع عنه.

- مستعد دائماً.

أحب أن أقول "مستعد دائماً" أشعر بأنني "غرندايزر" وأنطلق إلى صعود الدرج نحو شعبتي.

فصلتني الآنسة سلمى عن سامر، لم نعد نجلس على المقعد نفسه، وضعته على مقعد إلى جانب سامية، ووضعتني أنا مع غادة، حزنت أول

الأمر وجلست مرتبكاً بجانبها، أعطتني في الباحة قطعة راحة مضغوطة بين قطعتي بسكويت، وبدت سعيدة لأنني أجلس إلى جانبها، كانت زوجتي، تراقبني طيلة الحصص الدراسية، حتى وهي تتابع ما تقوله المعلمة، عندما ينكسر قلمي الرصاص تسارع وتأخذه مني وتعطيني واحداً جديداً، وتمضي في بري قلمي، غادة تشبه منال وأمي.

لم أعرف إلى الآن لمَ وضعتني أمي في دوام البنات، كنت أنا وثمانية صبيان في الصف والباقي بنات، أكثر من عشرين بنتاً في شعبتي، وحين ينتهي الدوام دائماً يهزأ بنا الصبيان ونحن نبادلهم الدوام، ثلاثة أيام يكون فيها دوامنا صباحياً بينما دوام الصبيان ظهراً، وثلاثة أيام يصبح الدوام معكوساً بين الدوامين.

بكت غادة حين حاصرني خمسة من الصبيان خارج المدرسة وراحوا يضربونني، بكت مع أني قاومت بقوة، ضربت منهم ما استطعت، لا بل إنهم تركوني بعد أن وجدوا فيَّ مقاوماً عنيداً، ضربتهم بكل ما أستطيع وعلى الوجه مباشرة، لكنني كنت أبكي وأنا أضربهم، كنت غاضباً لدرجة البكاء، كانت الدموع تساعد قبضتي على أن تضرب بعنف، لكن غادة بكت كثيراً أيضاً وراحت تمرر يدها على وجهي، رغبت بأن أبكي أكثر منها، وأن يصير وجهي أشد حمرة من وجهها.

من وقتها اكتشفت لذة أن أضربهم جميعاً، كل من في دوام الصبيان، وإن كانوا يفوقونني قوة، هم صاروا ينتظرونني بأجسامهم وقبضاتهم التي تتفوق على أعمارهم، كانوا مستعدين لفعل أي شيء، واستخدام أي شيء، كانت السكين لا شيء أمام ما يمكن أن يفاجئوني به، وما أن أخطو خارج المدرسة حتى يلاقوني، منهم من أعرفه ومنهم من

أجهله، وكانوا أحياناً يجتمعون علي ويضربونني ضرباً مبرحاً، لكنني لا أحس بشيء إلا بعد أن يفرغوا مني، أركز على واحد منهم، اختاره بعناية وحقد، أنتقيه من بينهم جميعاً لكونه أحقرهم وأمسك به مهما حدث، أبقى أضربه وأضربه بكل ما أملك من قوة، وكل من حولي يضربونني، وأنا لا أشعر إلا بذاك الذي أمسكه، أحيطه بذراع واحدة أعرف أنه لن يفلت منها، وبالأخرى ألكمه، أخمشه، وفي إحدى المرات كانوا كثيرين جداً، كنت أنا وسامر خارجين من باب المدرسة، قلت لسامر: لنهرب! وهربنا، لكنهم أمسكوا سامر، فلم أستطع مواصلة الهرب، عدت وأنا أعرف بأنني لن أقوى على فعل شيء، المهم ألا أترك سامر وحيداً، وتمكنت من لكم اثنين بكل ما أوتيت من قوة، فرحت ومن ثم لم أجد نفسي إلا مرمياً على الأرض أتلقى الركلات في كل جسمي، ولولا مأمون أبو بكر لكنت ميتاً ربما، خلّصني منهم، وقال لهم "بدي نيك أختو اللي بقرب عليه"، ومن وقتها أحسست بأني محمي، وصار يهبط علي من حيث لا أدري ويضرب كل من يتربصون بي فيهربون، أو يبدأون بتهدئته والتعهد بأنهم لن يعودوا إلى ضربي.

كان مأمون أبو بكر كبيراً جداً، أكبر من مدرستي، له أن يكون في البكالوريا، بقامته وعضلاته المفتولة وشواربه وذقنه وصوته الخشن، كان يمتلك رأساً مثل كرة "الركبي" إن نطح به أحدهم فإنه سيغمى عليه وربما يموت. كان يعمل في معمل "الكازوز" القريب من مدرستي، يدعني أساعده في نقل صناديق الكولا ويعطيني صاحب المعمل ليرة ويقول لي "والله إنك رجال من ضهر رجال"، فهو يعرف أبي ويسميه "الطوربيد".

يا الله كم فرحت حين عرفت أن أبي كان قوياً جداً.. ياالله كم حزنت

لأنه ليس هنا! لو أنه يخرج من البحر ويضربهم، لا أن تبكي أمي حين ترى آثار اللكمات على وجهي، لا أن تستعين بأبو سامر فيأتي إلى المدرسة ويخرجون له كل من ضربني وتبدأ المديرة بضربهم بالعصا، لا أن يهددهم بالشرطة والأمن الجنائي، فيعودون إلى ملاقاتي، لا أن يأتي المقدم محمد كرم ولا حتى منال، لا أريد أن أصبح مثل رفاقي يشتكون إلى أمهاتهم، وأمهاتهم معلمات في المدرسة ولذلك هم في دوام البنات، لا أريد لمن يضربونني أن يعاقبوا بل أن انتقم منهم بنفسي، أن يكون معي من يستطيع أن يضربهم أيضاً، لا ليس سامر من يفعل، إنه صديقي، لكنه عاجز عن هرس نملة، أريد أن ألقنهم دروساً بيدي، لا أن يبدأوا بالقول بأنني مدعوم. أريد ألا أبكي حين أستخدم قبضتي، ومأمون يقول لي دائماً "بوكسك أصلي.. بس بدك فت خبز"، ويبدأ بفت ذلك الخبز وهو يريني سكين الكباس ست طقات، ويمسك أحدهم ويبدأ بضربه كما لو أنه ينفض سجادة، "ما بدها عصبية" يقول لي وأنا لا أستطيع إلا أن أضرب بغضب وحزن، بكل ما أوتيت من قوة ووجهي محتقن بالدموع.

"والله إنو شكلك ما بيشبه أفعالك" يؤكد لي مرارا، وأنا صرت أعرف ذلك، أعرف أن ملامحي الرقيقة لا توحي بأن بإمكاني أن ألكم من أمامي وأتحول إلى وحش كاسر في ثوان.

كنت محاصراً بمأمون وغادة وسامر، مأمون كله قوة، غادة كلها رقة، سامر كله صمت. أذهب مع مأمون إلى البحر، يرمي بي فيه من دون مقدمات، أتخبط وهو يضحك، ومن ثم يرمي نفسه خلفي ويمسكني ويدعني أعوم. كلما كان البحر أمامه يقوم برميي فيه، إلى أن صرت أسبح مثله برأس مرفوع يتلفت يميناً ويساراً مع حركة الذراعين، صرت أضرب على صدري قبل أن أقفز في البحر من السفينة الغارقة في "فشيفش" مثلما يفعل تماماً، وكلما جرحت رجلي أو ركبتي بحواف الباخرة المعدنية كان يقول لي "منيح مشان يئسى جلدك"، ثم صرت أقفز من صخرة الانتحار، ومن وقتها لم يعد يسخر مني أبداً، "صرت رجال.. صرت لادآني". قبل ذلك كان يخجل أمام رفاقه من جسمي الأبيض، وكلما نزعت ثيابي كان يضع يديه على عينيه ويقول "العمى! كأنك حلبي"، وأنا أبقى تحت الشمس ساعات ولا تطالني أي سمرة، أعود إلى البيت أحمر مثل الشمندر، لكن سرعان ما يقشر جلدي وأعود إلى بياض بشرتي.

كنت لا أعرف في الصيف قبل مأمون إلا الملل، الآن تغير كل شيء، صرت أعرف أن أسبح، وأذهب معه إلى "مدرسة الطلائع" حيث يلعب كرة القدم، كان يفرضني على فريقه رغماً عن الجميع ويقول لهم "على كيس النص"، لم أفهم بالبداية ما يعنيه، إلى أن عرفت أنني غير

محسوب كلاعب كامل، لكن كنصف لاعب، ففريق مأمون مؤلف من ستة لاعبين أنا سابعهم، في مقابل ستة من الفريق المنافس، وحين أصبحوا يعتبرونني لاعباً بحق لم تسعني الدنيا، وصرت أصغر بكثير من أن تسعني حين سجلت هدفاً.

ينظر مأمون إلى حذائي الرياضي فيقول "أنت غني ومدلل"، وأنا أعرف أنني لست غنياً، أقول له "والله ماني غني" فيرفع لي رجله ويقول "شايف خفافتي، هي اسمها أديداس حلبي.. وأنت لابس سكارات"*، أسأل أمي أن تشتري لي "أديداس حلبي" فتزجرني وتقول لي "بدك تربطها بالقش"، أذهبُ إلى شارع "القوتلي" وأشتري واحدة، يقول لي البائع "الفردة بليرتين ونص" وحين أسأله عن "الربّاط" يضحك.

مأمون ضحك أيضاً حين رآني منتعلاً لها، التقط من الأرض أي حبل أو شريط بلاستيكي وأصنع منها سيوراً للأديداس، "ليك بكرا بتذوب فردة بتضل التانية، يعني بتشتري فردة فردة"، عرفت حينها أنه فرح لأنني اشتريت مثل خفافته.

أنا لا أستيقظ مثله في الخامسة وأذهب لشراء الخبز، هو يقول "أنت وحيد أمك"، وأنا أعرف أن منال من ترسل لنا الخبز يومياً "خبز الجيش". كنت أشعر به عصبياً ولا يطيق الحديث معي حين يكون عليه الذهاب إلى المؤسسة الاستهلاكية، كان يقول لي: "اليوم عم يوزعوا سكر، اليوم سمنة، واليوم زيت" ويتبعها دائماً "حل عن طيزي".

أسأل أمي لماذا لا تتركني أذهب إلى المؤسسة؟ تقول لي "شو مفكرها مشوار!"، ثم تصمت لا أعرف كم من الوقت وتستدرك "الحمد

---

* مسمّى شعبي لاذقاني للحذاء الرياضي الخاص بكرة القدم بينما الأديداس الحلبي فهو مسمّى ساخر لحذاء رياضي مصنوع من البلاستيك .

لله إنو أبو سامر بجبلنا كل شي"، ثم أعرف من مأمون أن هناك ما اسمه "دفتر بونات" يعطي ورقة منها لموظف المؤسسة فيأخذ بدلاً منها سكراً أو زيتاً أو حتى حفاضات "الطفل السعيد"، يقول لي "كل شي من المؤسسة.. لو بدي موت بدي جيب شو ما بيوزعو".

كنت أرغب أن أكون مثل مأمون أحضر أغراض البيت من المؤسسة وقد أحسست بأنها طريقي لتحقيق رجولتي، وحين ذهبت مع مأمون وجدت مئات لا بل آلاف البشر مجتمعين أمام بابها، والشرطة تضربهم بالعصي ليقفوا بالدور ولا يفعلوا، ويزدادوا هياجاً وهم يتدافعون نحو المؤسسة، والصراخ يملأ المكان، ومن يخرج من بينهم ومعه علبة سمنة أو علبة مناديل ورقية يمضي راكضاً وهو يضحك.

قلت في سرّي "كس اخت المؤسسة".

كان مأمون يأخذ ما معي من نقود ويستأجر دراجة ونمضي بها، وأحياناً حين لا يكون لا هو ولا أنا نحمل نقوداً يسرق واحدة يصادفها مستندة إلى الرصيف، ونمضي بها ثم يرميها في مكان ما حين نفرغ منها. حين اشترت لي أمي دراجة لم تعجبه قال لي "هي للطنطات"*، وصرت أقودها في الزاروب جيئة وذهاباً برفقة سامر، ومن وقتها أصبحت ألعب مع أولاد الحارة، لا نترك شيئا إلا ونلعبه، وكنت متفوقاً عليهم، أتحكم بهم، وأسيِّر الأشياء كما أريد، وأنفذ كل ما تعلمته من مأمون.

السادس الابتدائي أجمل صف، أعطتني أمي مفتاح البيت لأنني صرت كبيرا، وصار بإمكاني أن أبقى لوحدي في البيت إن لم أذهب إلى

---

* توصيف للفتيان الناعمين .

بيت منال، أصبحت قوياً وعرف الجميع أني كذلك، صاروا في دوام الصبيان يعتبرونني واحداً منهم، وأنني في دوام البنات في الخطأ، وأنا لم أسع لتصحيح ذلك والانتقال إلى دوام الصبيان، كانت غادة تمنعني، أريدها دائماً بقربي، لا أريد الابتعاد عنها، والتوقف عن الركض خلفها في الباحة والامساك بها لا أريد أن أفلتها أبداً، كنت أحبها لدرجة أني كنت أضربها لا أعرف لمَ؟ وهي تبقى كما هي، تبكي أحياناً، ثم تقبل أن أرافقها إلى بيتها، وأن أصعد معها درجاً طويلاً.

كان في بيتها جنينة، تقطف لي من أشجارها ثماراً لم تنضج بعد، مشمش حامض ومر، وعقَّابية سرعان ما تصير لوزاً، كنت أرافقها يومياً بعد أن كتبت لي على دفتري "أحبك"، كانت الهمزة كبيرة جداً فوق الألف، أكبر من جميع أحرف الكلمة، بحجم عينيها الخضراوين.

في يوم من الأيام لم أعد أتذكر تاريخه الآن، خرجنا من باب المدرسة وكان المطر غزيراً، لم نجرؤ على مفارقة الباب، بقيت ملتصقاً بغادة تحت مظلتها الحمراء التي لا تقينا من البلل، كنت أساعدها في مسكها لئلا تطير تحت ضربات ريح مجنونة، قلت لها: بيتي قريب جداً لنذهب إليه، لم تقل شيئاً، مشت ومشيت إلى جانبها، حين أخرجتُ المفتاح وفتحتُ الباب، التفت إليها، كانت ترتجف من البرد، أخذتها من يدها ودخلت بها، ارتجفت أكثر عندما رأت البيت معتماً ولا أحد في داخله، ضممتها، اعتصرتها بكل ما أوتيت من قوة، قبلتها على خدها، وحين حاولت الإفلات مني، مرت سريعاً شفتي على شفتيها.

كانت مثل عصفور صغير مبلل أحطته بيدي فراح قلبه ينط، خرجت من الباب متعثرة بأرجلها وحقيبتها ومظلتها، وقفت متيبساً

وملمس شفتيها السريع على شفتي، قررت ألا أتكلم، ألا أنطق حرفاً واحداً لئلا تذهب شفتاها عن فمي، وأحسست بأنني لن أراها أبداً، وأنها كرهتني لأنني فعلت ذلك، ثم شعرت بالبرد، فقد صرت مبللاً أكثر بعد أن عانقتها، امتصت ثيابي كل بلل معطفها المطري.

حين جاءت أمي كانت حزينة جداً مثل الطقس، وتذكرت أن اليوم هو الخميس، فحزنت أكثر لأن علي الانتظار للسبت حتى أعرف ما الذي ستكون عليه غادة بعد ما قمت به، كان هذا أول خميس حزين في حياتي، وقد كنت لا أعرف إلا الفرح فيه، فالعطلة هو ما ينتظرني في الغد ولن أستيقظ باكراً.

لا شيء أكرهه في هذا اليوم إلا برنامج "طلائع البعث"، حيث يأخذ رواد الطلائع مكان توم وجيري، هذا رائد على مستوى القطر بالخطابة، يمط الكلمات ويقول "سد الفرات يا نصرنا على الموات، يا صرح التصحيح في الفؤاد، يا مولود الأب القائد دون الممات"، بينما تتبعه رائدة طليعية بالغناء وهي تغني:

يا ناس غنوا ويانا
تحيا وحدتنا وفرسانا
ألف الله يهنينا
والباء بوحدة أهالينا
والتاء توج وحدتنا
والثاء ثورة عربية
والجيم جبارة قوية
والحاء حلوة وفتية

والخاء خشية أعدانا

...

...

الأحرف تتوالى وأنا أكزُّ على أسناني، أجن وأبقى أتابعها كما لو أنني أعذب نفسي، أسد أذنيَّ فتتسرب من كل مكان من كثرة ما سمعتها تتردد أمامي، ولتتداخل مع "زهرتي يا زهرتي أنت نشوى مهجتي" التي لا تفارق التلفزيون، فأتذكر "افتح يا سمسم" والخرا نعمان والأخرا ملسون، فأجن وأقول أنا كعكي يا خروات، وأمي متى رأتني منكمشاً على نفسي وأنا أشاهد برنامج الطلائع، ترفع الصوت وتقول لي "أصلاً أنتا غيران منهن"، أجن وهي تضحك، أفكر بأن أكسّر التلفزيون لولا "مجلة التلفزيون" ومروان صواف الذي يظهر مساء كل خميس، لولا "غداً نلتقي" الذي تدعني أمي أشاهده كل خميس أيضاً.

غادة ليست رائدة طليعية لا على مستوى المحافظة ولا القطر، غادة كسولة، أكتب لها كل وظائفها، أدعها تنقل مني كل ما تريده، وأحياناً أجيب على أسئلة الامتحانات على ورقتي وأستبدلها بورقتها، غادة جميلة، تعلقني على ضفيرتها وتلوح بي، تشبه أرجوحة الحديقة، وحين تغمض عينيها لثانية أشعر بأن السواد حل أمامي.

كنت لا أكره أحداً حين أكون معها، أحبها فقط. بعيداً عنها لا أتوقف عن كرههم، هي من أوقفتني عن انتقامي من الرواد الطليعيين، حين رحت أضربهم كالمجنون، وأنا أنفذ خطتي في القضاء على الغلاظة والمياعة، وحين جاءت لمشاهدتي وأنا ألعب كرة القدم في دوري مدارس اللاذقية صرت ألعب كما لو أني عبد القادر كردغلي أو زيكو، فعلت

المستحيل ليفوز فريقي، صرت أضع الخطط وأرسمها على الأوراق، وكان فريقي الذي كنت الوحيد فيه من دوام البنات يفوز من دون أن ننفذ حرفاً واحداً مما اتفقنا عليه.

في المباراة النهائية أخذونا إلى الملعب البلدي، كانت المرة الأولى التي نلعب فيها على أرض عشبية، كنا معتادين على الزفت والأرض الصلبة، وكان هناك رجال كبار يتابعوننا، وقال لنا مدرس الرياضة "شدوا الهمة، أمين فرع الحزب ورئيس منظمة طلائع البعث هون"، ورحنا نلعب ضد فريق مدرسة "خالد بن الوليد"، وكانت غادة مع من جاء من مدرستنا، كنت أراها على المدرجات كما لو أن لا أحد حولها، كنت أجهد وأبذل كل ما في وسعي لكي أسجل هدفاً.

كان الملعب كبيراً جداً، كنا أصغر من الملعب والمرمى والكرة، ورحت أركض ولا ينتهي الملعب، أسدد ولا أصيب، خسرنا، خسرت، وبهدف واحد مقابل لا شيء، كنت أفكر بغادة فقط، وكيف لي أن أكون مهزوماً أمامها، وما أن انتهت المباراة حتى بكيت، ركضت نحوها ووقفت أمام السياج الحديدي، رفعت رأسي نحو المدرج لم أرها من كثرة الدموع التي ملأت عيني.

لا أعرف كيف مضى الخميس، متبوعاً بالجمعة الأشد حزناً، أمي بالكاد تكلمت بضع كلمات، وأنا لم أخط خارج البيت، لم أذهب إلى بيت غادة كما كنت أنوي أن أفعل، بقيت مثلها صامتاً، وهي لا تراني، لا أفكر بشيء إلا الذهاب إلى المدرسة صباحاً ورؤية غادة.

يوم السبت رأيت الثلج لأول مرة في حياتي، انهمر لنصف ساعة ثم اختفى، وحل مكانه برد سكن عظامي وأوردتي، وكنت في طريقي

القصير إلى المدرسة أفكر بصناعة تمثال ثلجي حتى أني وضعت جزرة في حقيبتي، إلا أنه خانني ولم يعمِّر طويلاً، سرعان ما اختفى أبيضه، وظهرت غادة وحدها من دون ثلج، دخلت الشعبة وجلست إلى جانبي، همست لها "غادة أنا بردان" فالتصقت بي من وراء ظهر المعلمة التي كانت تكتب على اللوح.

كانت أشد حناناً، وفي رقتها ما يصرخ بي أن أقبّلها، خفت ولم أفعل، لكن حين خرجنا من المدرسة قلت لها "يلا نروح" فلم تجب بشيء، مضت معي صامتة، ما أن أوصدت باب البيت خلفي حتى علت ضربات قلبي وامتزجت مع ضربات قلبها فلم نعد نميز بينهما، ضممتها بقوة أكبر من سابقتها، تحسستها ولم أسمع إلا أنفاسها تعلو كما موج البحر يرتطم بي وحدي وأنا أسبح فيها وأغرق..كانت ناصعة كمرآة، صغيرة لا شيء فيها من منال، أردت ألا أفارق شفتيها.

بقينا ملتصقين، وواصلنا التصاقنا صيفاً، بعد ان أخضعنا لمعسكر تدريبي مغلق خاص بافتتاح دورة ألعاب البحر المتوسط التي كانت ستقام في صيف ١٩٨٧، وأمضينا الصيف ونحن نتدرب ليل نهار، لكنني فجأة سقطت أرضاً، لم أكمل المعسكر، كنت مريضاً جداً.

في بداية مرضي قال لي الطبيب في المعسكر بأنني مصاب بالتهاب أمعاء حاد وأنا لا أتوقف عن الإقياء، وأرسلني إلى البيت في سيارة "زيل" عسكرية، كنت طيلة الطريق أستفرغ من النافذة والسائق يصرخ "يلا عطيها"، وصلت البيت عصراً، وحين فتحت أمي الباب لم تتمالك نفسها من الخوف، قالت "وجك أصفر متل الليمون"، وأخذتني إلى طبيب درج عيادته يشبه تسلق جبل، قال لها ما أن بدأ بفحصي

"يرقان.. أبو صفار"، وطلب منها أن تجري لي بعض التحاليل للتأكد رغم يقينه من النتيجة.

أمضيت ما يقرب الشهرين في العلاج، كان علي أن آكل أشياء مغذية كثيرة لم يكن شيء منها موجود في سورية، والرئيس يقول في كل خطاب له "شدوا الأحزمة على البطون"، كان على أمي أن تحضر كل شيء مهرَّباً من تركيا أو لبنان بما في ذلك الأدوية الكثيرة التي كان علي تناولها، زيت سمك وفيتامينات، وإبر كثيرة كان علي شربها بدل أن أحقن بها.

أول مرة خرجت فيها من البيت بعد أن تعافيت كانت مع مأمون، لم أعرف اللاذقية، كانت قد تغيرت كثيراً، مواقف الباصات صارت زجاجية وفيها هواتف، الشوارع مخططة وفيها مسامير لامعة، والبنايات دهنت جميعاً بالأبيض، وفي كل مكان أكشاك فيها كل المواد الغذائية والمناديل الورقية والحفاضات التي كان يموت مأمون للحصول عليها من المؤسسة، وكان مأمون كلما مرّ بواحد منها يقول "كس أختهم هيدول بس للأجانب"، بينما يحدثني عن البحر وأنه سيسافر لا محالة، وحين صرنا عند موقف الباص قرب بيتي دخل غرفة الهاتف وخرج منها وفي يده السماعة، أعطاني إياها وقال "هي هدية بمناسبة شفاءك".

جاءت دورة المتوسط وذهبت، أخذتني أمي إلى الافتتاح، كانت خائفة تمسك يدي بقوة طيلة الوقت، وحين جلسنا هبط علي حزن كبير لأني على المدرج ولست إلى جانب غادة في فقرة الأطفال، وحين دخل الرئيس إلى الملعب، كان الجميع يهتف وقوفاً "بالروح بالدم نفديك يا حافظ" إلا أمي التي كانت مشغولة بساعتها، نهضت عن كرسيها

ورأسها محني على ساعتها، ومن ثم صار صوتها يعلو على جميع من حولها وهي تصرخ في أذني وبصوت ممزق "بالروح بالدم نفديك يا حافظ" مستدركة ما فاتها.

كنت مذهولاً من كل شيء والملعب كبير جداً، أكبر من الملعب البلدي، والرئيس يتحدث عن النوارس التي يريدها أن تحوم فوق البحر المتوسط بدل الطائرات، بينما اللوحة التي صنعها الطلاب تقول "قائدنا إلى الأبد الأمين حافظ الأسد"، ولتتوالى الفقرات وآلاف من الطلبة يقفزون ويصنعون برجاً بشرياً، وآخرون يركبون عربات الخيل، وخلفهم لوحة هائلة تتبدل كل دقيقة، وأنا أغالب البكاء وأمي لا ترى شيئاً وعيناها على ساعتها.

مرضت أمي كثيراً بعد أيام من الافتتاح، صارت لا تفارق سريرها وهي تتكلم عبارات لا أفهم منها شيئاً وعلى جسدها بقع حمراء، وفي اليوم الذي فاز فيه المنتخب السوري على المنتخب الفرنسي كنت مع أمي في "المستشفى الوطني" والطبيب يتحدث مع أبو سامر عن التهاب نهايات الأعصاب، وأشياء أخرى لم أفهمها.

كان الناس يحتفلون في الشوارع، آلاف البشر ومئات السيارات والطبول، وأمي تنتفض مع كل ضربة طبل أو زمور سيارة يأتيها من الشارع.

فجأة تغير كل شيء، صرت مثل مواقف الباصات التي تحطم زجاجها واختفت هواتفها بعد دورة ألعاب المتوسط، أصبحت مثل شوارع اللاذقية وقد انمحت خطوطها ونزعت مساميرها الفسفورية. جاء الخريف ووضعني في مدرسة "محمد شكري حكيم" وكساني ببدلة فتوة عسكرية، مع خط أصفر على كل كتف، وشعار دائري لاتحاد شبيبة الثورة على ساعدي.

قفز مأمون إلى سفينة راسية في ميناء اللاذقية، هرب من أخوته الثمانية، وأبيه وأمه والفرن والمؤسسة ومعمل "الكازوز" ولعنة الجوع، وسندويش الماء والزعتر التي كانت تصنعها أمه له بدل الزيت والزعتر.لم أعرف إن فعل ما قال لي بأنه سيفعله بمجرد أن تغادر السفينة به، لم أعرف إن كان قد تبول من على سطح الباخرة، ولوح مودعاً بقضيبه يميناً ويساراً بدل يده.

حزنت كثيراً عندما سافر، ثم انشغلت عن غيابه بمن كانوا معي في مدرستي الجديدة. لم يعد هناك دوام بنات، كنا صبياناً أو رجالاً بشوارب ولحى، أبعدوا عنا الإناث، لهن مدارس ولنا مدارس، كان استخدام قبضتي في مدرستي الجديدة أشد إلحاحاً، كان علي أن أتحول إلى وحش كاسر لأتمكن من مصارعة أوغاد كثر، وفي كل يوم كان علي أن أثبت شيئاً جديداً.

غادة صارت بعيدة، تهرب مني كلما رأتني، تصرخ بي عيناها أن أبتعد عنها، إلى أن أمسكت بها يوماً وهي خارجة من مدرستها، أخذتها إلى زاروب ضيق ومضت معي كما لو أنها خاروف ذاهب إلى ذبحه، أسندتها إلى الحائط ولم أقل لها كلمة واحدة، صرخت "تركني" تركتها ورحت أركض بعيداً عنها ووجهي يحترق غيظاً وخجلاً وكرهاً وحباً وألماً، وحين صادفتها بعد ذلك وأنا على دراجتي كانت مع صبي بعمري تقريباً، مضيت نحوهما ورحت أضرب من معها بجنون، ولا أسمع صرخات غادة وهي تقول "لك تركوا يا كلب يا واطي... هادا ابن عمي"، كلب.. واطي صار صوتها يتردد في داخلي، ورحت أصير ذلك الكلب وأنا أعوي من الحيرة، غادة تغيرت، نسيت بسكويتها وأقلامها، نسيت الثلج الذي لم يعد إلى اللاذقية منذ ذلك اليوم.

اعتصرت نفسي لم أخرج بجواب على ما صارت إليه غادة، كرهتها، كان الشيء الوحيد الذي قدرت عليه، صار انشغالي بمدرستي مهرباً منها، صرت عدائياً أكثر، كان في داخلي إعصار غضب، جسمي كان يساعدني، أضرب كما لو أنني روكي، ألعب كرة القدم كمارادونا، لا أحد يستطيع الوقوف أمامي وعيني على من هم أكبر مني، وكانوا كثراً وأنا في أصغر صف، أفكر بطلاب البكالوريا، أراهم عمالقة، أحلم بأن أصبح مظلياً أو أذهب إلى دورات الصاعقة* كما يفعل من هم في الثانوي، أن أضع مسدساً على خصري مثلما هو مدرب التربية العسكرية الذي كان يجعلنا نبول في ثيابنا من الخوف، بينما يضحك ويتبادل النكات مع طلاب البكالوريا.

---

* دورات اتحاد شبيبة الثورة العسكرية الخاصة بطلبة المرحلة الثانوية ، دورات المظليين تستغرق ثلاثة أشهر بينما الصاعقة مدتها شهر واحد .

في يوم الجمعة الأول من كل شهر كان علينا أن نذهب إلى المدرسة للتدريب الإضافي، نزحف ونركض ونتدرب على "النظام المنضم" والمدرب سمير حطاب يصرخ "أح اتنين"، ومن ثم نفك ونركب الرشاش "كلاشينكوف" والمسدس "مكاروف".

في جمعة كئيبة لم أصح باكراً، ولم أذهب إلى التدريب الإضافي، وعندما ذهبت إلى المدرسة يوم السبت كان الأستاذ سمير بالمرصاد، صفعني على وجهي بكفه مرتين فتطايرت الدموع من عيني، لم أتمالك نفسي، هجمت عليه فإذا به يضربني ضرباً لم أذق مثله من قبل، ثم ألقى بي على الأرض وهو يصرخ "عامل حالك قبضاي يا عرص؟"، وانهال علي بالخيزرانة، ومن ثم أمسك شعري ومرر ماكينة الحلاقة في منتصف رأسي، وترك فيه شارعاً خالياً من الشعر، وقال لي "ما ترجع إلا وولي أمرك معك".

خرجت من المدرسة وأنا أتخبط بنفسي، فكرت بأن أشتري مسدساً وأقتله، أن أغرز سكيناً في رقبته، كان وجهه لا يفارقني طيلة الوقت هو يتطاير شرراً ولؤماً، تحديداً فمه وقد تجمع على شفتيه زبد وصلني رذاذه.

لم يوقف شعوري بالقهر أي شيء، لم أعرف إلى أين سأذهب، خفت أن تراني أمي وتمرض أكثر مما هي مريضة، بقيت مرتجفاً لساعات، أضرب الجدران بقبضتي إلى أن صارت تنزف، ذهبت إلى الكورنيش الجنوبي، بقيت جالساً على مقعد والبحر صاخب أمامي إلى أن هدأت قليلاً من دون أن تفارقني مرارة حلقي واختلاجات جسمي، بينما الأمواج تضرب الصخور وأن أدير لها ظهري وأفارقها.

قبل أن أتوجه إلى البيت ذهبت إلى الحلاق، قال لي أول ما

رآني "مين هالإبن الحرام اللي عامل فيك هيك"، لم أجبه بشيء، عرف بأن ذلك من أفعال مدربي الفتوة، صار يحاول اصلاح ما أصاب شعري وهو يتمتم "شاطرين بالمرجلة على الولاد"، ولم يجد من حل إلا أن يحلق شعري على الصفر، وحين راح شعري يختفي من على رأسي أحسست بأن فمي صار محشواً بالشعر، عرفت أن العار لقمة من شعر أغص بها.

لم تمرض أمي أكثر حين عدت إلى البيت، نظرت إلي ولم ترني، وتأكدتُ من أنها أصبحت مجنونة، كانت تشاهد التلفزيون الخالي من أية صورة سوى تلك الحبيبات المتدافعة والمتضاربة على سطح الشاشة مع صوت تشويش عال له يصم الآذان، حين أخفضت الصوت وأخفيته تماماً لم تبد أي رد فعل، بقيت مركزة عينيها على الشاشة، دخلتُ الحمام وخرجت منه وهي على ما تركتها، انشغلتُ بها عن أي شيء آخر، هززتها بيدي، نظرت إلي وعيناها في شيء آخر، لم تر الآثار التي خلفها المدرب على وجهي وقرعتي اللامعة، لم تر شيئاً، لم ترني.

داهمتني مجدداً نوبة غضب مجنونة، دفعتني لإعداد خطة لقتل مدرب الفتوة سمير حطاب والتخلص من شروره، انتظرته في مدخل البناية المعتم التي يقع فيها بيته، ما أن خطا إلى داخله حتى خرجت عليه وبدأت بطعنه عشرات المرات، صارت يدي تتشنج كما لو أنني أفعل ذلك، صرت أكزُّ على أسناني. وبينما أنا غارق في خيالاتي رن جرس الباب، خرجت من غرفة النوم إلى الصالون فعثرت على أمي غارقة في النوم وهي جالسة في مكانها، حملتها، فبدت خفيفة جداً، كان جسدها لفتاة صغيرة، لم تكن سلمى أبداً ولا أمي، وضعتها في السرير ففتحت عينيها وابتسمت لي، قرع الجرس مجدداً، خفت أن تستيقظ، إلا أنها عادت إلى النوم وطوت معها تلك الابتسامة.

فتحت الباب فإذا بأدهم سراج أبو سامر، تدافعت في رأسي الصور، بدا لي أنه أبي بلا منازع، قلت سامر أخبره بما حدث معي، وصرت أسأل نفسي من هذا الرجل الحنون؟ لمَ هو دائماً يساعدنا؟ ماذا كانت عليه حياتي وأمي لو لم يكن موجوداً؟

دخل البيت وأمسك برأسي، حدّق فيّ طويلاً، كانت عيناه لامعتين ومضطربتين، بكيت، ضمني إليه، قال لي بحزم "مشي معي؟".

ذهبت معه، مرّ بسيارته الكبيرة على مقهى في ساحة "الشيخ ضاهر"، صعد معنا رجل عجوز، ظل ينظر إلي طيلة الوقت، ويقول لأدهم سراج "هلق بنشوف.. والله لأمسح الأرض فيه".

أفشل أدهم سراج كل مخططاتي بالانتقام، انتقم لي ومسح الأرض بمدرب الفتوة، اجتاحته نوبة غضب عارمة وهو يقول لسمير حطاب في محله لبيع العصير "عم تستوطي حيطي يا حيوان، مفكر حالك بدك تحرر فلسطين بالتدريب الإضافي"، وكل ما كان يفعله المدرب هو إطراق رأسه بالأرض، تداخلت عبارات أبو سامر بعبارات الرجل العجوز الذي كان يخاطبه بأبو سمير، تحدثوا بأشياء عجيبة، وحل الفرح مكان الغضب، وأبو سامر يقول له "هيدا عبودة بمقام ابني تماماً، إذا بتمد إيدك عليه بدي اكسرها"، وأبو سمير يصادق على كل ما يقوله، ويسترسل في مديح أبوسامر "الغالي، المعدل، الأفضالو مغرقه أهل اللاذقية".

تحول سمير حطاب بعد ذلك اليوم إلى حمل وديع معي، صار يعاملني كما لو أني بعمره، لا بل إن الأمر انتقل إلى جميع المعلمين ومدير المدرسة ونائبه، صرت مثل صديقي سامر تماماً، لا أحد يستطيع أن يطالني بعصاه.

كان أدهم سراج هكذا دائماً، بمقدوره أن يضع حداً لكل شيء، أن يقلب كل شيء لصالحي، بيده السعادة، يكفي أن أكون برفقته مع سامر لأشعر بأن العالم أصبح أجمل، لا يكف الناس عن تحيته، لا يقبل الباعة أن يدفع مقابل ما يأخذه، يحلفون ويمسكون يده وهو مصر على أن يدفع. كان يأخذني مع سامر إلى محلات ألعاب كأنها الجنة، وبقاليات فيها شوكولا لا تشبهها أية شوكولا، كان كل شيء ملوناً وزاهياً كما لم أره من قبل. كان يتفقد أحياناً ألعابنا أنا وسامر ويحضر لنا ما ينقصنا كما لو أنه يلعب معنا، حين صرنا نركب الدراجات أحضر لي خوذة بيضاء وأخرى حمراء لسامر، وصرت أنا من الشرطة بينما صار سامر من الشرطة العسكرية، كان الناس يحبونه كثيراً، بينما يجد سامر في ذلك عبئاً عليه، أينما يذهب يقابله أحدهم ويقول له "انت ابن الاستاذ أدهم سراج"، وهو يقابل ذلك بالضيق، وحين لا يعرفه أحد يبدو أكثر ارتياحاً، لكن سرعان ما ينكشف أمره، ويبدأ الترحيب به أينما حل، حتى بائع الفول أمام مدرستنا حين عرف أنه "سامر الغالي" خصص له صحناً كتب عليه "سامر" لا يستعمله لغيره، ومن وقتها عزف عن أكل حبة فول واحدة.

سامر لم يتغير فيه شيء، بقي على صمته الذي رافقني منذ أول مرة خطونا فيها إلى المدرسة، كان يتكلم معي فقط، ولا يشارك أحداً غيري أي شيء، له عالمه الخاص، مأخوذ بالكتب، ومليء بالعزلة والحزن، قال لي مراراً "أبي معي غير اللي بتشوفو"، كنت وما زلت لا أصدقه، وهو يعرف ذلك، من دون أن يتوقف يوماً عن ملاحقتي، كما لو أنه يحمل وصية من أبيه بأن يبقى يراقبني ويحميني إن تطلب الأمر، فأنا لم

ألجأ يوماً إلى أبيه، هو من كان يخبره بمشاكلي، هو من يستعين به ليتدخل في شيء لا طاقة لي على احتماله، أمي قبل ذلك كانت تفعل، الآن توقفت عن كل شيء.

توالت أيامي وأنا أزداد ثقة بأن سامر وحده من بقي لي، وقد كنت أنساه في ما مضى، وهو لا يتكلف أي عناء في أن يذكرني بأنه وحده من بقي لي، هو ومعه أبوه الذي صار احساسي بأنه أبي يزداد يوماً بعد يوم، خاصة عندما عرفت أن أبي لن يعود أبداً من البحر، وأمست أمي مستسلمة تماماً للهلوسات، تصارع أشباحها، تنادي كما لو أنها على جزيرة نائية "يا بطم وينك" وأنا أفكر في أشجار البطم، وأحيانا كنت أعثر عليها نائمة تحت السرير، وتصيبها نوبة ذعر تجعلها تختبئ داخل الخزانة التي ما أن أفتحها حتى تبدأ بالصراخ، أعود من المدرسة فأجدها جثة هامدة وحولها تناثرت أشياء مكسرة، وأحياناً تخرج من البيت ولا تعود إلا آخر الليل ومعها كيس كبير مليء بالخبز اليابس.

لم أعرف ما الذي علي فعله بعد أن توقفت عن اللجوء إلى منال، التي كانت أمي تزداد هيجاناً وجنوناً ما أن تراها. كانت تهدأ حين يأتي أدهم سراج، وأحياناً تعانقه طويلاً وتبكي، ومن ثم تبدأ بتقبيله ونزع ثيابها لولا أننا نمسك بها، وتبدأ تتخبط يميناً ويساراً وهي تحاول تمزيق ثيابها، كان الدكتور خالد قُبَّرة خلاصنا من تلك النوبات، يأتي ويحقنها بإبرة فتخمد وتموت ثم تعيش، وهو يقول بأنه من المستحيل أن تبقى هكذا، وأبو سامر مصر أن تبقى في البيت وألا توضع في مستشفى.

في صباح اليوم التالي تستيقظ قبلي كأن شيئاً بالأمس لم يحدث، تعد لي فطوراً وتوقظني كما كانت تفعل في الماضي، تكون مفرطة

الحنان، تقول لي "صرلك شوارب يا عكروت"، أقبِّلها بينما تدخن سيجارتها الأولى وهي جالسة إلى طاولة المطبخ الواطئة.

أذهب إلى المدرسة وأنا مطمئن عليها وكلي فرح، أعود فأجدها ما زالت كما تركتها على الكرسي الصغير نفسه، أمام الطاولة نفسها وقد اجتمعت في منفضتها ثلاثون أو أربعون سيجارة.

كانت حالتها غير خاضعة لأي منطق، أحياناً تمضي أسابيع وهي طبيعية تماماً، تنظف البيت، تشتري لوازمها، تزور منال، بعد ذلك ينقلب كل شيء، أجد على حبل الغسيل أوراقاً مالية مغسولة ومثبتة بالملاقط، وتمضي في الحمام ما يتجاوز الأربع ساعات وهي تغني، ثم تخرج عارية تماماً، ولا تقبل أن تضع قطعة ثياب واحدة عليها، وليسكنني الخوف بأن تخرج من البيت هكذا.

في يوم خريفي لن أنساه مهما حييت، شاهدتها تلاحق أولاداً يهزأون بها، وهي تصرخ "بدكون تعرفوا كم الساعة يا كلاب"، حين خلصتها منهم قالت لي "عبودة حبيبي".

عرفت وقتها بأن لقبها صار في حارتنا والكثير من الحارات التي حولنا "أم الساعات"، وأن سؤال أمي من قبل أي أحد "كم الساعة؟" سبب كاف لتنفجر بوجهه بشتى أنواع السباب والشتائم، لا بل أن تضرب السائل إن كان بمقدورها، وهكذا صارت تسلية الأولاد، ومحط سخريتهم، يسألونها عن الساعة ويهربون ضاحكين فتلحق بهم إلى أن تخونها قواها.

سامر من أخبرني بذلك، بهدوئه المعهود وبكلمات وجيزة، سمعته وأنا أمنع نفسي من الانقضاض عليه، كرهته، ولم أعرف هل كان عليه

أن يخفي عني ذلك أم يخبرني، وما عدت أميز بين الصواب والخطأ بعد أن تركني آخذ كامل وقتي في الصمت، أضاف بأن أهل اللاذقية يقولون بأنها أصيبت بهذه اللعنة بعد التحقيق معها في المخابرات، وبقائها لأيام يسألونها "في الساعة كذا وين كنت؟"

خرجت من بيته هارباً من إقدامي على صفعه، وهو كعادته لم يمنعني، لم يطيب خاطري بكلمة، تركني أمضي وكل ما في رأسي ساعة أمي التي أخبرتني بأنها الذكرى الوحيدة من والدها أي جدي الذي لا أعرفه مثلما هو أبي، وبدت الحياة كئيبة ومعها شريط طويل يمضي أمامي يحمل طلاباً كثراً كانوا يسألونني عن الساعة، وآخرين يتغامزون علي كلما وردت كلمة "ساعة"، عرفت حينها لمَ كانوا يتركونني أجيب أي استاذ قد يسأل عن الساعة، مرَّ في رأسي سيل لا ينتهي من السخرية التي كانت تحيط بي من دون علم مني، ورحت أنتقم، حتى أني صرت مثل أمي، أجيب على أي سؤال عن الساعة بقبضتي.

عادت الحيرة إلى كل ما أعيشه، امتلأ قلبي بالشحار والزفت، أمي صارت أم الساعات، دارت العقارب في رأسي، لم أخرج بتكة واحدة تضيء لي ممراً يفضي إلى شيء، لاحقتني السخرية، فكرت بأن أحبس أمي في البيت، فعلت ذلك لأيام، صرت أخرج من البيت وأقفل الباب، لكنني سرعان ما أترك كل شيء وأعود لتفقدها، أهرب من المدرسة، أجلس معها لربع ساعة أقل أو أكثر ثم أعود، وأكرر ذلك أكثر من مرة حين تطفو في رأسي أفكار مرعبة، كأن يندلع حريق في البيت ولا تتمكن من الخروج، فلا أجد نفسي إلا وأسأل المعلم أن يمنحني إذناً لأمر طارئ.. أمي لم تعرف أن الباب مقفل، لم تقل لي شيئاً بهذا الخصوص، بدا أنها لم تحاول الخروج طيلة تلك الأيام.

كانت أمي تحز رقبتي، وقد تغير مظهري في طريقي إلى الرجولة التي جاءتني مفرطة، صرت طويلاً جداً، وجسمي يبتعد أضعافاً مضاعفة عن جسمي السابق، وما من مجيب لتخبطي بشهوات حارقة، باستمناء كان كل لذتي، أكبر فتبتعدن أكثر من حولي، النساء صرن صور مجلات، ممثلات وعارضات أزياء، أمر بهن كما لو أنه من الممنوع علي أن ألمسهن، أختنق بمجرد أن أبادل واحدة منهن كلمة واحدة وأقع يومياً في قصص حب تستمر ليومين أو ثلاثة ثم أنساها وأغرق في قصة جديدة، إلى أن جاءت عتاب وكوت كل آلامي.

تصفعني الحياة بيد ..تربت علي بالثانية.

ذهبت منال، فتحت الباب وخرجت من حياتي، انتقلت مع زوجها إلى طرطوس، أصابني الحزن في منتصف قلبي، بدا لي مثل الدريئة التي صوبت عليها في معسكر الفتوة ولم أصبها، ذهبت رصاصاتي في الرمل، الحزن صوّب بدقة، أطلق وأمات.

سافرت منال وهي تقول لي سأزوركم دائماً "ما فيني بعّد عن اللادئية"، وقد كانت مسافرة عني من قبل، طبق الأصل عن غادة، ما أن طفت شعيرات قليلة فوق شفتي حتى صارت تبتعد عني، أصبح زوجها عميداً ولم تمنحني رتبة واحدة، بقيت رائداً صغيراً بنسر وحيد أو عصفور أرادته أن يبقى صغيراً، بقيت تقبلني وتعضني كما في السابق، لكن من دون أي ذرة أمل بملمس جسدها البض.

بقيت منال بطلة أحلامي الجنسية بلا منازع، أميرة الاستمناء، كانت تؤلمني بحضورها وغيابها، أهرقت عليها كل ما تجمع من دمي، أمتنع عنها فأراها في المنام فأصحو مبللاً بها، أمتنع عن الشهوات فيلفظ جسمي ما ضاق به، أحرمها على نفسي وقد صرت محاصراً بالله، وصار الجامع مثل المؤسسة طموحي في إثبات رجولتي، لم أكن أعرف كيف أصلي، كنت أحفظ بضع آيات من كتاب الديانة المدرسي، بينما أنسى الذي هبط علي في الأول الثانوي يقول لي لنذهب إلى الجامع، فأقول له

لا أعرف أن أصلي، وأذهب وأقلده، أركع حين يركع، أسجد حين يسجد، وليعلمني بعد ذلك ما علي قوله وعدد الركعات، وأشياء كثيرة عن الله ونبيه وأصحابه، الله ورسله، الحسنات والسيئات، يأخذني معه إلى دروس الدين، أسمع الشيخ وأنا شارد عنه، أصلي وأنا شارد أيضاً، يقول لي أنس "هذا في البداية فقط"، وحين رأتني أمي يوماً أصلي صارت تضحك كما لو أنها سمعت نكتة، هي كذلك لأنها لم تصلّ يوماً، لا بل لم يكن في بيتنا حتى سجادة صلاة. قبل أنس كانت الجوامع خالية، وأحياناً لا أنتبه إلى وجودها، الآن صار الناس يصلون على الأرصفة، وفي يوم الجمعة يقطعون الشارع، ومكبرات الصوت في كل مكان.

كان أنس يدعو رفاقنا في المدرسة إلى الصلاة وسلوك الصراط المستقيم، ويسألني أن أفعل مثله فلا أفعل، وأنا أجد في الصلاة ما يمنحني سكينة طارئة، ما يخلصني من جنون أمي، أدعو لها، وأنا أمنع نفسي من أدعو عليها وهي تقف أمامي وأنا أصلي ووجهها ثابت في وجهي، أسلّم يميناً ويساراً، أستغفر ربي، وأتوقف عن الصلاة إلى أن تتركني، أيضاً أستغفر ربي كلما استمنيت، أهرع للحمام وأغتسل من الجنابة، أقول لأنس بأنني لا أستطيع التوقف، يقول "أنت من الناكحين يدهم"، أفكر ماذا يفيدني أن يقول لي ذلك، وأن أكون مثلي مثل الزاني، اللعنة لم ألمس امرأة، كله خيال بخيال.

الشهادة بانتظاري "من عشق فعف فمات فهو شهيد" أعشق وأعض على عشقي كل امرأة، كل أنثى، فأعض أكثر، أشيح بنظري ويطالعني صوت أنس "النظرة الأولى لك والثانية عليك" فلا أمضي إلى ثانية

أبداً، أفشل وأنجح، أتوق للملائكة، أتخيلها ناصعة البياض غير متسخة بالشهوات، أود لو أكون مثلها تماماً، بنقائها السهل بينما علي أن أتعذب إلى ما لا نهاية لأكون من دون شهوات ولو لأيام، إن نجحت في اليقظة، فسرعان ما يتسرب الفشل إلى نومي وأغرق بأحلام جنسية أصحو منها مبللاً بحليبي.

لم أعرف لمَ لا يمنع الله جل جلاله تلك الأحلام، هو القادر على كل شيء، وأنا أسعى لأن أكون طاهراً نقياً كملائكته، لم أعرف ولا أنس عرف ولا أحد، بينما أقرأ القرآن فأحفظه و"كل حرف بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها"، أحياناً أعد الأحرف وأجمع آلاف الحسنات، أقرأ وأنا أكره القراءة من كل قلبي، فعدا كتب المدرسة لم أقرأ شيئاً، وأمتلك مع ذلك قدرة عجيبة على الحفظ، فما أن أمر بعيني على الكلمات حتى تلتصق برأسي ولا تفارقه، ولهذا بقيت ناجحاً بما يقرب التفوق في دراستي، وقد كان كل ما يطلب منا أن نحفظ. أقرأ الآية فتلتصق برأسي وأقترب من النجاة من النار كلما حفظت أكثر "لو جعل القرآن في إهاب ثم ألقي في النار ما احترق"، ويؤرقني أن تكون الحور العين بانتظاري ومعهن غلمان كاللؤلؤ المكنون، أتخيل أشكالهن على هيئة نساء أعرفهن فأغرق في المعصية. أفكر بما ملكت أيماني، وأرى أني لا أملك منهن شيئاً ولست إلا بناكح يدي.

"احفظ يا عبدالله بارك الله فيك" يقول لي أنس، وهو وحده من يناديني باسمي الكامل، بينما الجميع ينادوني عبودة، يكلمني بالفصحى، يجوّد كلامه أحياناً وأرغب بأن أسد أذني بينما تخرج الكلمات مختنقة من فمه، وأنا عاجز عن التجويد، أنا أحفظ فقط،

أنتظر ولا أعرف الذي أنتظره، أنا ضائع وجد طريقه، طريق سرعان ما تشعبت وتشابكت، أواصل المشي، أتعثر، أمشي أكثر، أحفظ وأحصي الحسنات، أتوقف ثم أتابع، ولا أعرف إلى أين سأصل.

تسوء حالة أمي، يمسي تركها وحيدة أمراً أكثر خطورة مما مضى، تبتكر أشياء عجيبة، صارت تحمل صورة بالأبيض والأسود لممثل أميركي اسمه غريغوري بك، تنظر إليها وتبكي، لا أعرف من أين جاءت بها، أمنعها من الخروج من البيت تضربني ثم تنهار، تتبول في ثيابها نكاية بي ولا تقبل أن أحممها، تبقى كما هي مع ساعتها، أفكر بأن أخفيها ولا أفعل خشية أن تموت حزناً عليها، ولتضيف إليها هوساً جديداً بكعوب الأحذية، لا تترك حذاء تراه وكعبه ملتصق فيه، أصلي وأصلي وأدعو الله أن يخلصني ويخلصها، وأخبئ حذائي كما يفعل عيسى البعدول في جامع "كريم".

يحضر أبو سامر ممرضة لتعتني بها، سرعان ما تطفشها أمي، يأتي بأخرى غيرها فتهرب منها أيضاً. بيتنا صغير بالكاد يتسع لي ولأمي، مع الممرضات اللواتي جئن إلى بيتنا صرت أرتطم بهن، أشم روائحهن ثم يذهبن ولا يعدن أبداً، وأبقى أنا مأخوذاً بهن، أفكر بالهرب، أن أختفي، أن أتلاشى، أن تموت أمي فأستغفر ربي لأشتت أفكار الوسواس الخنّاس.

عندما جاءت عتاب تغيّر كل شيء، صمدت، وجدت أمي فيها شيئاً جعلها هادئة تماماً معها، لا أحد عرف ما هو، وربما هي نفسها لم تعرف، إلا أنها كانت تطيعها في كل شيء، وأصبحتا صديقتين.

كانت لعتاب رائحة شيء بعيد تدعوني للاقتراب منها، رائحة تملأ البيت، وتتداعى الجدران حين تكون نفّاذة تأتي من عرقها مباشرة، كما لو أنها حربة مسننة تطعنني مراراً بها.

كانت عتاب قصيرة بشعر طويل، في جسدها ووجهها عيوب لا أنفر منها بل تصرخ بي أن أكتشفها، بشرتها تصفو قليلاً وتضطرب كثيراً، وقد مرت عليها كل فصول السنة بقسوة واختلطت بها، فجاءت ملفوحة بالشمس وشاحبة، صفراء ووردية، وقحة وخجولة، رقيقة ومتوحشة، والهالات السوداء حول عينيها متحالفة مع عينيها العسليتين الكبيرتين.

تأتي عتاب باكراً وتشرب مع أمي القهوة وتدخنان، تشارك عتاب أمي كل هواياتها العجيبة، تجلسان على الأرض كطفلتين تلعبان، تأخذ أمي منها حبة الدواء في الموعد المحدد وبامتنان، تتلقى إبرتها من يدها من دون حاجة لتثبيتها وربطها، تحممها وتستحم معها وتخرجان لا يغطي كلاً منهما إلا منشفة، تمشط لها شعرها وعلى وجه أمي ضحكة كبيرة.

لم أجد ملاذاً آمناً من عتاب، لم تنفعني صلاتي ولا استغفاري، كانت دائماً تبدل ثيابها بأثواب منزلية خفيفة بلا أكمام تظهر ثيابها الداخلية، وتفاصيل جسمها الذي يصرخ بي ويدعوني إليها. لم أكن بحاجة إلى جرأة لا أمتلكها، وقد كنت أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي بمجرد أن أفكر بالاقتراب منها، حينها كانت تلقي علي تلك النظرة الهازئة ومعها وقاحة العالم أجمع، لدرجة كنت أنتظر أن أتلقى صفعة منها.

في آب حار ورطب، تأخرت إلى ما بعد منتصف الليل وعدت إلى البيت على أمل أن عتاب قد نامت، كنت أعرف أنها قررت المبيت في منزلنا هذا اليوم ولن تعود إلى قريتها القريبة من اللاذقية. فتحت باب البيت فإذا بها جالسة لوحدها في الصالون تشاهد التلفزيون، تسارعت

ضربات قلبي ورحت أفكر بأنها ستكون ليلة عصيبة لن يعرف النوم فيها طريقاً إلى عيوني.

أمسكتني من يدي وأجلستني إلى جانبها، قالت لي "شو داخل تنام جنب أمك يا حلو"، ورحت أشاهد ما تشاهده وأنا مذهول تماماً بالنساء العاريات والجنس المحموم الذي يظهر على الشاشة، بينما أقول لنفسي إنها لابد محطة "سيغما" اليونانية شاغلة الناس ومطيرة عقولهم.

جلست في حضني وهمست بخبث "يلا نعمل متلهون" فأحسست بأنني على مقربة من أن يغمى علي، إلا أن فمها الذي ابتلع فمي نبّه أصغر ذرة في جسدي وحوّل كبدي وأمعائي الغليظة والدقيقة وكليتي والبنكرياس وبلعومي ولوزتي إلى أعضاء نابضة بمثل ما يفعل القلب، ورحت أخفق وأرفرف بين يديها. جردتني من ثيابي كما لو أنها تقشر موزة، قادتني إليها. كانت تقول لي وهي تكز على أسنانها "لأ ما هيك شوي شوي"، تتأوه مع كل لمسة وهي تقول: "عضني هنا واقرصني هناك". البداية كانت تعليمية، وحصتي من جسمها مدوخة وهي تدفعني إلى القيام بأشياء عجيبة، تمسك قضيبي وتدخله في كل فتحة فيها، تشتمني وتتبع الشتيمة بـ "ايه يا حبيبي" بصوت يهمس برقة وألم وعذاب.

جننتني عتاب، اخترقت كل أحلام النقاء، تلوثت بها، وأنا أتوق لأتسخ أكثر وأتمرغ بمخلفاتها، صرت أهرب من أنس، لا أفكر بشيء إلا بعتاب، وهي جاهزة لاستقبالي وتدويخي بشيء جديد، أحملها، أرفعها عالياً، ألقي بها وألوح بجسدها الصغير، تتعلق برقبتي فأنهض بها وأمشي إلى المطبخ والحمام وأمي نائمة في غرفتها، وشعور لا يفارقني

بأنها تعرف كل شيء، أو أن عتاب تقول لها، وهما متفقتان علي، أمي مجنونة ولا أعرف إن كانت تعرف أصلاً ما نفعله أنا وعتاب، جنني كل شيء في عتاب أقول مجدداً ، وأنا أدخل بيتنا فأجدها وأمي عاريتين تماماً، أصرخ بهما فلا تلتفتان إلي كما لو أني غير موجود، وتواصلان ضحكهما، وأمضي إلى حيرة أخرى وانشغال آخر بما تخفيه عتاب، فأقول لنفسي المهم أمي بخير، ما عدت خائفاً عليها، وفي داخلي ما ينفجر من الفضول لأعرف، وعتاب لا تقول لي شيئاً عن ما تفعله بأمي، ثم تدخلني إلى مملكتها الشيطانية، فأنسى أمي وأنا أراها داعرة كما لم يحدث من قبل، إنها شيطان كنت أقول وما أجمله هذا الشيطان.

أنس عاد إلى محاصرتي، أنجح في الهرب وأفشل، أفكر هل علي أن أخافه أم الله؟ ويأتي سامر ليدمر آخر ذرة إيمان في داخلي، هذا مجنون آخر يضاف إلى المجانين المحاط بهم، نعم سامر في طريقه إلى الجنون لا محالة من كثرة ما يقرأ، يستوقفني أنس في المدرسة ويكون سامر معي، ويبدأ بوعظي، لا أجيب بشيء، يتخلى سامر عن صمته المعهود، ولا يفوت فرصة قصف كل ما قاله أنس، يدمره، يروي أنس أحاديث وآيات، فيجيبه سامر بأحاديث وآيات أخرى، ويمضي إلى أشياء لم أفهم نصفها حينها، وهو يحدثه عن التأويل والتفسير وأسباب نزول الآيات، يستفيض سامر بما يعادل كل ما عرفته به من صمت، يخبره بأن الدين مرحلة من مراحل التفكير الإنساني ما عدنا بحاجة إليه، وأن كل فكرة هي مقاربة لهذا الكون الغامض، لكن البشر يفضلون أسهلها ألا وهو الدين والعيش في وهم أن هناك ما ينتظرهم بعد الموت. المجنون من أين يأتي بهكذا كلام، فأمضي معه، أتعلق به. أنا هكذا دائماً، علي أن

أجد أحداً ما أستند إليه، وحيد تعلّق بوحيد مثلي، لكن ما من أحد مثل سامر صدقوني، أقسم أنه مجنون أيضاً، حين أخبرته عن عتاب حسدني، أوصاني بأن أستمتع بالحياة، ولا ألتفت خلفي، "لا حلال ولا حرام "، ولم أعرف إلى الآن ما الذي يستمتع به هو عدا الكتب، وهو يزيد إلحاحاً على أن أفتح حواسي وأعيش اللحظة، "ما من خطيئة إلا الملل"، وأنا أعرف أن الملل يقتله أحياناً ويفضله على أن يرى أحداً أو يذهب إلى أي مكان، موصداً باب غرفته غارقاً في الكتب.

بدت حياتي أشد غموضاً من الله، تصارع كل شيء في رأسي، لم أعرف من هو غسان البراني! هل كان أبي حقاً؟ لا أحد يعرف مصيره، يقولون إنه في السجن، ولم نزره يوماً، ومن ثم عرفت وأمي أنه أعدم، أمي لم تحرك ساكناً ولا أنا، وصرت أتساءل الآن أين دفن، لا أحد يعرف أيضاً.

أنا وأمي أغنياء ونعيش في بيت حقير بالكاد يتسع لعتاب معنا، أبو سامر ومنذ أن صارت أمي مجنونة أصبح يسلمني ثلاثين ألف ليرة شهرياً، يا لهذا المبلغ! أصرف وأصرف منه ولا ينتهي، وهو يقول هذا نصف المبلغ الشهري، والباقي يضعه في حساب خاص بي.

في الثاني الثانوي آمنت أن أدهم سراج هو أبي، وسامر أخي، وأن أم سامر تكرهني لأنني كذلك. لم يجبني أحد على ذلك، بقيت معلقاً بين السماء والأرض، وأنا أقول لمَ يعطينا كل هذا المال ويعتني بنا؟ لا بل إنني كثيرا ما رأيته يتأملني بشرود كما لو أني أذكره بشيء جميل، لكن أمي كانت تتعامل معه باحترام وخجل وبالكاد تصافحه قبل أن يسكنها الجنون. أمي لم تخبرني مرة شيئاً عن أبي، تتحدث عن أحمد

البطم، ولا أعرف من هذا البطم! كانت تقول عنه "أنبل رجل في العالم"، مع أني ما عدت أفكر فيه كشجرة، بل كرجل عرفت أنه كان يعيش فوق ورشة الجنكلي، وأنه كان يصطاد بالديناميت، وهو من انفجرت فيه العلية.

أنا محاصر بماض أجهله تماماً، ولا أجد من يساعدني، فكرت بسامر وبحت له بكل ما يؤرقني، صار يضحك بحزن كعادته عندما لا يجد إجابة على شيء، ووجد أفضل تفسير أن يكون والده والدي على سبيل المزاح المر كما أوضح لي. لم يكن سامر مخلصي هذه المرة، وكانت عتاب تنسيني كل شيء، وشيطان على يمينها وآخر على يسارها، وأنا اكتشف أنها تسرق من البيت، وأتأكد من ذلك مراراً، فأقول لها "لا تسرقي، قولي ما يلزمك وأنا أعطيك"، فتجيبني "ما فيني، بدي إسرق، هيك أحلى"، فأقبل أن تواصل سرقتها التي لا تزيد عن ألفين أو ثلاثة، وأعتبر ذلك زيادة على راتبها.

الألغاز تتكاثر، عتاب حولت بيتي إلى وكر شهوات، وأنا أنغمس بها أكثر، ولا أعرف ما سرها وأمي.

أمي بكامل فرحها دائماً كما لم تكن من قبل، لا بل صارت تستعيد لونها وصحتها، تأكل جيداً، تمسي مجنونة في لحظات لا أعرف توقيتها لكنها قليلة ومحتملة، وأصبحت أفكر بأنني إن بقيت في هذا البيت سأصاب بالجنون لا محالة، وسكنتني فكرة السفر كما كان يفعل كل من في "الزاروب" والمدرسة، أردت أن أخرج من البيت ولا أعود إليه، وأفارق اللاذقية التي صارت تزداد بشاعة يوماً بعد يوم، وشارع "بورسعيد" ما عادت فيه مستودعات المرفأ بل صارت دكاكين ومقاهي

بشعة، واستبدل الفرن بمغسل سيارات قبيح، وأصبح المشي على أرصفة اللاذقية مغامرة محفوفة بالمخاطر، بعد أن صارت مستباحة تماماً من الشبِّيحة والمهربين وأبناء السلطة والنفوذ الذين قد يضربونك ضرباً مبرحاً لمجرد التسلية، أو يصوبون عليك أسلحتهم لاختبار مدى شجاعتك وهم يطلقون رصاصهم حولك.

يومياً هناك سيارات مجنونة تقطع الشوارع باتجاهات معاكسة وبسرعات جنونية وعلى السيارات الأخرى أن تتنحى جانباً، لأنها إن لم تفعل فمصيرها مطر من الرصاص. سيارات مرسيدس سوداء مليئة بالانتينات ورشاشات من كل الأنواع، ظهرت كما لم ير مثلها أحد عند تجديد البيعة للرئيس يوم كنت في الأول الثانوي، حيث بقي إطلاق الرصاص ابتهاجاً بهذه المناسبة لأكثر من شهر، وصارت المنافسة حامية الوطيس بين فصائل الشبِّيحة، وكلٌّ يتباهى بنوع الأسلحة التي يستخدمها، لدرجة وصلت بأحدهم إلى وضع رشاش مضاد للطائرات على سطح بناية "الأوقاف" أعلى بناية في اللاذقية وإطلاق رصاصات خطاطة.

أصبح كل شيء متوفراً في اللاذقية بفضل التهريب، عصابات منظمة تسيطر على خطوط التهريب القادمة من لبنان وتركيا، قوافل من السيارات المحشوة بكل شيء تتوزع في أرجاء سورية، وأرباحها تصب في جيب الأشباح المرحة، وشبِّيح أكبر اسمه بارود لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، له أن يقرر فجأة أن يمنع التجول في شارع ويستعرض مهارته في سواقة دراجته على عجلة واحدة، أو أن يبقى يدور بسيارته و"يشفط" بها ويطلق النار عالياً أمام بيت امرأة أعجب بها، مع قصص عن قيام شبِّيح متمرس بدخول قاعة الاستقبال في فندق

"المريديان" بدراجته وأخذه مفتاح غرفته من دون أن يترجل عنها، ومواصلته طريقه إلى المصعد بالدراجة أيضاً، إلى أن ركنها خارج غرفته في الطابق السادس، وآخر أطلق الرصاص على سيارة لم يفعل سائقها شيئاً إلا تجاوزه، مع استخلاص عبرٍ كثيرة مع كل حادثة تساعد على تجنب وقوعها مع من تصلهم.

كانت هذه القصص تصيبني بسعادة كبيرة، أفرح بسماعها وأتوق إلى أن استطيع القيام بما يمارسون من ألعاب مجنونة، كنت مسحوراً بهم، ولا أستطيع الاقتراب منهم، أبول في ثيابي إن مروا بالقرب مني، رغم أن طموحي ومن حولي في المدرسة أن نصير مثلهم، من دون أمل لي بذلك، فأنا لم أقبل في دورة المظليين التي كانت ستفتح طرقاً كثيرة أمامي، أولها وضع الشعار الذهبي الذي يسمى "الوينغ" على صدري، مروراً بحصولي على ٤٥ درجة اضافية على مجموع علاماتي في الشهادة الثانوية، وربما إتاحتها الفرصة أمامي لأن أكون شبيحاً. كان أبي الذي لا أعرفه عائقاً بيني وبين قبولي، رغم أنني لم أنتسب إلى حزب البعث العربي الإشتراكي الذي لن أقبل فيه أبداً بسبب أبي أيضاً، إلا أن أمين الفرقة الحزبية لمدرستنا كان يطمئنني باستمرار بأن تصنيفي السياسي "حيادي إيجابي".

كانت مؤثرات الشبيحة حاضرة على صعيد الثياب وقصات الشعر وتشذيب اللحى والنظارات الشمسية كما لو أننا أصبحنا جميعاً آل باتشينو أو روبرت دي نيرو، و مثلنا الأعلى بارود المتفوق على النجمين وأفلام المافيا اللعينة، وفي كل مكان نسمع من يردد "اهرب يا فتى بارود قد أتى".

صيف عام ١٩٩٣ كنت على حافة الجنون، وكلي خوف أن أرثه عن أمي، صار كل ما حولي مدعاة للملل والخوف، لم أعد معتداً بقوتي وجسمي الرياضي، وصارت عتاب تبدو لي مشعوذة حقيرة وأنا لا أتوقف عن تفريغ شهوتي فيها وشعوري بآثام من نوع خاص معها، وهي لا تتوقف عن نهبي جسداً وروحاً ومالاً، وبدا استقرار حالة أمي أكثر إيلاماً من هيجانها ونوبتها العارمة، ولم أعرف ما الذي علي فعله.

أذناي تحولتا فجأة إلى صدفتين كبيرتين مسكونتين بالأمواج، ورحت أبحث عمن يضعني على سفينة لترمي بي بعيداً عن كل شيء، كان ذلك بيد عبدالله سراج، لكنني كنت متأكداً من أنه سيمنعني، فلجأت إلى رفاق مأمون الذي صرت مسكوناً به كما لو أنه الناجي الوحيد من كل شيء، ووجدت ضالتي في باخرة راسية في جزيرة أرواد، حزمت أمري ورتبت كل شيء، ذهبت إلى طرطوس من دون حقيبة، ولم أخبر أحداً عدا سامر الذي ودعته وودعني وعيناه غارقتان بالدموع.

عندما وصلت طرطوس، كان علي أن أستقل مركباً إلى أرواد، وحين وصلت الجزيرة أصابني دوار بحر لعين كنت أسمع به وعرفته حينها للمرة الأولى، لم أعرف ما أصابني، صارت معدتي تتقلص وتعتصر ما في داخلها وهي فارغة تماماً وتجعلني أتقيأ من دون توقف، شعرت بالمهانة، ضاقت الدنيا وصغرت تماماً في عيني، لم أقو ولم أجرؤ على الذهاب إلى القبطان زكريا الذي كان بانتظاري، خجلت، تحولت إلى ضفدع، أحسست بأنني كائن سخيف أقرب للصرصار، صرت لزجاً ولي رائحة نتنة شممتها طيلة طريق عودتي إلى اللاذقية، امتلأ قلبي مجدداً بالشحار والزفت.

أصبح السواد في قلبي أشد قتامة، وبدا اليأس بلا حدود متى جاء

من جهة الفشل، فكرت بالانتحار، غدا فجأة الحل الوحيد للتخلص من كل شيء ما دمت عاجزاً عن فعل أي شيء.

لم تمض ثلاثة أيام على فعلتي ويأسي حتى سألني سامر المجيء إلى بيته لأن والده يريد أن يراني، لم أستطع الرفض، أجبرت نفسي على الذهاب، وكشف القدر عن مزيد من المفاجآت، مؤكداً قدرته على الحفاظ على وتيرة ثابتة تعودتها، نعم يصفع بيد ويربت بالثانية.

طلب مني أبو سامر أن أواصل دراستي وأن أعده بذلك، ففعلت، ومضى يقول لي بأنني سأدرس إن رغبت الملاحة البحرية في اليونان، "بس أنتا خود البكالوريا واترك البائي علي"، عاد سامر إلى رأسي وبدت إمكانيات الجنون واردة أيضاً لدى الفرح، أو عند الشعور بامتنان شديد، دفعني لأن أبكي وأنا أستمع لما يقوله والده لي، ولم أمسك نفسي عندها كما كنت أفعل في كل مرة، صرخت به "أنت أبوي"، هكذا خرجت العبارة من فمي وقد كنت أريد أن أسأله إن كان أبي، لا أن أصارحه بما يعرف أنه شعوري.

قبل ذهابي إلى اليونان، اتضحت أشياء وأشياء، أفرغ أبوسامر كل ما في جعبته من أسرار، قال ما عليه قوله، مبقياً لي أن أستخلص حقيقتها، عرفت بأن راتبنا الشهري أنا وأمي كان مخصصاً لنا من أحمد البطم، والذي ترك لي أيضاً حصة من أملاكه أصبحت الآن بالملايين وأنه أي أدهم سراج لم يكن إلا وصياً عليها، هذا عدا عمّ تراكم من أموال في حسابي الذي يكفي لدراستي في أي مكان في العالم.

هكذا صرت فاحش الثراء فجأة، وتوالت قفزاتي العجيبة، تشوشت الخطوط على جبهتي صرت متجهماً، ضحكت إلى أن صارت عظام

وجهي تؤلمني، كان علي الهرب بدل تعقب أحمد البطم والبحث في كل ذرة غبار تحركت مع كل خطوة من خطواته المجنونة، مجنون آخر يضاف إلى قائمة مجانيني الأعزاء المستعد للموت من أجلهم، وقد كان موتي بأن أهرب منهم جميعاً، أن أهرب جيداً وأنا أفكر كيف سأبدد ثروتي؟ على ماذا سأبددها؟ وأنا أستيقظ يومياً وأهلوس بما صرت إليه، بما انفتح أمامي فجأة، مأمون كان يعرف ربما! أضحك، هو لا يعرف شيئاً، المسكين هرب لأسباب لم تطلني يوماً، كنت مثل أحمد البطم غنياً يعيش تحت ظل الفقر، وأنا أشبه أكثر أبا غسان البراني، وليس لي في هذا الكون سوى أدهم سراج، وحده مخلصي، هو من بقي لي، ملاكي الحارس ومعه سامر ابنه المجنون وهو يقرأ ويبحر مع الكتب، أنا أريد بحراً مالحاً بأمواج عالية تغسلني، من دون دوار لعين لن أعود إليه. سأترك اللاذقية التي لم يتركها أحمد البطم، حواسي كلها متفتحة، أريد أن ألتهم ما هو أمامي ولا أنظر إلى الخلف أبداً، أن أمسي متوحشاً تماماً لا أخاف من شيء، بلا مستقبل أو أمل، أتتبع اللحظة تلو اللحظة وأمسك كل واحدة منها كما قال لي سامر الذي يبدد عمره لا أعرف على ماذا، أفتح ذراعي وأترك أمي محاطة بذراعيّ عتاب الوعرتين، وقد صارت ظل أمي وهي لا تفارق بيتنا. أمي أرملة تتوكأ على مطلقة شبقة، أمي وكل ما دخنته من سجائر ورائحة تبغ عتيقة لا تفارقها، تلتصق أكثر بعتاب فلا تجد إلاها تكبر معها وتهرم مثلها، طبق الأصل عنها، وكلاهما في لوعة وفرح وحزن، بالتناوب بينهما، لهما عالم ليس لأحد أن يدخله من دون أن يستأذن حنانهما وقسوتهما وجنونهما، جنون يتحكمان به، وأمي تقرر متى تكون بكامل جنونها أو صمتها أوكلامها

العالي المتدفق المسكون بالهلوسات.. حين قلت لها إنني مسافر نظرت إلي تلك النظرة التي افتقدتها لعشر سنوات أو أكثر "روح يا حبيبي.. كل الرجال بيروحوا".

مضيت، فارقت اللاذقية كما لو أني أخرج من رحم، كان يوماً ماطراً من تلك الأيام التي كنت أسمع فيها مناجاة اللاذقية للسماء والغيوم بأن ترأفا بها، فتداخلت مناجاتي بمناجاتها وصرت أبتعد عن بحرها وسمائها إلى أن بدا المطر أزرق تماماً بلون كل ما ينتظرني.

صورة الغلاف للفنان: أسامة شعبان

في اللاذقية في الثمانينيات حكايات حب وعنف وانتظار مواسم الصيد والقطاف، والبحر يهدأ أو تتكسر أمواجه على الشاطئ، وبين مئات الآلاف من الناس العاديين تتحرك شخصيات مسكونة بالتحدي والولع البحري بالسفر والاختفاء والحنين، وثمة صيادون يحاولون ترويض البحر بالديناميت، وآخرون يحاولون ترويض البشر بمشتقات الديناميت.

ISBN 2-84306-080-x
9 782843 060809